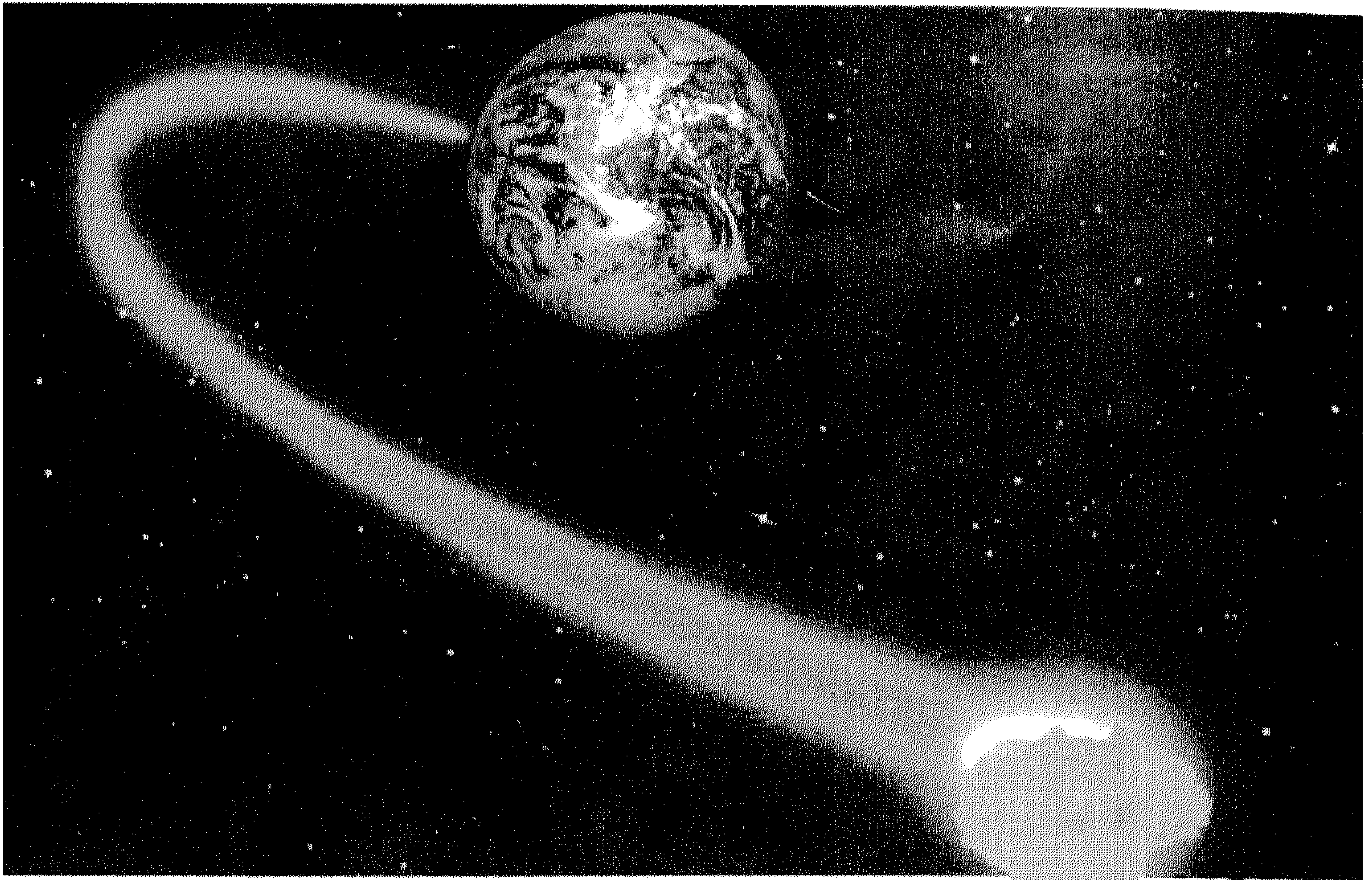


العرب والعولمة

شجون الحاضر وغموض المستقبل

تأليف

د. محمد على حوات

مكتبة مدبولى

العرب والعولمة

شجون الحاضر وغموض المستقبل

العرب والعولمة

شجون الحاضر وغموض المستقبل

تأليف

د. محمد على حوات

2002

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٩
الفصل الأول	١٧
مفهوم النظام العالمى الجديد	١٧
مفهوم العولمة	١٩
جذور العولمة	٢٠
بداية بزوغ الدولة القومية	٢٢
الحواجز الجمركية	٢٥
العولمة وتراجع قوة الدولة – الأمة	٢٦
الفصل الثانى	٣١
الشرق أوسطية والعولمة	٣١
الدولة العربية والدولة الصهيونية والعولمة	٣٥
نحو رؤية للشرق أوسطية والعولمة	٣٧
تناول مفهوم الشرق أوسطية فى الفكر السياسى العربى	٤٣
الجدل العربى حول الترتيبات الإقليمية الجديدة	٥١
تيار الرفض للشرق أوسطية	٥٢
غموض مفهوم الشرق الأوسط	٥٩
الفصل الثالث	٦٣
العولمة من منظور ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال	٦٣
تسارع النمو فى حجم الإنتاج المعلوماتى	٦٤
مولد مجتمع المعلومات وآلات التفكير	٦٦
مراحل تطور الحاسبات الإلكترونية	٧٠

الموضـــــــوع	الصفحة
الإنترنت وثورة المعلومات وتكنولوجيا الأقمار الصناعية	٧١
البث التليفزيونى بواسطة الأقمار الصناعية	٧٢
الإنترنت أصول الفكرة وأهمية الدور	٧٣
الإنترنت وجانبيها المظلم والمضئ	٧٨
الفصل الرابع	٨٥
العولمة الاقتصادية واتفاقية الجات	٨٥
الجات وتحولات عقد التسعينات	٨٩
عولمة منظمة التجارة العالمية وآثارها على الوطن العربى	٩٤
الدول العربية واتفاقية الجات	٩٧
عولمة الغرب وعولمة الآخرين	١٠٩
استخدام الحصار الاقتصادى كآلية عولمة	١١١
الفصل الخامس	١١٥
العالم الثالث والعولمة	١١٥
مؤتمر سياتل ومخاوف الدول النامية	١١٩
العرب والدول النامية	١٢٤
الإسلام وبيريز وفريدمان	١٣١
الفصل السادس	١٣٧
العرب وتحولات نهاية القرن العشرين	١٣٧
العرب وإسرائيل الإمكانات البشرية والتقنية	١٣٨
الإنتاج العلمى والتقانى المحكم	١٤٨
الإخفاق العربى فى القدرات التقانية	١٤٨
الفصل السابع	١٥٧
العرب والعولمة الثقافية والإعلامية	١٥٧
الذاكرة والهويـــة	١٥٨
بداية تكوين الهوية العربية	١٦٤

الموضـــــوع	الصفحة
الخصوصية وأصالة السيف	١٦٦
الإعلام والعولمة والغزو الثقافى	١٧٤
ثورة تكنولوجيا الاتصال واختراق الثقافة العربية	١٧٥
المخاوف الأوروبية من الأمركة الإعلامية	١٧٩
صورة العربى وعنصرية التلفزة الأمريكية	١٨١
العرب وتكنولوجيا الهيمنة الثقافية	١٨٤
الفصل الثامن	١٩٣
العرب فى مواجهة تحديات العولمة	١٩٣
انعكاش تحولات أخر القرن العشرين على النظام العربى	١٩٣
إشكالية الوحدة – إشكالية الديموقراطية	١٩٩
على سبيل المواجهة الاقتصادية العربية للعولمة	٢٠١
بعض ملامح الاقتصاد العربى	٢٠٢
التوزيع الجغرافى للصادرات والواردات العربية	٢٠٧
ميزان التعامل الجارى مع العالم الخارجى	٢٠٨
الاستثمار الأجنبى المباشر	٢٠٩
سياسة التنمية البشرية	٢٠٩
بعض ملامح تأثيرات العولمة على الجانب الثقافى والإعلامى ...	٢١٢
أسباب تفوق العولمة الأمريكية فى الوطن العربى	٢١٥
بعض الآثار الإيجابية للعولمة على الثقافة العربية	٢١٧
سبيل المواجهة العربية للعولمة الثقافية والإعلامية	٢٢٠
البنية السياسية عنصر مواجهة للعولمة	٢٢٢
تنمية الثقافة العلمية كجزء من مواجهة العولمة	٢٢٧
الخاتمـــــة	٢٣٣
المراجــــع	٢٣٧

المقـــدمة

منذ بداية عقد التسعينات من القرن الماضى والفكر العربى مشغول بالظاهرة الجديدة التى لم يتفق الكتاب العرب على تسمية واحدة لهذه الظاهرة رغم كثرة حديثهم عنها، فقد أسماها بعضهم (العولمة) وأطلق عليها البعض الآخر (ألكونية) ، وقسم ثالث سماها (الكوكبة) (١) . وما يهمنا فى هذا الصدد هو طرح مجموعة من التساؤلات عن حقيقة العولمة(*) ما هى ؟ وكيف يمكن تعريفها ؟ هل هى مفهوم اقتصادى أم ثقافى أم اجتماعى ؟ وهل تعنى العولمة بروز عالم بلا حدود اقتصادية وثقافية واجتماعية ؟ وهل تعنى العولمة ظهور نظام اقتصادى واحد أم قيام حكومة عالمية واحدة يذوب المحلى فى العالمى ؟ وبروز العامل الخارجى كعامل مؤثر فى مواقف وسلوكيات الأفراد على المستوى العالمى ؟

الواقع أنه لا توجد إجابات حاسمة لمثل هذه التساؤلات وبالتالى يصبح تعريف العولمة أمر بالغ الصعوبة . ونجد أن مفهوم العولمة فى الأدبيات السياسية والثقافية العربية المعاصرة لا يساهم فى ضبط وتحديد الظاهرة وأبعادها الأساسية ، فالعولمة مفهوم يراد منه فى كثير من الكتابات العربية الراهنة أن يكون مرادفاً لمعنى العالمية فتختلط المفاهيم لتتحول من أدوات للتواصل المعرفى ، إلى أدوات للتشويش الفكرى الذى لا يسعفنا فى تحديد الظاهر أو يجعلنا نستوعبها .

وثارت فى الفترة الأخيرة مع دخول السنة الأولى من الألفية الثالثة تساؤلات أكثر جدية من سابقتها ، هذه التساؤلات تدور حول الفرص والمخاطر التى تفرزها العولمة وعن أساليب التعامل مع هذه الإفرازات ومرتكزاتها وأصبح من غير الممكن فهم عقد التسعينات من القرن الماضى وما حدث فيه من تطورات متلاحقة دون الرجوع إلى ظاهرة العولمة التى أصبحت الآن الإطار المرجعى لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية (٢).

---

(١) د. إسماعيل صبرى عبد الله :الرأسمالية العالمية فى مرحلة ما بعد لإمبريالية ، مجلة المستقبل العربى ، عدد ٢٢٢ ، ١٩٩٧/٨م ، ص ٤ .

(*) الشائع هو استخدام مصطلح العولمة .

(٢) Mike Featterston , Scott Lash and Roulad Robertson, Glob al moidernities, London 1995 p.1

ورغم ارتباط مفهوم العولمة بالتحولات الخارقة للعادة التى تعيشها المجتمعات المعاصرة ، بما يشبه الثورات الكبرى التى قادت العالم الحديث نحو المجتمع الصناعى، على أنها ثورات وتحولات تحدث على مستوى العالم فى أوقات متقاربة ، وتعمم من خلالها مفاهيم وتوجهات وأذواق ، إلا أن مصطلح العولمة لم يكن له أي وجود قبل منتصف الثمانينات من القرن العشرين ، وقد أصبح اليوم من أكثر المفاهيم والمصطلحات تداولاً على مستوى العالم .

إن الحديث عن العولمة قد تزامن مع بروز مجموعة من الظواهر السياسية والحياتية والمستجدات الفكرية والتطورات التكنولوجية التى تدفع فى اتجاه ترابط العالم وتشابكه وتقاربه وزيادة انكماشه [1].

وقد ارتبط مصطلح العولمة أشد الارتباط بالثورة العلمية والمعلوماتية الجديدة والتى تكتسح العالم منذ بداية التسعينات أصبحت القوة الأساسية المسئولة عن بروز العولمة وإن لم تكن الوحيدة . فالثورة العلمية والتكنولوجية هى التى جعلت العالم أكثر اندماجاً وهى التى سهلت وعجلت حركة الأفراد ورؤوس الأموال والسلع والمعلومات والخدمات ، وهى التى جعلت المسافات تتقلص والزمان والمكان فى حالة انكماش .

وتمثل العولمة نوع من التداخل الكثيف فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية بين مختلف دول العالم والذى من الصعب إن لم يكن من المستحيل ضبط تأثيراته والتحكم فيه بالإجراءات التقليدية كإغلاق الحدود وقطع العلاقات الدبلوماسية مثلاً . فالعلاقات الدولية اليوم لم تعد تقتصر فقط كما كان عليه الحال من قبل على العلاقات التجارية (استيراد وتصدير) والدبلوماسية (تبادل البعثات) أي تلك العلاقات التى كانت تقررها الدول بكامل إرادتها فى إطار ممارستها لسيادتها على شعوبها وبلدانها ، بل أصبحت اليوم بفضل التقدم الهائل لوسائل المواصلات وثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال تتخطى كل الحدود وتحطم كل القيود لتفرض

---

(١) د . علاء الخواجه :الآثار الاجتماعية للعولمة فى دول الخليج :دراسة مقدمة إلى مؤتمر العولمة والعالم العربى ، مركز بحوث الدول النامية ، جامعة القاهرة من ١٧ ـ ١٨ مايو ٢٠٠٠ .

نفسها على كل المستويات المهمة الحساسة بعيداً عن أية مراقبة من أي نوع كانت هذه المراقبة [1].

وقد مرت العولمة بعدة مراحل منذ بداية الكشوف الجغرافية ، أهمها :

١ ـ مرحلة تطور الرأسمالية التجارية :

نظراً للدور الحاسم الذى لعبته التجارة وطبقة من التجار المشتغلين بالتجارة البعيدة أمكن تسميتها بالرأسمالية التجارية . وقد بدأ نشاط هؤلاء التجار بالاستيراد من خارج أوروبا السلع التى يرغبها ويهواها الملوك والأمراء والنبلاء والكرادلة .... إلخ .

وكان سادة المجتمعات الأوروبية فى ذلك الوقت يستوردون الأخشاب الثمينة والعاج والذهب من أفريقيا عبر تجار المغرب العربى ، واستوردوا من الصين على طريق الحرير الشهير وعبر تجار من الإيرانيين وعرب الشام ، واستوردوا من الهند وجنوب آسيا عبر اليمن وموانيها فى حضرموت وعدن والمخأ وعن طريق مصر، ونجحوا فى تكوين مناطق ذات حكم ذاتى حكمت المدن الساحلية من البندقية شرقاً إلى جنوه غرباً .

٢ ـ الرأسمالية الصناعية [2]:

وظهرت خلال القرنين ١٨ ، ١٩ حيث لعبت الصناعة دوراً حاسماً فى تطور المجتمعات الأوربية ، وأهم انجازات هذه المرحلة هو استبدال القوة العضلية الإنسانية والحيوانية بقوة الآلة التى طورت ورفعت إنتاجية العمل خاصة فى ميادين إنتاج الصلب والنسيج والطاقة .

٣ ـ الرأسمالية المالية : ١٨٥٠ـ١٩١٤ :

حيث لعبت المؤسسات المالية مصدر التمويل لقطاع الصناعة وغيره ، فقد نشطت بنوك الأعمال التى كانت تحقق أرباحاً طائلة من خلال تأسيس المشروعات وإصدار الأوراق المالية ومنح القروض للدولة ورجال الصناعة والأعمال . وهكذا

---

(١) الحسين عصمه :العالم الإسلامى وتحديات العولمة ، مجلة الكلمة ، العدد ١٩ ، ربيع ١٩٩٨م، ص٧.
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

صارت الرأسمالية تعيش جزئيا من توظيف رأس المال أكثر من استثماره ، أي على ربح الأوراق المالية أكثر من ربح المشروعات الإنتاجية .

٤ـ رأسمالية بعد الصناعة : أو الثورة التكنولوجية :

وهى التى بدأت تترسخ أكثر فأكثر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وتميزت هذه المرحلة بالتطور فى مجال البحث العلمى التطبيقى فى التنمية الاقتصادية. وبدأت الثورة التكنولوجية الحديثة تسعى لاستبدال الطاقة الذهنية للإنسان باستعمال العقول الإلكترونية فى تسيير عمليات الإنتاج ، وهذا ما يفسر تزايد ما يسمى بالقطاع الثالث والقطاع الرابع بالنسبة لاقتصاديات الدول المتقدمة مقارنة بالقطاعات التقليدية (الفلاحية والصناعية) .

فى هذه المرحلة المتقدمة من تطور الرأسمالية تندرج العولمة باعتبارها مظاهر اقتصادية اجتماعية وسياسية لإنجازات علمية وتكنولوجية قتلت ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال روحها وعمودها الفقرى ، أو كما يسميها توفلر " بالموجة الثالثة " والتى يقصد بها نمط حضارى جديد قوامه العلم والمعرفة[١]. ولا تمثل الموجة الثالثة فقرة نوعية فى تطور وسائل الإنتاج فقط بل أيضا مرحلة جديدة فى حياة الرأسمالية التى حددت بالمراحل سالفة الذكر [٢].

إننا إزاء ظاهرة شركات جبارة تتعدى الجنسيات وتعبر القوميات وتعمل على تكييف مختلف النظام والسياسات الاقتصادية مع احتياجاتها هى ومع تصورها لما يجب أن تكون عليه حال الأسواق ، وهى إذ تتحكم فى تكنولوجيا ثورة المعلومات والاتصالات وتنفرد بالجزء الأكبر فى الانفاق على التطوير ، تفرض الآن بل ومنذ السبعينات على اقتصادات ودول ومجتمعات العالم أن تعيد التكيف مع مظاهر ومعطيات العالم الجديد الذى تعيد الآن تشكيله تحت مسمى " العولمة " ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشركات العملاقة متعددة الجنسيات هى التى كانت اللاعب الرئيسى وراء اتفاقيات الجات لعام ١٩٩٤م وإنشاء منظمة التجارة العالمية WTO من أجل الدفع

(١) الفى توفلر : حضارة الموجة الثالثة، ترجمة عصام الشيخ قاسم ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص١٩.
(٢) فتح الله ولعلو : الاقتصاد السياسى ، الجزء الأول ، دار النشر المغربية ، ط ٢ ، ص ص ٥٢-٥٣.

بقوة بما أصبح يعرف بـ (تحرير الأسواق والتجارة العالمية وتدفقات السلع والمنتجات والأموال السائلة والأوراق المصرفية والمواد الإعلامية والإعلانية والدعائية) .

ولأول وهلة يبدو هذا التحرير الذى يتجاوز قدرات وصلاحيات وسلطات الدولة القومية بمثابة الفاتح لأبواب السعادة والرخاء[1] حيث يعتقد الكثيرون منا نحن العرب أن العولمة ستحمل معها سلعاً ومنتجات استهلاكية وترفيهية واستثمارات عديدة وأنه ستكون هناك نتائج إيجابية لاندماج الأسواق المالية والبورصات العربية فى البورصات العالمية، فى حين أن ما يحدث هو تكريس لتبعية تقانية ومالية وتجارية تضاعف التبعية السياسية وازدياد القيود على هامش المناورة السياسية أو على أية محاولة لاستثمار التناقضات والخلافات بين الدول الكبرى ، وبالتالى تنامى ضعف القدرة على صناعة القرار السياسى الوطنى والقومى العربى .

وإذا كان الأمر قد بدأ للوهلة الأولى عند الكثيرين مشرقاً كما أسلفنا فإنه ومع مرور الوقت بدأت تتضح حقائق عولمية أوجدت اضطرابات ذاتية ما لبثت أن فاقمت من تباين ردود الأفعال فأصبح أيضا كثيرون يرفضون العولمة رفضاً قاطعاً ويدعون إلى اتخاذ التحصينات اللازمة ضدها من خلال التشبث بالموروث والتقوقع داخل الحدود حتى لا تطغى بأخلاقياتها وشرورها فتؤثر فى أخلاقيات الأمة وقيمها وتراثها. وإذا كان التياران السابقان قد نظرا إلى العولمة من خلال عدسات لا ترى سوى الأسود أو الأبيض ، فإن تيار ثالث يقبل العولمة مع التحفظ أو بشروط معينة تنهض فى النهاية على فكرة تعظيم الإيجابيات وتحاشى السلبيات قدر الإمكان . بعبارة أخرى هناك موقفان جديان ، هما موقف الرفض الكامل وموقف القبول الكامل ، بينهما سلسلة من المواقف التى تندرج من الرفض إلى القبول ، ولا ينبغى أن يفهم بالمعنى الكمى أي بحجم الرفض والقبول أو درجة كل منهما ونسبته إلى الآخر ، لكنه ينطوى على تدرج نوعى أيضاً فيما يتعلق بطبيعة ما يتم رفضه ونوعية ما يتم قبوله . لكن المسألة ليست بهذه البساطة إذ أنه من الصعب فى كثير من الأحيان تجزئة العولمة أو تفتيتها إلى مجموعة من القطع المفصلة يتم قبول بعضها ورفض البعض الآخر ،

---

(١) د. صلاح عبد البديع شلبى العضوية فى منظمة التجارة العالمية وتنفيذ الاتفاقيات التجارية الدولية، سلسلة كتاب الاقتصادى رقم ١٢٣ ، القاهرة ، أبريل ١٩٩٢ ، ص ٧.

وبالتالى لم تزل مسألة كيفية التعامل مع العولمة قضية شائكة ومعقدة والمفترض أنها تختلف من مجتمع لآخر ومن إقليم لآخر ، لما هو قائم وملاحظ فى طبيعة التطورات التى تحدث الآن فى كثير من بلدان العالم والمرتبطة بالعولمة ، والتى تتسم هى أيضاً بالتناقض الصارخ ، فالتفكيك يمضى جنباً إلى جنب مع التكتل والتنافسية يقابلها الاحتكار ، والنمو يتواكب معه المزيد من الإفقار ، ودعاوى السلام يتوازى معها ممارسات غير مسبوقة للعنف ، أى أن سلبيات عديدة تطفو على السطح مقابل بعض الإيجابيات . أو كما يرى بعض المفكرين العرب وغير العرب أن السمة الغالبة للعولمة هى الفوضى أو أن إمبراطورية الفوضى هى حتمية العولمة (١).

وعموماً يمكن القول إنه برغم ما يحيط الصياغة الدقيقة لتعريف العولمة من صعاب فى ظل محاذير تعدد الانحيازات الأيديولوجية للباحثين إلا أنه من المؤكد أن العولمة تعكس فى جملتها مجموعة من التغيرات التى تشهد إجماعاً من قبل المحللين ، لعل أبرزها نمو الاعتماد المتبادل بين الدول والاقتصادات القومية فى إطار وحدة الأسواق مع تنامى المبادلات التجارية من خلال الشركات متعددة الجنسيات والتكتلات الاقتصادية والمؤسسات الاقتصادية الدولية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية ... إلخ .

وبما أن العولمة هى الوليد الشرعى لثورة المعلومات التى ظهرت مخلفاتها فى الانتشار السريع والمباشر أحياناً للمعلومات وسهولة الحصول عليها ، إضافة إلى نشر ثقافة كونية عبر انتقال الأفكار والترويج لثقافة عالمية تقود إلى زيادة معدلات التجانس بين مختلف التجمعات (٢).

ومن هذا المنطلق ، ربما كانت رؤية البعض للعولمة على أنها مرحلة لولوج أحد أطوار التطور الحضارى العربى الذى يميل فيه مصير الإنسانية إلى التوحد ، وإن كان هذا الوضع لا يعنى بأى حال من الأحوال التجانس والتساوى بين الجميع، وانما يعكس درجة عالية من التفاعل والتأثير والتأثر وهو ما يعنى ربط العولمة إلى حد كبير بالاعتماد المتبادل .

---

(١) جريدة الحياة اللندنية ١٩٩٩/٧/٧م .

(٢) توماس فريدمان السيارة لتكساس وشجرة الزيتون فى محاولة لفهم العولمة ، ترجمة ليلى زيدان ، الدار القومية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص ٣ .

وعلى نفس الصعيد كان الترويج لمفهوم العولمة أو التوسيع الذى يفيد بانضمام الكثيرين لأسرة الدول الديمقراطية من خلال تبنى " قيم السوق وتبنى بعض الجوانب الإيجابية مثل كونية مبادئ حقوق الإنسان والاعتراف بالآخر والتصدى للنظم الاستبدادية واحترام الخصوصيات الثقافية ومقاومة الجوانب السلبية وتحقيق السلام فى ربوع المعمورة والتخلى عن السيطرة وإملاء الشروط على الشعوب الضعيفة . واخماد بؤر التوتر التى انتشرت فى كثير من دول العالم إبان الحرب الباردة إضافة إلى محاربة سماسرة أممية رأس المال والتصدى لمنظمات المافيا وتجارة المخدرات كل هذه الشعارات رفعت وروج لها فى فترة احتضار الاتحاد السوفيتى وأثناء التحضير لعملية عاصفة الصحراء بهدف انجاح التحالف الدولى فى ضرب النظام العربى وبروز مفهوم النظام العالمى الجديد وما ارتبط به من رؤية جديدة للعلاقات الدولية [١].

(١) انظر :النظام الدولى الجديد ، محور خاص فى مجلة عالم الفكر ، العدد الثالث والرابع ، يناير، يونيه ١٩٩٥م .

الفصل الأول

العلاقة بين النظام العالمى الجديد والعولمة

مفهوم النظام العالمى الجديد :

المعروف أن النظام العالمى الجديد له جذوره وامتداداته . فكل تحول فى العلاقات الدولية وعلاقات الإنتاج والانتقال وتعاقب التحولات العلمية والتقنية يعتبر انتقال من نظام عالمى قديم إلى نظام عالمى جديد . وكان نظام القطبين الذى أفرزته الحرب العالمية الثانية هو نتاج التحولات الدولية وتعاقب التطورات العلمية ، حيث ظهرت وتطورت الثورة التكنولوجية العلمية الحديثة جنباً إلى جنب مع تطور النظام الدولى الجديد الذى قسم العالم إلى معسكرين متناحرين : الرأسمالى بزعامة الولايات المتحدة والاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفيتى .

ونتيجة لهذا التناحر والعداء واستعار فتيل الحرب الباردة ظهرت محددات وآليات جديدة حاكمة لنظام القطبية الجديد، أهمها محاولة الاستقطاب وسباق التسلح وغزو الفضاء. وكان للأخيرين فضل التطور التكنولوجى الذى ساهم فى بناء القاعدة العلمية لثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال .

أما مفهوم النظام العالمى الجديد الذى نحن بصدده الآن فقد شاع أثناء كارثة الخليج الثانية وفى أعقابها ، وعلى أثر تبنى الإدارة الأمريكية وقيام أوساط إعلامية وسياسية وأكاديمية أمريكية الترويج له والتبشير به ضمن استراتيجية أمريكية حرصت على ربط المفهوم بجملة من القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية العليا مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والاستقرار والتنمية واحترام قواعد القانون الدولى وإعلاء شأن الشرعية الدولية التى تجسدها الأمم المتحدة ، وتسوية النزاعات بين الدول بالطرق السلمية ... الخ . وقد كان الهدف الحقيقى من وراء الترويج لهذا التصور لمفهوم النظام العالمى الجديد كما سبق وذكرناه هو حشد التأييد الولى للسياسة الأمريكية تجاه أزمة الخليج الثانية التى وضعت لها السيناريو واختارت

الممثلين الرئيسيين فيها ومن قاموا بأدوار الكومبارس ، كما قصدت إدارة الرئيس جورج بوش من وراء ذلك إضفاء مسحة أخلاقية وإنسانية على دورها فى مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة جهود الإغواء والتضليل ولكن سرعان ما بدأت تتكشف هوة واسعة بين المبادئ والشعارات التى طرحتها الولايات المتحدة بشأن النظام العالمى الجديد من ناحية وممارستها الواقعية من ناحية أخرى . وتشبه هذه الشعارات وهذه المبادئ إلى حد بعيد : الشعارات التى ترفعها الأنظمة فى بلدان ما أطلق عليها بدول الديمقراطيات الناشئة فى العالم الثالث التى كثر الترويج لها فى الوقت الراهن ، الأمر الذى جعل الولايات المتحدة تفقد مصداقيتها فى كلا الحالتين ، وأدى إلى تراجع استخدام مفهوم النظام العالمى الجديد على المستوى الأكاديمى والسياسى حتى من قبل بعض الأوساط الأمريكية خلال السنوات الأخيرة[1].

وما يجب الإشارة إليه فى هذا الصدد هو أن حركة عدم الانحياز وغيرها من دول الجنوب سبق وأن طالبت منذ السبعينات بقيام " نظام اقتصادى عالمى جديد " يحقق أكبر قدر من العدالة فى توزيع الموارد والثروات بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب المتخلف ، ويحد من مظاهر استغلال الشمال للجنوب . ثم تصاعدت بعد ذلك الدعوة إلى قيام نظام إعلامى عالمى جديد يحد من مظاهر احتكار الشمال لمصادر المعلومات وتقنيات الاتصال ويحقق درجة أكبر من الديمقراطية والتوازن فى تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، وتزايد استخدام مفهوم النظام العالمى الجديد بعد وصول (جورباتشوف)إلى السلطة فى الاتحاد السوفيتى السابق عام ١٩٨٥ وتبنيه سياسة البروسترويكا (إعادة البناء) والجلاسونست (المصارحة والمكاشفة) . وقد استندت البروسترويكا إلى رؤية معينة للنظام العالمى الجديد مفادها إحلال مبدأ توازن المصالح محل توازن القوى ، وإعطاء الأولوية للتحديات المشتركة التى تواجه البشرية وتدعيم مجالات الحوار والتعاون الدولى والاعتماد المتبادل وقبول مبدأ التعدد والاختلاف فى الأنظمة السياسية والاجتماعية واحترام الشعوب [2].

---

(١) د. حسنين توفيق إبراهيم : النظام الدولى الجديد فى الفكر العربى ، عالم الفكر ، المجلد ٢٣، العددان ٣ ، ٤ ، يناير - يونيه ١٩٩٥م .

(٢) راجع كتاب "البروسترويكا "لميخائيل جورباتشوف ، ترجمة : حمدى عبد الجواد، القاهرة، دار الشروق ، طبعة ١ ، ١٩٨٨م .

وهكذا وبعد أن كانت دول الجنوب هى التى تطالب بإقامة نظام عالمى جديد، أصبحت الولايات المتحدة صاحبة الدعوة وأداة التنفيذ حيث حدد الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش معالم هذا النظام فى خطابه الذى ألقاه فى قاعدة مونتغمرى الجوية فى ألباما فى ١٣/٤/١٩٩١م .

وبإيجاز فإن مفهوم النظام العالمى الجديد قد طرح فى سياقات مختلفة ومن قبل دول وقوى وتيارات مختلفة . ولكن منذ بداية التسعينات افترض المفهوم مجموعة من التحولات أبرزها تفكك الاتحاد السوفيتى وإنهاء الحرب الباردة ، وحرب الخليج الثانية وكلها معطيات أفسحت المجال لتدعيم دور الولايات المتحدة العالمى بدلاً من الأمم المتحدة وبدأت الأولى تحول الشعارات الخاصة بالنظام العالمى الجديد إلى عكسها تماماً . فما حدث على أرض الواقع هو اتجاه الأوضاع العالمية نحو مزيد من الفوضى والتفكك وتحول موازين القوى والمصالح معاً إلى خلل صارخ حيث مالت بمجملها للصالح الأمريكى، وأخذت الولايات المتحدة تكيل بمكاييل مختلفة المعايير فى مجال حقوق الإنسان وتسوية النزاعات بين الدول، مما دفع البعض إلى الحديث عن نظام استعمارى جديد بدلاً من نظام عالمى جديد .

مفهوم العولمة

أما بخصوص مفهوم العولمة : فإنه أصبح أكثر المفاهيم شيوعاً فى التحليل السياسى والاقتصادى والاجتماعى خلال السنوات الأخيرة . وإن كان هذا لا يعنى بأن المفهوم جديد أو يشير إلى ظواهر جديدة ، إذ أنه امتداد لمفهوم النظام العالمى الجديد بمعطياته وآلياته ومحدداته ، إضافة إلى أن المفهوم ليس جديداً بالمعنى الذى يفهمه البعض فالعولمة لم تحدث فجأة ، بل لها جذورها التاريخية ولها مقدماتها الموضوعية وخاصة تلك الأخيرة التى ظهرت مع بداية الربع الأخير من القرن العشرين وارتبطت بالثورة الصناعية الثالثة التى أبرز مظاهرها تكنولوجيا الاتصال والمعلومات والتى حولت العالم إلى قرية صغيرة كما يشاع حالياً . وبغض النظر عن الجدل حول مفهوم العولمة فإنه بالنسبة للعرب مرادف لمفهوم الأمركة بكل ما يحمله من معانى الحقد والكراهية والعنصرية التى تمارس ضد العرب إضافة إلى نهب أموالهم

والسيطرة على أرضهم ومنابع خيراتهم وحريتهم واستقلالهم السياسي والاقتصادى، ومحاولة القضاء على خصوصياتهم وهويتهم الثقافية من خلال دمجهم فى نظام شرق أوسطى متناقض الأعراق والثقافات يكون لإسرائيل حق السيطرة عليه بدعم من الولايات المتحدة فائدة النظام العالمى الجديد ورائدة المسيرة العولمية الجديدة .

جذور العولمة

بات مصطلح العولمة شائع الصيت أو المصطلحات الأخرى الأقل شيوعاً مثل " الكونية أو الكوكبة أو الشوملة هى المفردات الأكثر شيوعاً وانتشاراً فى عقد السبعينات من القرن العشرين . أما بداية الظهور فقد تحددت بأواسط السبعينات عندما صدر كتاب (مارشال ماك) وكتاب (زبيغنيو بريجنيسكى) .

انطلق الكتاب الأول من الدور الذى لعبه التلفزيون أثناء حرب فيتنام واستنتج الكاتب بأن الشاشة الصغيرة حولت المواطنين من مجرد مشاهدين إلى مشاركين فى لعبة الحرب ، الأمر الذى أدى إلى اختفاء الحدود بين المدنيين والعسكريين وأصبح الإعلام الإلكترونى وقت السلم محركاً للتغيير الاجتماعى .

وكان بريجينسكى قد استخدم مصطلح المدينة الكونية Global وفصله على مصطلح العولمة الذى استخدمه ماك لوهان Globalization لأن مفهوم العودة إلى الجماعة والحياة المرتبطة بالقرية لم يعد مناسباً فى دلالته على التشابكات الدولية فى عصر التكنولوجيا الإلكترونية .

أما مصطلح Globalizatio فقد أصبح أكثر شيوعاً فى مؤسسات إدارة الأعمال وفى المؤسسات الصحفية والاقتصادية الأمريكية[1] وكان يعنى بالحركة المعقدة لانتقال السلع وانفتاح الحدود الاقتصادية وليونة التشريعات المشجعة لنشاط الاقتصاد الرأسمالى يشمل المعمورة بكاملها .

وقد أعطى التطور الهائل لوسائل الاتصال لهذا المصطلح صدقية القضاء على الحواجز والمسافات التى كان يصعب اجتيازها فى الماضى . وكانت كتب أخرى قد صدرت فى الولايات المتحدة فى عقد الثمانينات تروج لمركز الازدهار العالمى

---

(١) غسان العربى : فى جذور العولمة وإشكلياتها ، مجلة منبر الحوار ، العدد ٣٧ ، شتاء ١٩٩٩م.

المكـون مـن الـثالوث أمـريكا الشمالية ، أوربا الغربية وآسيا الجنوبية الشـرقية بالمعنى الواســع أو الولايـات المتحدة والمجموعـة الأوربية واليابان بالمعنى الأضيق. وشاع فى نفس الفـترة شـعار ثـورة الاتصـالات الـتى تعلـن موت الأيديولوجيات والطوباويات وتتيح الفـرص لنشــوء المجتمعات الجديـدة التى تسود فيها العناصر الأساسية لفكرة العولمـة مـثل : ازديـاد العلاقـات المتبادلة بـين الأمـم ، سـواءً المتمثلة فى تبادل السلع والخدمـات ، أو فى تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم . وكل هذه العناصر يعرفها العـالم مـنذ بدايـة الكشـوفات الجغرافـية فى أواخر القرن الخامس عشر أي منذ خمسة قــرون مضــت، ومـنذ ذلك الحين والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدول ومختلف الأمـم تزداد قوة ، باستثناء فترات قصيرة للغاية مالت خلالها بعض الدول إلى الانكفاء عـلى ذاتهـا وتراجعـت معدلات التجارة الدولية ومعدل انتقال رءوس الأموال (كما حدث خلال أزمة الثلاثينات من القرن العشرين على سبيل المثال) [١].

إذن فالظاهرة عمرها خمسة قرون على الأقل وبدايتها ونموها مرتبطان ارتباطاً وثـيقاً بـتقدم تكنولوجـيا الاتصـال والـتجارة، مـنذ اخـتراع البوصـلة حـتى الأقمـار الصناعية .

ورغـم أن الـبعض يـرجع أصول الظاهرة إلى تواريخ وعصور ظهور الديانات السـماوية وأهمهـا الإسـلام الـذى شـكل ظاهـرة عالمية من خلال تأكيده على إشاعة عالمية الدعـوة الـتى لا تفـرق بـين جـنس وآخـر ولا بـين لون وآخر نابذة كل عناصر الفـرقة والتمييز بين البشر (**كلكم لآدم وآدم من تـراب**) ، إلا أنه من المهم إدراك هذه الحقـيقة والتأكـيد علـيها، ذلـك أن الـتقدم التكـنولوجى قـد دفـع بالدول المتقدمة إلى الـتطلع والرغـبة فـى غزو البلدان الأخرى والسيطرة على تجارتها ومنافذها البحرية ، وكانـت الـتجارة الشـرقية هى الشغل الشاغل للاكتشافات البرتغالية التى تمكنت من الوصـول بحراً إلى الهند بعد اكتشافهم رأس الرجاء الصالح واستيلاء هنرى الملاح على سبتة عـام ١٤١٥ [٢]. وحذا حذوهم الهولنديون والبريطانيون وبدأ الصراع الأوربى

(١) دكـتور جـلال أمـين :العولمـة ، سلسـلة ثقافـة شهرية (اقرأ) العدد ٦٣٦، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م ، ص ٣ .

(٢) فـاروق عـثمان أرباطـه :عـدن والسياسـة الـبريطانية فى البحر الأحمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م ، ص ٥٣ .

بنشرها خارج القارة القديمة ويبسط سيطرته على تجارة الشرق وموارده منذ القرن السابع عشر .

وفي القرن التاسع عشر كان هناك مساحة اقتصادية دولية قيد التشكيل ، فالقوى العظمى الأوربية (خصوصاً بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا ، هولندا ، بلجيكا) نسجت على مستوى المعمورة شبكات الهيمنة الخاصة بها وأخذت بريطانيا تسيطر على أجواء كبيرة من العالم دون أن يكون لها القدرة على إدارته بمفردها رغم تمكنها من وضع قواعد اللعبة للتجارة العالمية التى اتبعها الآخرون واتخذت أشكالاً سياسية (مستعمرات ـ محميات ـ مناطق نفوذ مالية احتكارية) أطلق عليها لينين اسم الإمبريالية .

بداية بزوغ الدولة القومية :

ظهرت الدولة القومية مع بداية عصر النهضة فى أوربا وكذلك الحمائية كعقيدتان مسيطرتان حالتا دون ظهور مساحة اقتصادية عالمية موحدة . وفقط كان يوجد ائتلاف بين ميادين اقتصادية تعبر عن التفاوت واللامساواة التى تحكم العلاقات الدولية . وكانت نتائج الحرب العالمية الأولى قد دفعت بالولايات المتحدة لتتقدم بخطى حثيثة إلى مصاف الدول العظمى بعد أن أصبحت ألمانيا المهزومة غارقة فى التضخم وإعادة الإعمار ، وفرنسا مشغولة بتضميد جراحها، وبريطانيا تحاول الاحتفاظ بهيمنتها المالية . وبينما راحت الدول الأوربية فى تخبطها النقدى الذى قضى على عصر البرجوازية الريعية، بدأت الرأسمالية الأمريكية بالانفتاح على آفاق رحبة وجديدة دون أن تحل محل اللاعبين الأوربيين تماماً .

وكان لثورة أكتوبر العظمى فى روسيا الأثر الأكبر فى زعزعة إمكانية وجود مساحة اقتصادية دولية متضافرة، أضف إلى ذلك التداعيات والانتكاسات التى حصلت للدولة العثمانية وهنغاريا والنمسا ، وكلها جاءت كمقدمة للركود العالمى الخطير بإسقاطاته وتداعياته على العالم عام ١٩٢٩م .

وأخيراً فإن أشياء جديدة ذات أهمية قد طرأت على ظاهرة العولمة فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين منها :

١ ـ انهيار أسوار عالية كانت تحتمي بها أمم ومجتمعات من تيار العولمة، ومن ثم اكتسح تيار العولمة مناطق مهمة من العالم كانت معزولة بدرجة أو بأخرى عنها . وبانسحاب المعسكر الاشتراكي من المنافسة بعد أن تم تحطيم سور برلين واشتعل فتيل الثورات الشعبية في دول المنظومة الاشتراكية وانهيار الاتحاد السوفيتي قد جعل الولايات المتحدة تعتنق رأسمالية هجومية تبدو صاحبة الرؤية المنتصرة لعالم يعاني من أزمة هوية ولنظام دولي لا توجد له ملامح واضحة .

إن ما يسمى بالنظام العالمي الجديد قد بدأ هجمته الجديدة باستعمال القوة العسكرية لردع كل من تخول له نفسه من الدول الكبيرة والصغيرة معارضة الهيمنة الأمريكية العسكرية والاقتصادية .

إن العالم ككل ومن ضمنه الوطن العربي بالطبع قد دفعته هجمة ما يسمى بالنظام الدولي الجديد إلى نوع من الخوف والذهول . ولاشك أن سرعة الأحداث التي عرفتها أوربا الشرقية وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بسلطة القرار أدت إلى تهميش المنظمات الجهوية والدبلوماسية الأوربية ، وجاءت سلوكيات الغطرسة واستعمال الأسلحة الفتاكة المتطورة أثناء حرب الخليج الثانية لتذهل وترعب الجميع[١]، ولتخلق مناخاً ملائماً للحماية والانطواء على الذات في الدول الكولونيالية، وحذت حذوها الدول التوتاليتارية الناشئة بالانكفاء الاقتصادي استعداداً لحرب باتت أكثر من ممكنة .

وبعد انقطاع في مسار عولمة ما بين الحربين العالميتين فإنه عاد ليلتقط أنفاسه بعد الحرب العالمية الثانية رغم انقسام العالم إلى منظومتين أيديولوجيتين متناحرتين يجعل قيام اقتصاديات عالمية موحدة من أكبر المستحيلات ، إلا أن المعسكر الغربي ذهب ليفصل اقتصاد عالمي على قياسه ، وكان أن بدأ في عام ١٩٤٤م في برتين وودز Breton Woods بإنشاء النظام النقدي العالمي المتمثل في البنك وصندوق النقد الدوليين SUI واتفاقات التعريفة الجمركية والتجارة GATT التي تلعب دوراً

---

(١) د. أسعد عبد المجيد : في كتاب العرب ونظام عالمي جديد ، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص ٣١٥ .

مهماً فى الاقتصاد العالمى تحت النفوذ الأمريكى صاحب الدعوة إلى إنشاء هاتين المؤسستين النقديتين الدوليتين .

وظهرت فيما بعد مطالب الدول النامية ونشوء المجموعة الاقتصادية الأوربية إضافة إلى بروز ألمانيا واليابان ومن بعدهما بلدان آسيا وآسيا الجنوبية الشرقية لتصبح عامل مضاف إلى المعسكر الشيوعى لتمنع سيطرة الرؤية والمفهوم الأمريكى أحادى الجانب الذى نشهده اليوم، بعد أن أصبح مبدأ السيادة يقدم من طرف الإدارة الأمريكية والدول الغربية التابعة لها خصوصاً فرنسا وبريطانيا، الأمر الذى جعل الحديث الآن ينصب على استكشاف فرص بقاء أو زوال النظام العالمى الجديد بوصفه الإطار السياسى لدعوة العولمة [1].

٢ ـ الزيادة الكبيرة فى درجة تنوع السلع والخدمات التى يجرى تبادلها على مستوى العالم، وتنوع مجالات الاستثمار التى تتجه إليها رءوس الأموال المتنقلة من بلد إلى آخر ، فلم تعد صادرات دولة أقل نمواً تنحصر فى مادة أولية واحدة ولا وارداتها فى عدد محدد من السلع كما كانت الحال فى ظل الاستعمار التقليدى ، بل تعددت هذه الصادرات وتنوعت الواردات وكذلك المجالات التى ينتقل إليها رأس المال الأجنبى بحثاً عن فرص الربح .

٣ ـ تبادل المعلومات والأفكار بحيث أصبحت هى العنصر الغالب مع بقاء تبادل السلع ورءوس الأموال عنصر مسيطر على العلاقات بين الدول والتى أصبحت فيها الشركات متعددة الجنسيات هى الوسيلة الأكثر فعالية ونشاطاً فى تحقيق هذا الانتقال للسلع ورأس المال والمعلومات والأفكار ، بل وهى المهيمن على هذا الانتقال . وكما حلت الدولة محل الإقطاعية تدريجياً منذ خمسة قرون، تحل اليوم الشركات متعددة الجنسيات تدريجياً محل الدولة ، والسبب فى الحالين واحد : هو التقدم التقانى وزيادة الإنتاجية والحاجة إلى أسواق أكثر رحابة ، فحدود الدولة القومية لم تعد هى حدود السوق الجديدة ، بل أصبح العالم كله

---

(١) عبد العظيم حماد : الاتجاهات المضادة للعولمة ، مجلة المعرفة ، العدد ٤٦ ، أبريل ، مايو ١٩٩٩م، ص ٣٦ .

مجالاً للتسوق والتسويق سواءً كان تسويقاً لسلع تامة الصنع ، أو تسويقاً لمستخدمات وعناصر الإنتاج ، أو تسويقاً لمعلومات وأفكار .

لقد أصبحت الشركات المنتجة تقفز فوق أسوار الدولة المنيعة والتى أصبحت من وقت إلى وقت آخر أسواق شكلية سواءً تمثلت فى حواجز جمركية ، أو حدود ممارسة السياسات النقدية والمالية ، أو حدود السلطة السياسية أو حدود بث المعلومات والأفكار، أو حدود الولاء والخضوع(1).

أما كيف تتم هذه القفزات فوق ما كان يعتبر محرمات فيتم بالآتى :

الحواجز الجمركية :

تتخطاها هذه الشركات ، إما بالاستثمار المباشر داخل البلد المطلوب غزوه أو عن طريق اتفاقيات من نوع اتفاقية الجات وجولة أورجواى ، وحدود ممارسة السياسة النقدية والمالية : وتتخطاها هذه الشركات بقدرتها على التهرب مما تفرضه الدولة من سياسات نقدية ومالية، أو بقدرتها على فرض ما تشاء من سياسات على الدولة نفسها عن طريق ما يسمى ببرامج التثبيت الاقتصادى والتصحيح الهيكلى .

حدود السلطة السياسية :

ويتم تخطيها باستبدال الرئيس أو ذلك (الزعيم) بآخر ، أو بقاء هذا الزعيم نفسه وإجباره بطرق شتى على اتباع المسلك المطلوب .

بث المعلومات والأفكار :

وقد تكفلت بتحطيمها أطباق التلفزيون وشاشات الكمبيوتر .

حدود الولاء والخضوع :

ويتم بنشر أفكار تساعد على تحطيم موضوع الولاء القديم ، وهو الوطن والأمة، وإحلال ولاءات جديدة محله ، وأفكار من نوع (نهاية الأيديولوجيا)

---

(1) International affaire, vol. 73, " Global Capitceli ism and the State" Jan Aart Schslte, No. 3 , July 1997, p. 443.

و (نهاية التاريخ) و(القرية العالمية) ... إلخ مما يصلح استخدامه مع جميع الأمم ، أو من نوع (الشرق أوسطية) والقول بأننا لسنا عرباً فقط بل أيضاً شرق أوسطيين .

ولا تقوم الشركات متعددة الجنسية بإحداث هذه التغيرات بمفردها ، بل تعاونها مؤسسات أخرى ، منها المؤسسات المالية الدولية ، كصندوق النقد والبنك الدوليين ووكالات الأمم المتحدة المختلفة العاملة في ميادين التنمية الثقافية ومنها أجهزة المخابرات في الدول الكبرى ومنها وسائل الإعلام والمؤسسات المانحة للجوائز الدولية المهمة ، وكل هذه المؤسسات لا تدخر وسعاً في تجنيد مفكرين وكتاب يروجون للعولمة والكونية، ويؤكدون أن الشعور بالولاء لأمة أو وطن قد أصبح من مخلفات الماضي التي يجب إهمالها ونسيانها[1].

هذه هي الصورة العامة لتراجع دور الدولة وانحسار نفوذها ، وتخليها عن مكانتها شيئاً فشيئاً لمؤسسات أخرى تتعاظم قوتها يوماً بعد يوم وتصبح الشركات متعددة الجنسية والعملاقة هي مصدر السلطة الحقيقية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل هذا التراجع ينطبق على بعض الدول أم يشمل كل الدول ؟ وهل يتخذ شكلاً تراجعياً واحداً أم أنه يختلف من بلد لآخر ؟ وما مغزى ظاهرة تراجع دور الدولة بالنسبة للغرب ؟ وهل الشرق أوسطية هي نوع من أنواع العولمة ؟

العولمة وتراجع قوة الدولة ـ الأمة :

يعيش مفهوم الدولة أزمة ومأزق شديدين بسبب تعرض الدولة للمنافسة من قبل لا عبين يزدادون عدداً وقوة ، فنحن الآن إزاء ظاهرة شركات جبارة متعددة الجنسيات وتعبر القوميات وتعمل على تكييف مختلف النظم والسياسات الاقتصادية في العالم مع احتياجاتها هي ، ومع تصورها لما يجب أن تكون عليه حال الأسواق، وهي إذ تتحكم في تكنولوجيا ثورة المعلومات والاتصالات من واقع الاستئثار بنصيب الأسد الذي تنفرد به في الإنفاق على البحوث والتطوير ، تفرض الآن ، بل ومنذ التسعينات على اقتصاديات ودول ومجتمعات العالم أن تعيد التكيف مع مظاهر

---

(١) جلال أمين :العولمة ، مصدر سابق ، ص ص ١٦-١٩ .

ومعطيات العالم الجديد الذى تعيد الآن تشكيله تحت مسمى" العولمة " أو" الكوكبة ". وليس خافيا على أحد أن الشركات العملاقة متعددة الجنسيات كانت اللاعب الرئيسى وراء اتفاقية الجات عام ١٩٩٤م وإنشاء منظمة التجارة العالمية WTO من أجل الدفع بقوة إلى ما أصبح يعرف بـ " تحرير الأسواق والتجارة العالمية وتدفقات السلع والمنتجات والأموال السائلة والأوراق المصرفية والمواد الإعلامية والإعلانية والدعائية ، والذى يبدو لأول وهله أن هذا التحرير أصبح يتجاوز قدرات وصلاحيات وسلطات الدولة القومية وأصبح الكثير منا نحن العرب يظن أن العولمة ستحمل معها سلعاً أو منتجات استهلاكية وترفيهية واستثمارات عديدة وستكون هناك نتائج إيجابية لاندماج الأسواق المالية والبورصات العربية فى البورصات العالمية، فى حين أن ما يحدث هو تكريس لتبعية تقانية ومالية للمناورة السياسية أو على أية محاولة لاستثمار التناقضات والخلافات بين الدول الكبرى الغربية، وبالتالى تنامى ضعف القدرة على إصدار وصناعة القرار السياسى الوطنى والقومى [1].

وفى هذا الصدد تمكن لينين من خلال دراسته للإمبريالية من اكتشاف حركة التحرر الوطنى ودورها ، فقد أثبت أن الاحتكارات الاستعمارية تستغل شعوب المستعمرات على نحو أبشع من استغلالها الطبقة العاملة فى الدول الاستعمارية ، ولم يكن غائباً عن أحداث ثورة عرابى فى مصر ولا عن الحركات المعادية لبريطانيا فى الهند ، لذلك فقد طرح مفهوم التحالف الموضوعى بين حركة البروليتاريا فى أوربا والتحرر من السيطرة الأجنبية فى المستعمرات . فالحركة العمالية فى أوربا والشعوب التى ترزح تحت الاستعمار تعيش ظروفاً متساوية فى التبعية للاحتكارات وللشركات متعددة الجنسية وتخضع لها .

إن الرأسمالية تتطور باستمرار تطوراً كمياً فى الأصل ، ولكنه يؤدى إلى تطور كيفى ينقلها من مرحلة إلى مرحلة ، فبينما كان على الدولة فى عصر الرأسمالية التجارية ـ وهو عصر بزوغ الدولة القومية أن تتدخل تدخلاً فعالاً فى الاقتصادي القومى الحديث النشأة، وكان عليها أن تنشئ هذا الاقتصاد القومى بتوحيد السوق

---

(١) د. أحمد ثابت : العولمة، تفاعلات وتناقضات التحولات الدولية ، سلسلة بحوث سياسية، ١١٩ مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة، أبريل، ١٩٩٢م ، ص ٢ .

القومية، وإزالة العقبات القومية أمام انتقال السلع من مقاطعة إلى مقاطعة أخرى، وتوفر الأمن اللازم لهذا الانتقال من خلال رصف الطرق ومد الترع وغيرها ، وفرض سياج حول الدولة لحماية الصناعة الناشئة من منافسة دول أخرى كانت تقوم بالمهمة نفسها فى الوقت نفسه ، وكانت الدولة تتدخل أيضاً تدخلاً فعالاً فى عملية الإنتاج نفسها، فتفرض المواصفات الواجب اتباعها فى إنتاج السلع الصناعية، وتطورت لتقوم بتكوين الجيوش القومية اللازمة لتصبح مستعمرات جديدة لتسويق ما تنتجه ، فإن السيطرة والتخطيط لإنتاج السلع وتسويقها واستغلال ثروات البلدان المستعمرة، وفى مرحلة تطور الرأسمالية النهائي أصبح للشركات الاحتكارية المونوبولية ، أو كما كتب لينين يصف الإمبريالية بأنها آخر مراحل تطور الرأسمالية والذى يقول إسماعيل صبرى عبد الله أن هذا القول لا يجب أن يفجعنا لأنه لا يعنى جمود الرأسمالية عند هذا الحد، فلينين ربما كان يظن أن انتصار الاشتراكية القريب لن يترك للرأسمالية العمر الكافى لدخول مرحلة جديدة ، فإن ظنه لا يعدو أن يكون ثمرة تقدير شخصى لا يستطيع أن يقيم البرهان الحاسم على صحته .

إن الإمبريالية كما كانت قائمة وكما حللها لينين فى عصره قد اختفت وليس هناك ما يدعو إلى الرفض العلمى لواقع انهيار الاشتراكية السوفيتية وتجديد الرأسمالية التى قفزت إلى مرحلة جديدة ، هى مرحلة العولمة ، التى فى ظلها أصبحت الشركات الكبرى التى تهيمن على اقتصاد العالم تختلف عن الاحتكارات الكبيرة التى كانت السمة الأساسية فى مرحلة الإمبريالية من عدة وجوه رئيسية من أهمها :

(أ) إن الاحتكارات السابقة كانت تركز معظم نشاطها داخل إمبراطورية استعمارية وكانت ترفع شعار الوطنية وتبذل كل الجهد فى نمو الاقتصاد القومى فى الدولة الاستعمارية على حساب المستعمرات وشبه المستعمرات[1].

(ب) كانت الاحتكارات مرتبطة دائما بصناعة محددة تشكل نشاطها الأساسى بغض النظر عن المنتجات الثانوية (By-Products) ، وكان الاقتصاديون يسمونه نمو الاحتكارات " التكامل " وهذا التكامل يجمع بين أفقى ورأسى ، الأول

---

(١) د.إسماعيل صبرى عبد الله : الكوكبة الرأسمالية العالمية فى مرحلة ما بعد الإمبريالية ، مجلة المستقبل العربى ، عدد ٢٢٢ ، ١٩٩٧م ، ص ١٢

اتفاق بين مجموعة شركات تنتج سلعة أو مجموعة من السلع على الالتزام بأسعار معينة أو على توزيع الأسواق ، وكان الاسم الشائع له " الكارتل " ، أما التكامل الرئيسى فكان يعنى الانشغال بكل مراحل إنتاج سلعة معينة من المادة الأولية وحتى بيع السلعة النهائية بغرض إلغاء الأرباح الوسيطة أو السيطرة عليها بما فى ذلك شراء الشركات المغذية لصناعة مثل صناعة السيارات وهو ما كان يسمى " الترست " .

أما الشركات متعددة الجنسية فسماتها تعدد الأنشطة التى تشتغل فيها دون الالتفات إلى الروابط الفنية بين المنتجات المختلفة، فشركة التليفون والتلغراف الدولية تملك مثلاً شركة فنادق شيراتون وشركة " تايم وارنر " تشتغل بعدد كبير من شركات النشر والإعلام والملاهى : من استديوهات هوليود إلى المجلات الأمريكية الشهيرة إلى شبكة الأخبار (CNN) مروراً بالتلفزيون الكابل .. إلخ .

(ج) كان موقف الاحتكارات إزاء التطور التقانى يتسم بالحذر من التجديد وكان يغلب عليها عنصر المحافظة ، أما الشركات متعددة الجنسية فإن التطور التقانى هو عمودها الفقرى وهى تكون فى غاية الاهتمام بالبحوث العلمية فنجد أن الاتفاق على البحث والتطوير فى ألمانيا بلغ ٢,٨ ٪ من الناتج المحلى الإجمالى (أى ٣٧,٢ مليار دولار) يسهم فيها المال العام بنسبة ٣٧٪ والصناعات المختلفة بنسبة ٦٠,١ ٪ ، وفى اليابان ٢١,٨ ٪ ، ٦٨,٢ ٪ على التوالى . وفى الولايات المتحدة ٣٩,٢ ٪ و ٥٨,٧٪[1].

لقد تراجع دور الدولة فى عصر الثورة الصناعية من حيث التدخل المستمر فى عملية الإنتاج التى أصبح من المناسب تركها لقرارات أرباب العمل ، كما تراجع دور الدولة فى حماية منتجاتها من المنافسة الخارجية على الأقل فى تلك الدول التى لم تعد تخشى هذه المنافسة بسبب تفوقها على الآخرين .

والسؤال الذى بات يطرح نفسه بإلحاح فى الوقت الراهن هو :

---

(١) د.إسماعيل صبرى عبد الله ، نفس المصدر ، ص ١٤ .

هل آن سقوط الدولة القومية ؟

انتشرت القناعة بأيديولوجية السوق فى صفوف المثقفين حتى فى صفوف أولئك المحسوبين على اليسار ، وأولئك الذين أصروا على أن الدولة السوفيتية هى النموذج الكامل للاشتراكية أصبحوا يخشون اليوم إذا تحدثوا عن الدولة أو قطاع الدولة الإنتاجى أن يقال لهم لقد ثبت انهيار كل شيء وكل النظم التى اعتمدت على الدولة وسلطتها لبناء تنمية أفضل وأشمل يكون بعيداً عن الأيادى الخفية للسوق التى قال عنها آدم سميث قبل قرنين ونيف من الزمن إنها كالبسملة توجد قبل كل حديث فى الاقتصاد .

ورغم ما دار ويدور من جدل حول الاختلاف فى مفاهيم العولمة بين القوميين والليبراليين والإسلاميين : إلا أن اتفاقاً يشمل الجميع حول ضرورة وجود الدولة وحتى المحسوبين على الاتجاه الليبرالى تنبه عدد كبير منهم : إن المجتمع لا يعيش بدون دولة وأن السوق على كفاءتها الاقتصادية كثيراً ما تظلم اجتماعياً ، بل إن البنك الدولى نفسه بدأ البحث عن تحديد نمط إيجابى جديد لدور الدولة .

وأول ما يجب أن نذكره هو إن الدولة القومية ، أو الدولة الأمة (Nation-State) ظاهرة حديثة للغاية فى تاريخ البشرية الطويل ، فقد بدأت تلوح فى الأفق وتمارس دورها وبشكل تدريجى مع بداية عصر النهضة الفعلى وبشكل أكثر نشاطاً فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر مع بداية الثورة الصناعية ومولد علم الاقتصاد وكانت الولايات المتحدة أول دولة يرأس حكومتها رئيس منتخب لمدة محدودة يشاركه فى الحكم سلطة تشريعية وسلطة اقتصادية ولكل استقلالها فى الدستور عن الأخرى (٤ يوليو ١٧٧٦م) . ثم جاءت الثورة الفرنسية وأعلنت عام ١٧٩٣ فرنسا جمهورية وأن الأمة فيها مصدر كل السلطات ، أما قبل ذلك فكان كلمة دولة تطلق على أملاك أسرة ملكية يتوارث أفرادها العرش إلا إذا أطاحت بها أسرة أخرى ، والملاحظ فى أول دولتين قوميتين أن قيامهما تم بإلغاء النظام الإقطاعى (فرنسا) والاستيلاء على أملاك الإقطاعيين ، والإعلان أنها ملك الأمة أو أن الإقطاع لم يكن قائماً فى الأصل (الولايات المتحدة) .

الفصل الثاني

الشرق أوسطية والعولمة

أخذت الأوضاع العالمية منذ منتصف الثمانينات وبالتحديد منذ عام ١٩٨٥ م عندما صعد ميخائيل جورباتشوف إلى سدت رئاسة الدولة والحزب الشيوعى السوفيتى تتغير بشكل متسارع بعد إعلانه سياسة "إعادة البناء والمكاشفة " ليدخل علينا عقد التسعينات بحديث جديد عن وضع عالمى جديد يرتبط بتحديد ما يحدث من تغيرات على موازين القوى بين الدول الكبرى ، وعلى التكتلات الدولية وما ترتب على ذلك من بداية لوجود خلل فى التوازنات بين القوتين العظميين بعد أن بدأ الاتحاد السوفيتي يتخلى عن حلفائه ، ومراكز نفوذه الاستراتيجية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ثم ما حدث بعد ذلك فى عام ١٩٨٩م من انتفاضات وثورات فى دول المنظومة الاشتراكية من برلين إلى تيمشوارا وبودابست وبراغ وصوفيا ووارسو بتشجيع ومباركة من زعيم الكرملين الإصلاحى الذى لم ينجو هو نفسه من الحفر التى نبشها للآخرين فكان انقلاب أغسطس ١٩٩١م ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتى وخروجه من دائرة الدولة العظمى والحداثة إلى دائرة التراث بعد سبعة عقود ونيف من الزمان وفى فترة سريعة غير متوقعة عند العالم كافة . هذا الانهيار الذى أذهل العدو قبل الصديق فى حجمه وسرعته وتداعياته أدخل العالم الاشتراكي فى حالة من الاضطراب الفكرى والاقتصادى والنفسى وجعله يعيش فى حالة انفصام واضطرابات فكرية ونفسية بين التمسك بالشيوعية أو المضى فى اللحاق بالغرب الرأسمالى الذى يصعب عليه اللحاق به [1]. ولم يكن الانهيار السوفيتى قد ترك آثاره السلبية على جمهوريات الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية فحسب ، بل أثر هذا الانهيار على معظم دول العالم فانهارت قيم كثيرة ونظم إقليمية وسقطت تحالفات لتكون تحالفات مناقضة لتحالفاتها السابقة ، وتركت الساحة الدولية للاعب واحد يشكل فرق السباقات الماراثونية ممن يريد وكيفما يريد فى ظل نظام عالمى جديد على أنقاض النظام العربى بعد أن تم تحطيمه وتفكيك أجزائه تحت الهجمة البربرية

---

(١) زكى الميلاد : مجلة الكلمة ، العدد ١٩ ، ربيع ١٩٩٨م ، بيروت ، ص ٩ .

الأمريكية والتحالفية التابعة فى حرب عاصفة الصحراء التى شكلت حقل تجارب لأحدث ما أنتجته المصانع الأمريكية والإمبريالية الغربية من أسلحة متطورة إليكترونيا وأسلحة التدمير الشامل ، وكان فئران التجارب فى هذا الحقل هم العرب والعرب العراقيين على وجه الخصوص .

وإذا ما أردنا الحديث عن الشرق أوسطية ، وهل هى جزء من العولمة أم أنها مقدمة لها فإن علينا تشخيص التحول فى هيكل المنظومة الدولية وإدراك المقارنة بين واقع الانتشار النسبى لموارد القوة من ناحية وظهور التفاعلات الدولية والتى ظهرت وكأنها محكومة بإرادة واحدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى تاركاً السيطرة على المنظومة الدولية للولايات المتحدة التى أخذت زمام مبادرة القيادة المنفردة وجعلت من القوى الأخرى تالية أو تابعة للقوة الأمريكية [1].

أصبح العرب أكثر المتضررين مما آلت إليه الأوضاع فى الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية.وإذا كانوا قد أجبروا إلى الدخول إلى حقبة التحول الراهنة فى المنظومة الدولية دخولاً عنيفاً من خلال أزمة الخليج الثانية التى بدأت بغزو العراق للكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ وانتهت بحرب تدميرية يمكن اعتبار محصلتها هزيمة كبرى للعرب على كافة الأصعدة وليس للعراق وحده ، بل ويمكن اعتبار أزمة الخليج مقابلاً موضوعياً لانهيار النظم الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية ، غير أنه على حين تطلب نقل أوربا الشرقية من دائرة النفوذ السوفيتى إلى دائرة النفوذ الغربى ثورات داخلية تمت على نحو متزامن من النصف الثانى من عام ١٩٨٩م فإن القضاء على الطموحات القومية العربية ومحاولة إجبارها على الدوران فى فلك الغرب قد تطلب شن حروب خارجية بواسطة إسرائيل والدول الاستعمارية الغربية فى الأعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦و ١٩٦٧و ١٩٧٣ ، لذا فإن الحرب التى شنتها الولايات المتحدة والعرب ضد العراق بعد أن مهدت لها وشجعت أطراف النزاع على عدم الوفاق نوعاً من الحملة التى قصد بها أن تكون نهائية ضد الطموحات القومية والاستقلالية للعرب .

---

(١) مجلة الفرسان ، العدد ٦٩٠ ، ٣٩ أبريل ، ١٩٩١م .

ولا نقول ولا نزعم في هذا الصدد أن النظام العراقي قد اقتحم واحتل الكويت انطلاقاً من هذه الطموحات ، بل إن ما تزعمه هو أن البيئة السياسية التي انفجرت في سياقها أزمة الخليج كانت مشبعة بالتوتر والتناقض بين الطموحات القومية للعرب والمواقف السياسية للغرب عموما وللولايات المتحدة على وجه الخصوص (١).

لقد مثل القرار العراقي بغزو الكويت البوابة المثالية التي نفذت منها الحملة الأمريكية المعادية للعرب ولحقوقهم القومية فكان أن قصدت بالحرب ضد العراق توجيه ضربة قاصمة ضد المشاعر القومية العربية وإخمادها والقضاء على كل ما تبقى من الاستقلال السياسي العربي الذي كان قد تحقق في معظم الدول العربية بفضل القطبية الثنائية ، وكانت صيانة هذا الاستقلال ترجع إلى حد كبير للحرب الباردة(٢) تمهيداً لبناء نظام شرق أوسطي يكون بديلاً عن النظام العربي وليدخل إسرائيل كفاعل رئيس ورائد لهذا النظام الجديد لما تتمتع به من تفوق عسكري واقتصادي وتقني ، ويضم إلى جانبه كثير من القوميات والمذاهب المتنافرة ، يجري تطويعها والتطبيع بينها ليصبح العرب ونظامهم الإقليمي العربي متماهياً ضمن هذا النظام وذائب فيه اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً وهو ما يحقق للشركات المتعددة الجنسية مبتغاها عن طريق إسرائيل كممثلة لهذه الشركات في عولمة النظام العربي والسيطرة على ثرواته وقيمه وإلغاء هويته الوطنية والقومية .

ولأن الإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية تدرك تماماً بعدم جدوى الاندماج الإقليمي الشرق أوسطي وإدخال إسرائيل ضمنه دون حل مشاكل الصراع العربي الإسرائيلي، فقد أعلن الرئيس بوش مبادرته في ربيع ١٩٩١م دعى فيها إلى عقد مؤتمر السلام في مدريد والذي تم في أواخر أكتوبر ١٩٩١م بعد أكثر من ثمان جولات لوزير خارجيته جيمس بيكر مارس فيها ضغوطاً شديدة على الجانب العربي مستخدماً أساليب الترغيب والترهيب لجر العرب فرادى إلى هذا المؤتمر دون غطاء عربي يحميهم من لسعات شمس إسرائيل المحرقة وجليد أمريكا البارد .

---

(١) السيد يس : التقريرالاستراتيجي العربي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٩ .

(٢) مجلة الدراسات الفلسطينية : (شتاء) ١٩٩٠م ، ص ص ١٥ - ٢٠ .

وقد حاول العرب ربط فكرة الشرق أوسطية بنجاح السلام وجعلها وسيلة وغاية لتحقيقه بينما اعتبرها الأمريكيون والإسرائيليون وسيلة لدمج إسرائيل في النظام الجديد من خلال سوق مشتركة ومشاريع خدمية وسياحية وتطبيع ثقافي واجتماعي وغيره ، وإلهاء العرب في مؤتمرات شرق أوسطية ومفاوضات متعددة الأطراف بين مجموعة من الدول ذات الاهتمام المباشر وغير المباشر بالمنطقة ، وتشكلت خمس لجان يمكن الخوض فيها وقتاً طويلاً يكون قد تم خلال هذا الوقت ترويض الأنظمة العربية أو بعضها وجرها إلى الطريق السريع للتطبيع مع العدو الصهيوني ، وهو ما حدث بالفعل مع بعض الدول الخليجية والمغاربية بعد أن جمعت هذه اللجان العرب بالصهاينة باستثناء لبنان وسوريا اللتان قاطعتا المفاوضات المتعددة على أن تنضما إليها فور التوصل إلى وفاق أو اتفاق مع إسرائيل بشأن أراضيهما المحتلة (1).

وفي واقع الأمر فإن من طرح فكرة الشرق أوسطية كان شيمون بيرز ونشر كتابه "الشرق الأوسط الجديد " الذى نادى فيه بإنشاء مناطق تجارة حرة ومشروعات مشتركة باعتبار تلك مرحلة أولى نحو السوق الشرق أوسطية المشتركة وأفضل طريق لتحقيق السلام والحد من شأن التطرف الإسلامي الذى حل محل الشيوعية بوصفه العدو العالمي الجديد(2) وهو بهذا المفهوم يلتقى مع ما طرحه "هينتجتون " فى كتابه "صراع الحضارات " وهو ما يؤكد التلاحم الصهيوني الإمبريالي في صراعهم مع العروبة والإسلام ، ويؤكد من ناحية أخرى بأن مشروع الشرق أوسطية ما هو إلا الخطوة الأولى في طريق العولمة الشاملة التي هي بالأساس أمريكية، وهي بالتالي صهيونية ، لأن من يسيطر على أهم الشركات المتعددة الجنسية ويملكها هم الصهائنة، وسوف يكون مهمة الدور الإسرائيلي هو توجيه وضبط مسار العولمة الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية في الطريق المرسوم لها . ويؤكد على هذا خطاب وزير الخارجية الأمريكي السابق أمام عدة مئات من رجال الأعمال العرب والإسرائيليين والأوربيين في المؤتمر الأول للشرق أوسطية في الدار البيضاء

---

(1) Abdul - Monem Almashat : The Economic of Regional Secaxty in the Middle East, Cairo University, November 1994,p. 6.

(2) الشرق أوسطية بين آسيا وأوربا : السياسة الدولية ، العدد ١٣٠ ، أكتوبر١٩٩٧م ، ص ٣٥.

فى ٣١ أكتوبر ١٩٩٤م ومدى أهمية الدور الذى توليه الولايات المتحدة لرجال الأعمال حين خاطبهم بقوله " مع نهاية الصراع العربى الإسرائيلى يصبح الشرق الأوسط مفتوحاً للأعمال التى تنتظركم" (١).

إن كلمة كريستوفر تعبر عن خصوصية الدور الذى يجب أن يلعبه رجال الأعمال فى المنطقة العربية وتمثل دعوة لتجاوز المهام التقليدية المرتبطة بالدولة والتى تعبر عن خصوصية الدول ذات السيادة وتصبح التجارة الخارجية والتعاملات بين الدول هى المعبر عن سيادة الدولة ولسيما فى هذه المنطقة التى أصبح معظم حكامها وسطاء تجاريين لبعض الشركات العملاقة وخاصة تلك المنتجة للسلاح .

الدول العربية والدولة الصهيونية والعولمة :

منذ السبعينات ومع سطوع نجم الشركات متعددة الجنسيات كان على الدولة القوية فى العالم الثالث أن ترخى قبضتها شيئاً فشيئاً على الاقتصاد والمجتمع تحقيقاً لمصالح هذه الشركات . فيتم إلغاء الحواجز الجمركية ونظام التخطيط ، ورفع الدعم عن السلع الضرورية لأن بقاء كل هذا على ما كان عليه يتعارض تعارضاً صريحاً مع اعتبارات الكفاءة ومضر بالتنمية ، والحقيقة أن هذا الاتجاه قد بدا متسارعاً فى الوطن العربى بعد سقوط الكتلة الشرقية وحرب الخليج الثانية وبداية الولوج فى مجهول العملية السلمية ، فأصبحت دولاً عربية كثيرة تبيع شركات القطاع العام والمشروعات التى تأسست من قبل لشركات أجنبية أو مجهولة الهوية (يكون المشترى مجهول الهوية) تحت مسمى الخصخصة وهى تسحب الدعم المقدم للفقراء وتسميه تثبيتاً اقتصادياً ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام السلع المستوردة لتحل محل المنتجات الوطنية وتسمى ذلك تكيفاً هيكلياً (٢). وأصبحت الجيوش تقوم بدور الشرطة تتولى قمع المواطنين أثناء المظاهرات الاحتجاجية على السياسات التنازلية والانهزامية ، أضف إلى ذلك ما تقوم بعض الأنظمة العربية بالتفريط فى أبنائها وقتلهم أو سجنهم إرضاءً للعدو الصهيونى فى حالة حدوث رد فعل على عمل مشين

---

(١)نص خطاب وارن كريستوفر فى الدار البيضاء فى ١٩٩٤/١٠/٣١م ، نشر فى صحف عربية وغير عربية منها الأهرام فى ١٩٩٤/١١/١م .

(٢)المستقبل العربى : العدد ٢٢٨ ، ١٩٩٨/٢م ، ص ٣٠ .

واستفزازى من عناصر العدو التى دخلت علينا بعد التطبيع سواءً بغرض السياحة أو السباحة فى مياهنا الإقليمية أو فى موانينا ومنتزهاتنا ، وبالمقابل يقوم الصهيونى بقتل العربى فتحكم المحكمة الإسرائيلية بتغريم القاتل ربع سنت من الدولار .

لقد بدأت دولاً عربية كثيرة تسلم مهامها ووظائفها القديمة الواحدة بعد الأخرى لتتولاها المؤسسات الدولية التى تتكلم باسم هذه الشركات العملاقة وتعمل لحسابها . ومن ثم تبدأ فى الظهور صورة جديدة لا تخلو من سمات كوميدية كتلك التصريحات التى أدلى بها زعيم دولة عربية فقيرة أمام مجموعة من ا لصحفيين المحليين فى رده على سؤال حول الخصخصة والإصلاح الاقتصادى ، ولأنه لم يجد ما يمكن الكلام عن خصخصته قال : " يجب أن نخصخص كل شيء لماذا لا نخصخص المطار والميناء ويصبح ملكاً لرجال الأعمال ، ولماذا لا نخصخص حتى الحمامات فبقائها فى القطاع العام لا يفيد البلد بشيء " .

وعندما يصبح رأس الدولة مشاركاً فى كثير من المؤسسات التجارية ، فإن الدولة تحتفظ فقط بالمظاهر الخارجية للدولة فهى ذات سيادة وتباشر صوريا كل المهام التى كانت تباشرها من قبل ، ولكنها فى الحقيقة تقوم بوظيفة تكاد تنحصر فى وظيفة " الدور والتسليم " "أى وسيط " وتسحب يدها من كل ما كانت تضع يدها عليه قبل تسليمه للأجانب ، وحتى الوطن وشعور المواطن الوطنى والقومى يصبح مستباحا عندما تفرض قضايا يمقتها ويرفضها بل ويعتبر الخوض فيها انتهاكاً للمقدسات مثل عملية التطبيع فى بعض الدول العربية أو إطلاق إشارات فى هذا الاتجاه فى بعضها الآخر من خلال السماح للصهائنة بدخول البلد بحجة السياحة وزيارة ذويهم الذين لا وجود لهم أصلاً، مع القيام بالترويج لهذه الوظيفة والزعم بأنها تحقق المصلحة العامة ومصلحة الأمة بما فى ذلك مصلحة الفقراء . هذه المهام تحتاج إلى دولة من نوع خاص ، وهى موجودة فى كثير من أقطار وطننا العربى الذبيح : فهى دولة تفكك ولا تبنى ، وهى دولة تسلم أهلها للأجنبى ليفعل بهم ما يشاء ، وكل هذا يتطلب سمات قد يعبر عنها اسم الدولة الرخوة وهو اسم أطلقه بعض المحللين السياسيين أمثال " عنار ميردال " أواخر الستينات للإشارة إلى معظم حكومات الدول النامية التى انتشر فيها الفساد وتجاهل حكم القانون ، وتغليب مصالح الأفراد الخاصة على المصلحة العامة .

إن سمات هذه الدولة الرخوة ، تنطبق للأسف على كثير من دول المنطقة العربية. ولكن هناك دولة واحدة فى هذه المنطقة تبدى السمات العكسية تماماً ، وأقصد بهذه الدولة بالطبع الدولة الصهيونية . فهذه الدولة ليست فقط أقل رخاوة بكثير من الدول المجاورة لها ، ولكنها لا تبدو وكأنها تصارع تيار العولمة الذى يطغى على بقية العالم .

فالدولة الصهيونية لا زالت تتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى الاقتصاد والمجتمع، وبينما تسرح دول أخرى الجيوش تتمسك هى بجيشها قوياً وتزيده قوة ، وهى لا تتلقى التوجيهات من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، وإن كانت تشجع القطاع الخاص وتدعمه، فإنها تخضعه باستمرار للاعتبارات التى تمليها مصالح الدولة العليا ولا تسمح له بتجاوزها . والدولة الصهيونية تطرح تصورها الخاص للعولمة وتحاول فرضه على الدول المحيطة بها ، وهذا التصور هو مشروع الشرق أوسطية الذى تروج له إسرائيل يمثل عولمة مصغرة ، ولكن الأهم من ذلك أن كل ما يقال فى الدفاع عنه من حجج هو نفسه ما يقال عن العولمة : مثل اعتبارات الكفاءة ورفع معدلات النمو ، مزايا التخصص وتقسيم العمل ، انتهاء عصر الأيديولوجيا ، مزايا الانفتاح على الآخر والتفاعل معه ، خطأ التمسك بالولاء التقليدى لأمة أو وطن ، مزايا السلام وأضرار الحرب .. إلخ .

تستخدم هذه الحجج للدفاع عن الشرق أوسطية وهى حجج الدفاع عن العولمة وفى الوقت الذى تفعل الدولة الصهيونية فيه عكس ذلك تماماً ، فهى تتمسك بأيديولوجيتها، وترفض الانفتاح على الآخر وتضحى بالاعتبارات الاقتصادية إذا تعارضت مع الأهداف السياسية وتتمسك بالولاء التقليدى للأمة والوطن وتمارس الحرب باستمرار .

هذا هو ما فعلته العولمة المصغرة (الشرق أوسطية) بالدولة العربية وما خفى كان أعظم .

نحو رؤية معرفية للشرق أوسطية والعولمة :

تفجرت بعد مؤتمر مدريد وبداية العودة إلى الوعى بعد الإغمائة وحالة الغيبوبة التى أصابت الأمة العربية من جراء نتائج حرب الخليج فاستدعت للفكر

عـدداً مـن المعانى والأفكار المتناقضة التى استظلت تحت مظلة الشرق أوسطية العولمية التى أصبحت منبع متدفق للكثير من الطروحات المثيرة للجدل ، فقد وجدت الشرق أوسطية العولمية من يتحمس لها ويروجها، أحياناً بحسن نية معرفية، وأحياناً أخرى استعجالاً لمواكبة الأحداث من التنظيرات دون تمحيص، أو قد يكون ذلك جهلاً بالبواعث الحقيقية لتلك التحولات المفصلية فى تاريخ الفكر الإنسانى ، أو بدعوى الحياد الإيجابى . فهناك دعوات قديمة لعولمة الاقتصاد والثقافة والجغرافيا تحقيقاً لمعادلات يصعب تنفيذها مع وجود ثوابت نظام العلاقات الدولى القديم ، وكلها تصب فى النهاية لخدمة المؤسسة الكونية وإضعاف دور الدول وسيادتها .

وضمن هذا الإطار كان حضور مفهوم الشرق أوسطية كقضية جدلية ذات تشعبات ثقافية وسياسية واقتصادية وجغرافية . ومن المفارقات العجيبة أن نشهد كتاب ومثقفين مرموقين كانوا محسوبين على اليسار ووقفوا فى الجناح المتطرف من هذا اليسار أو كما درج تسميته بيسار اليسار، الذين أصبحوا دعاة للشرق أوسطية وأكثر تحمساً لانهمارات العولمة سواءً من خلال بعض الإصدارات مثل كتاب "عرب وشرق أوسطيون أيضاً " أو المؤتمرات " مؤتمر مدريد " وكوبنهاجن أو من خلال الترويج لجمعيات السلام المشبوهة والدعوات المتكررة إلى قبول الآخر والعيش معه فى سلام ، غير عابئين بما جرى ويجرى من هذا الآخر ، ودون أن يكلفون أنفسهم عناء دراسة وتحليل استراتيجيته وأهدافه وتحالفاته وأسباب وجوده فى قلب الأمة العربية . والأرجح إنهم أكثر من غيرهم معرفة ودراية وإلمام بتاريخ الصراع العربى - الصهيونى وخلفياته ومعطياته وأدواته ، إلا أن ما يثير الشك هو استخدامهم المنابر الإعلامية وجرأة البعض منهم تحت دافع الحماس لعالم الرضاء والانبعاث الجديد الذى طرأ على المنطقة بعد تفكيك النظام العربى وهزيمته وإحلال الشرق أوسطية العولمية محله فأطلق هذا البعض وصف القطيع على أعضاء نقابة الصحفيين المصريين الرافضين للتطبيع [(1)] إضافة إلى استخدام الكثير من الأنماط الخارجية التى تعكس حالة من عدم التوازن الشخصى ، بعد قرار مجلس نقابة الصحفيين المصرية الذى صدر فى أغسطس ١٩٩٧م بإحالة بعض رموز المطبعين من أعضاء النقابة إلى التحقيق ، واستخدما أكثر

(١)لمزيد من المعلومات ، راجع : مجلة الدراسات الإعلامية ، العدد ٨٩ ، أكتوبر - ديسمبر١٩٩٧ ، ص٦٧ وما بعدها .

من منبر لزحزحة البنى الثقافية القديمة ، تماماً كما فعل رفاقهم الشيوعيون المتطرفون في الاتحاد السوفيتي أمثال " بوريس يلتسين " و "إدوارد شيفرنادزة " الأول سقط بعد أن سقط الاتحاد السوفيتي وبعد أن دمر الاقتصاد الروسي بما فيه البنية التحتية لبلد مترامي الأطراف ، والثاني لا يزال منكفئاً يحكم بقبضة حديدية جمهورية قوقازية صغيرة ، تئن تحت وطأة الجوع والخوف واليأس من المستقبل المجهول بعد أن أذاقها الأمرين في سبيل الحفاظ على القيم الشيوعية وبعد أن قتل وسجن الكثير عندما كان سكرتيراً للحزب الشيوعي في جورجيا وحكم بقبضة حديدية .

وتحضرني في هذا الصدد الذاكرة عندما كنت طالباً في جامعة موسكو في السبعينات : فقد كنا نتناقش مع زملائنا من الطلبة الروس المتحمسين للشيوعية حول ما يجرى في الدولة السوفيتية من السلوكيات المتناقضة مع المبادئ الماركسية اللينية، فكان يحضر في أغلب الأحيان اسم ميخائيل جورباتشوف المسئول عن الشبيبة السوفيتية (الكومسامول) في ذلك الوقت كمنقذ للدولة العظمى الثانية في العالم وكقبطان ناجح يعبر بسفينة الاشتراكية في أمان إلى محيط الشوعية التي تمثل نهاية التاريخ بحسب رؤية الفلسفة الماركسية ، غير أن رياح البيرسترويكا والجلاسنوست (المكاشفة وإعادة البناء) قد أتت بخلاف ما اشتهته سفينة الانقاذ الجورباتشوفية ، فعصفت بالسفينة ودمرت البناء الاشتراكي دون أن تتمكن من إزالة الركام الذي خلفه هذا التدمير. وكشفت سياسة المكاشفة عورة النظم الاشتراكية دون بذل أي جهد في إماطة اللثام عن الوجه القبيح لمساوئ الرأسمالية ، بل حدث عكس ما كان يتوقع من سياسة إصلاح النظام في داخله : فقد روجت وسائل الإعلام السوفيتية وبعدها الاشتراكية في دول حلف وارسو لنمط الحياة الغربية وللرفاة والمقدونالز والكوكاكولا والجينز وغيرها من عناصر الجذب التي تشد الشباب إلى نمط الحياة الاستهلاكية الرأسمالية، ومثلت ريشة ضارب العود على الوتر الحساس عند هؤلاء الشباب الذين اعتبروا أنفسهم محرومين كل الحرمان من كل ما يتمتع به أقرانهم في الغرب وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص.

إن ما قصدت قوله هو أن الإسراف في التطرف سواءً كان يمينياً أو يسارياً تكون نتيجته عكسية ، فكما شاركت الترويكا المتطرفة في انهيار وتحطيم الاتحاد

السوفيتي والمنظومة الاشتراكية ، وأدى هذا الانهيار الدراماتيكي إلى خلخلة جغرافية سياسية تتفاعل على أكثر من مستوى في ساحة الصراع الدولي ، رغم تمكن الولايات المتحدة الأخذ بزمام المبادرة في قيادة النظام العالمي الجديد والذي تحاول الآن قولبته وتشكيله في نظام العولمة ليكون أكثر ملائمة لها وأكثر نفعاً لخدمة مصالحها وحدها مستخدمة كل عناصر قوتها ووسائل دعايتها بما في ذلك الليبراليين الجدد الخارجين من عباءة الماركسية المنهارة حسب عقائدهم الجديدة التي تمكنت قوى الهيمنة الأحادية أن تغرسها في نفوسهم وتجعل من التطبيع عندهم مع كيان مغتصب لأرضهم وحقهم في الحياة عقيدة ورسالة[1] في الوقت الذي تتضاعف فيه أعمال العسف والقهر وأشكال الإبادة المنظمة التي ترتكب في حق المواطنين العرب في لبنان وفلسطين : في قانا والحرم الإبراهيمي والخليل: وما ارتكبته من جرائم في حق الإنسانية مثل تكسير عظام أطفال الانتفاضة الفلسطينية ودفنهم أحياء وقتل الأسرى " في حروب ٥٦ و ١٩٦٧ " ودفن الكثير منهم أحياء بواسطة الجرافات وتحت جنازير الدبابات، وهي جرائم جعلت من النازية حمل وديع إذا ما قورنت جرائمها بجرائم الصهيونية التي يراد لنا التطبيع معها .

وفي اعتقادي أن ما يجري الآن من عولمة الثقافة أو بالأصح عولمة المثقفين يدخل وفق حسابات استنزافية مدروسة للخصوم ، كما يستفاد منها في إعادة هيكلة الخرائط والقوى المضادة ، وهي رؤية استراتيجية هدفها الانتصار المدعوم بوابل من الهجمات السياسية والثقافية والاقتصادية والتي ستذيب صرامة الأيديولوجيات في النهاية خاصة إذا ما تمكنت من استمالة الشباب العربي إلى الغوص في نمط الاستهلاك الغربي وجعله يضعف أمام الكوكاكولا والجينز والهمبرجر " البتزاهت " التي اخترقت وشوهت أحد أهم الصروح الوطنية والقومية عندنا في الجمهورية اليمنية بعد أن بنت أمانة العاصمة صنعاء مطعم " للبتزاهت " في قلب ميدان شهداء السبعين يوماً المخصص للاحتفالات الوطنية والعروض العسكرية ، وأترك هنا ملاحظة صغيرة ، خاصة بتسمية هذا الميدان ، فقد كان لكاتب هذه السطور شرف

---

(١) سعد زغلول مراد :الصحفيون ليسوا قطيعاً ولكنهم صهر الأمة ، مجلة الدراسات الإعلامية، العدد ٨٩، ١٩٩٧م ، ص ٣٦ .

اقتراح هذا المسمى في اجتماع لجنة الاحتفالات الخاصة بأعياد سبتمبر عام ١٩٨٣ في الشئون العامة والتوجيه المعنوى للقوات المسلحة ورأس هذا الاجتماع الرئيس القائد على عبد الله صالح .

ورغم محاولة البعض الشديدة ممن لا زال لهم حنين وصلات بالماضى الملكى للحيلولة دون إطلاق تسمية ميدان شهداء السبعين يوماً على ساحة الاحتفالات الوطنية ، إلا أن إقرار التسمية قد أصاب هذا البعض بخيبة الأمل بعد أن تحمس الحاضرون لهذه التسمية وكان في مقدمتهم الأخ الرئيس .

أعود إلى موضوع المطبعين الماركسيين وأقول إن هذه الوظيفة الثقافية قد نجحت إلى حد بعيد بالتعاون مع الطروحات البراقة كحقوق الإنسان والديمقراطية وحرية الرأى والعقيدة مع الكتلة الشرقية بمساعدة " الترِيكا " غورباتشوف ـ يلتسين وشيفردنادزة " ثم حاولت الليبرالية الغربية الصاعدة إعادة توصيفها للصين ولكنها فشلت حتى الآن .

وإذا كانت الليبرالية الغربية قد مارست نوعاً من الدبلوماسية المتعددة الوجوه مع القوى المتقدمة (العالم المتقدم) ، فإنها فرضت ما يشبه الأمر الواقع على دول العالم الثالث حين فرضت عليه بفعل المتغيرات ما يسمى بالنظام العالمى الجديد وتحركت آلياته على الصراع العربى الإسرائيلى فقط التى أبرزت فيه كل تناقض الليبرالية الأمريكية التى تجيد الكيل بمكيالين ، ففى الوقت الذى ينادى فيه هذا النظام الجديد ويدعو إلى انتهاء عصر الأيديولوجيا ، يرفع عن الصهيونية وصمة العنصرية كحركة أيديولوجية أقرها المجتمع الدولى " وفى الوقت الذى يرفع فيه شعار حقوق الإنسان وحل النزاعات الدولية بالطرق السلمية ، يعمل على دعم التحالفات العسكرية المكرسة ضد العرب فى منطقة الشرق الأوسط ، ولا تكتفى الولايات المتحدة قائدة هذا النظام بتشجيع الانتهاكات الإجرامية لحقوق الإنسان فى الأراضى العربية المحتلة وفى فلسطين بل تتعمد تعطيل قرارات الإدانة الدولية لتلك الجرائم والانتهاكات باستخدامها الحجج وباستمرار لحق الفيتو فى تحد صارخ للمشاعر العربية وللنظامين القومى والعربى الذى تعمل على تهميشه ضمن النظام الشرق أوسطى الجديد .

الشرق أوسطية وتهميش النظام العربي :

بات أمر السياسة الأمريكية ومؤسساتها التابعة التي تولت تنظيم مؤتمر الدار البيضاء واضحاً في أن المشروع الشرق أوسطي ليس إلا بداية الطريق في رسم مستقبل المنطقة ومصير النظام العربي : فقد لوحظ منذ الوهلة الأولى لانعقاد المؤتمر تهميش الوجود العربي، وعدم تداول اسم النظام العربي أو العالم العربي في مواد وأدبيات المؤتمر التي شملت البيانات والخطب والمداخلات والوثائق التي حفل بها المؤتمر، إذ لم يرد ذكر المجموعة العربية إلا مرة واحدة في البيان الختامي لهذا المؤتمر الذي شمل ست صفحات متجاهلين التفوق العربي من حيث السكان والمساحة على بقية الأطراف الأخرى في هذا النظام الجديد المفروض قسراً على الأمة العربية ، فمساحة الوطن العربي تبلغ ١٤ مليون متر مربع ، مقابل ٢,١ مليون كيلومتر مربع لبقية الأطراف . وسكان الوطن العربي يصل إلى ٢٧٠ مليون نسمة مقابل ١٢٥ مليون نسمة للأطراف الأخرى في هذا النظام . وبهذا تمثل الأراضي العربية ٨٥٪ من مساحة الشرق الأوسط كما يمثل السكان العرب ٦٧ ٪ من مجموع سكانه .

ورغم أن مؤتمر الدار البيضاء الاقتصادي هدفه كهدف بقية المؤتمرات واللقاءات والمفاوضات هو تثبيت النظام الشرق أوسطي الرامي إلى تفتيت النظام العربي الذي يتمتع بمكونات متجانسة قل أن تتواجد في أي تجمع سكاني آخر على وجه الأرض (تكون اثنولوجي عربي متجانس مع الاعتراف بوجود أقليات عرقية غير عربية إلا أن معظمها مسلم) : والأقلية الدينية المسيحية لا تقل وطنية وعروبة عن الأكثرية الإسلامية بل كان لكثير من العرب المسيحيين السبق في الدعوة إلى القومية العربية وقيادة نظامها منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا . فقد تلاقت القلوب وتشابكت الأيدي العربية الإسلامية والمسيحية في تعاضد وتماسك ومحبة على مر العصور ، رغم محاولة التفتيت التي مارستها قوى الاستعمار ولا زالت تمارسها حتى يومنا هذا . وقد تجلت حقيقة المحاولة الاستعمارية في مؤتمر الدار البيضاء الذي مثلت فيه الوفود العربية الأرضية الخصبة لبذر هذا التفتت وتعميق الانقسامات في الصف العربي ، عندما جرى سباق بين بعض الوفود العربية على الارتماء في أحضان أعداء الأمة العربية ، بينما لم يرتفع صوت عربي واحد محتجاً على التجاهل المتعمد للوجود العربي في المؤتمر .

تناول مفهوم الشرق أوسطية فى الفكر السياسى العربى[1] :

تعددت المداخل التى تناول من خلالها الفكر العربى مفهوم الشرق أوسطية وهى مدخل التأصيل التاريخى ومدخل الأزمة ومدخل المؤامرة ، ومدخل تغيير النظام الدولى ، والمدخل الأيدولوجى ، وأخيراً المدخل المستقبلى . وهى مداخل يمكن من خلالها تفهم الأرضيات المختلفة التى يقف عليها المؤيدون والمتحفظون والمعارضون لمفهوم الشرق أوسطية الجديدة ونظامها العولمى .

مدخل التأصيل التاريخى للشرق أوسطية :

اهتم المفكرون العرب بتأصيل هذا المفهوم وإن اختلفوا فى المدى الزمنى الذى يعود إليه :

أولاً : يرجعه البعض إلى مؤسس الصهيونية (تيودر هيرتزل) فيوصف المشروع بأنه خلاصة يوتوبيا هيرتزل الصهيونية حيث يتحول الشرق الأوسط إلى منطقة يخيم عليها السلام والتعايش ، تجتمع فيها الثروات العربية الواسعة مع التمركز الاستثنائى للقوة العقلية التى يمتلكها الصهاينة لخلق جنة من الرخاء على الأرض[2].

ثانياً : ويعرض آخرون الشرق أوسطية كمفهوم ثقافى فى القرن العشرين من خلال ما كتبه الدكتور/ طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) حيث دلل على ضرورة إحياء ثقافة البحر المتوسط . ويضيف بعض المفكرين ومنهم رغيد الصلح المفكر اللبنانى الذى حاول بلورة هذه الرؤية الشرق أوسطية فى كتابه (حضارتنا على المفترق) فقد ارتأى أن حضارتنا متوسطية لأنها لا تنتمى إلى المعسكر الرأسمالى أو المعسكر الشيوعى وأنها تواجه إلحاداً من الشرق والغرب يستلزم تعاوناً إسلامياً مسيحياً [3].

---

(١) محمد سعد أبو عامود ، الشرق أوسطية فى الفكر السياسى العربى ، السياسة الدولية ، العدد (١١٥) مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، يناير ١٩٩٤م ، ص ص ١٦٥ - ١٦٦ (بتصرف) .
(٢) رغيد الصلح : المشاريع الإسرائيلية -شهادات المنشأ غربية ، الحياة ، ١٩٩٣/٧/٢٦م .
(٣) مراد وهبه :ثقافة شرق أوسطية ، جريدة الحياة ، ١٩٩٣/٨/١م .

ثالثاً : أما الفريق الثالث فيرجع المفهوم إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث تأرجح مفهوم النظام الإقليمي بين تصورين ، النظام الإقليمي العربي والنظام الإقليمي الشرق أوسطي وإن تحقق الأول حيث أن الظروف في الخمسينات كانت تسمح ببروزه ، بخلاف الظروف الحالية[1] التي تميزت بالاضطراب وعدم اليقين والتي تتعرض لها من خلال المداخل الآتية :

مدخل الأزمة :

ويربط أصحاب هذا الاتجاه بين الأزمة التي يعاني منها النظام العربي بعد حرب الخليج الثانية ومفهوم الشرق أوسطية بوصفه مشروع بديل للنظام العربي في حالة تحلله وانهياره . ونفس الرؤية يعبر عنها أكثر من كاتب ومفكر عربي وبعضهم يوضح النتائج التي ستترتب على هذا البديل بالنسبة للعالم العربي ، والبعض يجعل من إحياء النظام العربي الإقليمي وتقويته شرطاً للدخول في أية مشروعات إقليمية أخرى كالنظام الشرق أوسطي . وهم يطرحون بدائل أخرى لعلاج أزمة النظام العربي ، ويرى بعضهم إمكانية التعايش بين النظامين بشرط أن تتوفر عناصر القوة للنظام العربي .

مدخل المؤامرة :

ينطلق أصحاب تلك الرؤية من فرض محدد وهو أن هناك محاولات غربية أمريكية مستمرة للسيطرة والهيمنة على المنطقة العربية ، وأن حالة الضعف العربية الراهنة إضافة إلى الاتجاه نحو التسوية السلمية للصراع العربي الإسرائيلي قد شجع الولايات المتحدة على طرح مشروع النظام الشرق أوسطي بهدف تجميع فكرة القومية العربية أو العمل الجماعي في محيط أكبر تختلط فيه الهويات والأجناس وتواجه فيه البلاد العربية تحدياتها منفردة ، لتذوب القومية العربية في دروبه المختلفة .

ويركز أصحاب هذه الرؤية على السياسة الأمريكية في المنطقة العربية ويربطونها بسعي الولايات المتحدة إلى الحفاظ على الموقع المتميز لإسرائيل في المنطقة .

---

(١) جميل مطر :مستقبل النظام الإقليمي العربي ، المستقبل العربي ، العدد (١٥٨) أبريل١٩٩٢م ، ص١٩.

فطرح المشروع الشرق أوسطى يمكن أن يوفر لإسرائيل موارد مالية بديلة عن المعونات الأمريكية التى سيتعذر استمرارها مستقبلاً وتحظى إسرائيل بدور الدولة الأكثر رعاية فى ظل هذه السوق ، وعلى أن تحظى أطراف إقليمية موالية لأمريكا (إسرائيل - تركيا - أثيوبيا) بمشاركة العرب ثرواتهم التى تراها الولايات المتحدة أكبر من أن يستقل بها العرب وحدهم .

وأخيراً ضمان الهيمنة الأمريكية على البترول العربى ، وذلك عن طريق إقامة نظام غير عربى المركز يستمد أمنه من خلال إتفاقات ثنائية بين كل دولة عربية على حده والدول الغربية الرئيسية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية(1) .

مدخل تغيير النظام الدولى :

يعالج أصحاب هذا المدخل مفهوم النظام الشرق أوسطى من خلال إطار أوسع هو النظام الدولى فالعالم اليوم يشهد تغيرات جذرية فى كافة المجالات بصفة عامة ، وعلى المستوى الدولى بصفة خاصة ، فهذه التغييرات على المستوى الدولى تتطلب إعادة النظر فى الترتيبات القائمة على المستوى الإقليمى ، بما يعنى أن التغيير فى النظام الدولى يتطلب تغيراً فى النظم الإقليمية القائمة فى مناطق العالم المختلفة وخاصة فى المنطقة العربية التى لها أهميتها الإستراتيجية الخاصة بالنسبة للنظام الدولى.

وتتعدد أطروحات هذه الرؤية ، فالبعض يدعوا إلى صياغة نظام عربى جديد على أسس سياسية واقتصادية متطورة ومتمشية مع طريقة العصر الذى نعيشه. ويدعوا فريق آخر إلى ضرورة التوصل إلى نظام عربى جديد على أن تكون له رؤيته الإقليمية والدولية بما يتمشى مع الظروف الجديدة فى عالم اليوم . غير أن جميعهم يحذرون من عجز العالم العربى عن بلورة سياسة يستطيع بها المواءمة والمواجهة مع السرعة الفائقة لحركة القوى الخارجية من حوله ، وأن الأمر سينتهى فى ظل هذا العجز - إلى نظام شرق أوسطى بوصفه أحد أركان بنيان جديد للنظام العالمى الذى يقوم على تكريس فكرة عدم العدالة وعدم التكافؤ بين الشمال والجنوب ، وقوام هذا التصور توزيع النفوذ المهيمن بين المراكز الرأسمالية الثلاثة أمريكا وأوربا واليابان مع

---

(1) ياسين سويد .موقع الوطن العربى فى النظام الدولى الجديد . مجلة الوحدة ، العدد (100) ، الرباط ، يناير 1993م ، ص 74 .

الاحتفاظ بمركز خاص للولايات المتحدة بحيث تتم إقامة مجموعة من النظم الإقليمية للسلام والأمن الغربي في المناطق والقارات المختلفة ، وذلك عبر التفاهم بين المحاور الثلاثة الكبرى من جهة ومحاور صغرى للحركة من جهة أخرى ترتبط مع الأولى ارتباط التروس بالترس الأكبر لتدور الآلة حيث يراد لها أن تدار حسب النموذج المعد .

المدخل الأيديولوجي :

يستند أصحاب هذا المدخل على مدى اقتراب أو إبتعاد مشروع النظام الشرق أوسطي عن الإطار الأيديولوجي الذي يفكرون في نطاقه . ومن الواضح أن هناك رؤيتين أيديولوجيتين بارزتين في سياق نتاج الفكر السياسي العربي ، وهما الرؤية الإسلامية والرؤية القومية ، وتنطلق الرؤية الإسلامية للنظام الدولي الجديد بصفة عامة وما يترتب عليه من مشروعات إقليمية كمشروع الشرق الأوسط ومن بعده العولمة من موقف الشك والحذر استناداً إلى العداء التاريخي بين الإسلام والغرب، فالنظام الدولي الجديد قد قلل من الاستقلال وامتلاك القرار لدى دول وشعوب العالم الثالث وحرمها من أية قدرة على المناورة وأن هذا النظام سيعمل على تطويق الحركة الإسلامية والحيلولة دون نموها وسيعمل على احتوائها في مشروع السيطرة والهيمنة الغربية الذي يتكون الآن[1]. وتربط هذه الرؤية الترتيبات الإقليمية في المنطقة بهيمنة الغرب ومحاولة فرض حضارته على العالم .

ويربط أصحاب الاتجاه القومي العربي بين النظام الدولي الجديد وبين النظام الشرق أوسطي المقترح ، حيث يتطلب النظام الدولي الجديد من وجهة النظر الأمريكية ضرورة قيام نظام شرق أوسطي يضم في إطاره مجموعة الدول الشرق أوسطية التي تمتد من تركيا إلى مصر مروراً باسرائيل وتضم في إطارها دول المشرق العربي ودول الخليج العربي وصولاً إلي إيران وباكستان . وهدف أمريكا هو تكريس هيمنتها بالإضافة إلى تحقيق مصالحها الاقتصادية في السيطرة على النفط العربي والأسواق العربية ومصالحها السياسية باعتبار أن من يسيطر على هذه المنطقة يصبح

---

(١) زكي أحمد ، النظام العالمي الجديد في تصور الإسلاميين العرب ، المستقبل العربي ، العدد (١٥٧) ، مارس ١٩٩٢م ، ص ١٣٧ .

سيد العالم . ويترتب على قيام هذا النظام تجاوز القومية العربية وتعميق مظاهر التجزئة بين مشرق ومغرب الوطن العربى وتكريس الوجود الصهيونى باعتباره عضواً طبيعياً فى النظام وقيام علاقات جديدة بين دول عربية وغير عربية على أساس غير قومى .

مدخل استشراف المستقبل :

ركز المفكرون العرب فى هذا الإطار على استشراف المستقبل بالنسبة للنظام الإقليمى فى المنطقة وسنجد ثلاث اتجاهات على الأقل هى على النحو الآتى:

الأول : يفترض إمكانية قيام نظام إقليمى شرق أوسطى .

الثانى : يرى أن هناك تحفظات حول هذا الافتراض .

الثالث : يرفض هذا الافتراض ، ويطرح بدائل أو تصورات أخرى للنظام فى المنطقة.

(أ) الاتجاه الذى يفترض امكانية قيام النظام الإقليمى الشرق أوسطى :

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن المسألة ستحسم لصالح تبلور نظام أمنى وسياسى جديد فى الشرق الأوسط ، وأن كل تقدم فى مسار التفاهم العربى الإسرائيلى سيسهم فى التخلص من مفاهيم الأمن السائدة الآن، ويشير إلى أن الظروف مهيأة للدخول فى النظام الشرق أوسطى . ومن الأهمية بمكان التشديد على أن إقامة مثل هذا النظام لا تعنى بالضرورة أنه نقيض وجود النظام العربى إذا استطعنا كمجموعة عربية أن نكون قطباً مثل الأقطاب الأخرى الداخلة فى هذا النظام . ويحذّر أصحاب هذا الاتجاه من دخول العرب فرادى لأنهم حينئذ سيقعون فى مثلث ثلاثى الأقطاب يضم إسرائيل وإيران وتركيا وكلها دول قومية قوية . كما أن النسيج القومى بها يشكل وتيرة أساسية للتعبئة ولبلورة مشروع سياسى بالإضافة إلى أن هذه الدول لها عمق سياسى واستراتيجى قد لا يتمتع العرب بمثله . وعن آليات النظام يتحدثون عن إمكانية الاستفادة من التجربة الأوربية لأنها أدت إلى تحول منطقة كانت - تاريخياً - ميداناً للحروب المستمرة إلى منطقة للتكامل والتعاون والأمن المتبادل . لذا يمكن القول بأن المفهوم الإقليمى فى العلاقات الدولية والقائم على إذابة أسباب

التوتر والبعد عن النزعة المحلية والسياسات الوطنية قصيرة النظر ، والعمل على تنسيق التعاون والتكامل يمكن أن يحقق في منطقة معينة مزجاً ومخرجاً مواتياً لحل المنازعات ويطلق الكثير من التفاعلات الإيجابية التي تساعد على حفظ السلام وتحقيق التقدم والاستقرار(١) .

وفي هذا الصدد يرى البعض أنه من الأفضل بالنسبة للجانب العربي أن يأتي النظام الإقليمي من خلال مفاوضات تأخذ مصالح الطرفين في الاعتبار بدلاً من أن يأتي نتيجة لضغوط خارجية . ومن ثم فإن من صالح العرب أن يدعوا إلى عقد مؤتمر للأمن والتعاون والتنمية في الشرق الأوسط وأن يدخلوا هذا المؤتمر بمقترحات ومواقف يتم التوصل إليها من خلال مفاوضات عربية ـ عربية وبذا يكون الجانب العربي فاعلاً في رسم مستقبل المنطقة(٢) .

ورؤية أخرى ترى أن المسألة ليست مفاضلة بين نظام عربي أو نظام شرق أوسطي ، ولكن يمكن طرحها من خلال القول بنظام عربي ونظام شرق أوسطي ، وترى أن هناك عوامل تجعل من الضروري أن يتم التفاعل بين الإطار العربي والإطار الشرق أوسطي حيث يتطلب العامل الجغرافي ضرورة الانفتاح المحسوب على كل ما في الشرق الأوسط من ثقافات وحضارات وأسواق وتبادل المصالح والمنافع معها ، إضافة إلى المتغيرات الدولية الحديثة والتي تتطلب قيام نظم إقليمية خاصة في المواقع الاستراتيجية . ومن ثم المطلوب الآن أن يكون النظام العربي بقوته الجماعية شريك في نظام إقليمي أوسع من خلال آليات وقواعد محددة تقوم على مبدأ الاعتماد المتبادل ، وأن الأوضاع الحالية واحتمالات تطورها في المستقبل تدعوا إلى ضرورة العمل في اتجاه توسيع الشرق الأوسط ليلحق بأوربا المتوسطية بما يمكننا من القيام بدور الشريك الفعال في النظام العالمي الجديد(٣).

---

(١) عبد المنعم سعيد :مستقبل السلام الإقليمي في الشرق الأوسط ، الحياة ، ١٩٩٣/١٠/٤م.
(٢) عبد الرؤوف الريدي :سفيرالعرب والشرق الأوسط الجديد ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٣/١٠/٩م .
(٣) لطفي الخولي :عرب نعم ولكن شرق أوسطيون أيضاً ، الحياة ، ١٩٩٣/٥/٢٠م .

(ب) الاتجاه المتحفظ على فرضية الاتجاه المستقبلى نحو نظام إقليمى شرق أوسطى :

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنه من الخطورة بمكان أن يدخل العرب فى ترتيبات تعاقدية إقليمية تقوم على أساس توازن معين للقوى على المستوى الدولى بصفة خاصة ، قابل للتغيير ، ويشيرون إلى أن العروبة لا تعنى العزلة ، ولا تعنى التفاعلات مع دول الجوار وتنظيمها ، ولكن المرفوض هو أن مثل هذه الترتيبات مفروضة من الخارج ، وعلى نحو يتجاهل الهوية والمصالح العربية تحديداً أو يلحق الضرر بها . ويرون أن الخطورة تكمن فى تزامن التسوية السلمية مع مرحلة ضعف وتفكك عربى ، بحيث أن السيناريو الأكثر احتمالاً هو دخول العرب هذا النظام فرادى وليس فى إطار عربى متماسك مما يزيد المخاوف فى أن يكون النظام الشرق أوسطى إطار لتذويب الهوية العربية ، وليس إطاراً للتفاعل بين نظام عربى وبين الخصائص العالمية والإقليمية من حوله بحيث يقوم على الندية والتكافؤ . وأن فرصة هذا النظام المقترح على الأمد المتوسط والبعيد كإطار لتنظيم واستقرار التفاعلات الإقليمية غير موجودة لأنه سيبنى على عدم العدالة . وأن هذا النظام لا يمثل حقائق القوة فى إقليم الشرق الأوسط لاستبعاده العراق وإيران ، كما أنه يستند إلى معادلة دولية معينة وهى الهيمنة الأمريكية ، والتى لا تعدو أن تكون هيمنة مؤقتة [1] .

ويطالب أصحاب هذا الاتجاه بضرورة التمسك بالقومية العربية وأنهم يرون أن مقوماتها ما زالت باقية ، ويدللون على أهميتها بأن المتغيرات الدولية التى استندت فى شق كبير منها على العامل القومى ، وأن العرب سيواجهون مستقبلاً تتحصن فيه دول الجوار الجغرافى خلف متاريس أيديولوجية ، فى حين لن يجد العرب ما يتحصنون خلفه أو يحفزهم على التميز والتقدم . ومن ثم فإن نقطة البدء تكون فى العودة إلى النظام العربى بعد انعاشه وتغيير سلوكيات أطرافه وتحديثه ثم نقرر الاندماج فى النظام المقترح من عدمه[2] .

---

(١) د. أحمد يوسف أحمد : أفكار حول السلام والنظام الشرق أوسطى ، جريدة الحياة ، ١٩٩٣/١٠/٢٣م.

(٢) جميل مطر : مستقبل النظام الإقليمى العربى ، المستقبل العربى، مصدر سابق ، ص ٢١.

(جـ) الاتجاه الرافض لأن يكون النظام الإقليمى فى المستقبل نظاماً شرق أوسطياً:

هذا الاتجاه يضم أنصار من مدارس فكرية مختلفة تضم الإسلامى والقومى والاشتراكى باستثناء الليبراليين من أنصار كامب ديفيد ومجموعة كوبنهاجن. فيرى الإسلاميون منهم أنه لا توجد هوية شرق أوسطية ، لأن المنطقة عربية إسلامية ، ومن ثم فالحديث عن الهوية الشرق أوسطية هو افتعال ودعوة لتذويب خصوصية هذه المنطقة لتقلع من انتمائها العربى الإسلامى ، وهى صيغة مصممة لغرس إسرائيل في جسد المنطقة ، ويعبر عن أحلام وتمنيات أكثر مما يعبر عن معطيات لواقع حقيقى .

ومن هنا فهم يدعون إلى عدم الأخذ بهذا المفهوم أو المصطلح لأن معطياته على صعيد الواقع غير قائمة[1] .

وينظر القوميون إلى النظام المقترح للشرق الأوسط على أنه اقتراح إسرائيلى ، وأن القول بأنه مفيد للعرب اقتصادياً هو زعم غير صحيح ، لأن لإسرائيل مشروع يؤدى تحقيقه إلى ضرر محقق بالمشروع العربى ، وأنه يكون اقتصادياً فقط بل إن النظام المقترح بأكمله سيكون مهدداً للوجود العربى ذاته ، وأنه يتناغم مع أطماع الهيمنة التى يسعى الشمال إلى فرضها على الجنوب الذى ننتمى إليه . الأمر الذى يحتم علينا تجديد الفكر القومى وإظهار المفهوم الإنسانى للقومية العربية فى مواجهة مثل هذه المقترحات المنافية للهوية العربية .

ويضيف الاشتراكيون أن النظام المقترح يحول إسرائيل إلى شريك كامل لأمريكا بعد أن كانت تقوم بدور الوكيل لها فى المنطقة ، كما أنها يمكن أن تتحول إلى دولة إقليمية عظمى بعد أن تتغلب على موازين القوى فى المنطقة لصالحها ، ويضع مصر والأقطار العربية فى حالة الانضمام للمشروع ـ فى موضع ضعيف وتابع لصالح أطراف غير عربية. ويقترح أنصار هذا الفكر أن يكون التعامل العربى مع أطراف هذا المشروع فى إطار العلاقات العادية والثنائية ويبقى خيار الانضمام أو رفضه مستقبلاً خاضعاً للتطورات المستجدة فى العلاقات العربية وللقرار العربى الموحد .

أما البديل الثانى والأفضل لديهم فيتمثل فى قيام تجمع اقتصادى عربى.

---

(١) فهمى هويدى ندوة الحياة عن النظام الشرق أوسطى الجديد ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٢-١٤/٩/١٩٩٣م .

الجـدل العـربى حـول الترتيـبات الإقليمية الجديدة [1]: (ما بعـد مؤتمر مدريد وأسلو) :

شـهد عـام ١٩٩٣م اتسـاع نطاق الجدل فى الفكر العربى ، الذى بدأ عقب انعقـاد مؤتمـر مدريـد، حـول طبـيعة الترتيـبات الإقليمـية الـتى سـتترتب عـلى تسوية الصـراع العـربى الإسـرائيلى وأضـفى الاتفـاق الفلسـطينى والإسرائيلى فى سبتمبر ١٩٩٣م سـخونة شـديدة عـلى هـذا الجـدل ، فقد أظهر مخاوف فريق من السياسيين والمـثقفين العـرب الذيـن سبق أن حذروا من إعادة صياغة العلاقات الإقليمية فى ظل التسـوية عـلى نحو يكفل وضعاً متميزاً أو مهيمناً لإسرائيل. على حين سعى فريق آخر لإبـراز مـا يـراه مـن محاسـن الـتعاون الإقلـيمى فـى ظـل علاقـات سـلمية مع إسرائيل أو للتقلـيل من أهمية مخاوف المتخوفين . وقبل استعراض مجمل أفكار جدل المعارضين والمؤيديـن لأفكـار الترتيبات الإقليمية الجديدة والمستمدة من المداخل المختلفة لتناول مفهـوم الشـرق الأوسـط فـى الفكـر العربى والسابق استعراضها فإن هناك ملاحظتين على طابع هذا الجدل :

(أ) عـزوف الدوائـر الرسمية فى الدول العربية عن المشاركة فى الجدل الدائر ، وبقى هـذا الجدل محصوراً فى أوساط المثقفين والسياسيين المعارضين والمستقلين ، هذا باستثناء القليل من الأحاديث والتصريحات المقتضبة أو المغرقة فى العمومية التى صـدرت عـن عـدد محـدود للغايـة مـن المسئولين العرب وتعرب فى مجملها عن الترحيـب بالتعاون الشرق أوسطى أو تنفى وجود مخاطر له ، وهو أمر يبدو غير منسـجم مـع الحاجـة الماسـة للاستعداد للتعامل المخطط مع مرحلة جديدة غير مسـبوقة عـلى الصـعيد الإقليمـى، فالثابت أنه لا يوجد حد أدنى من الاستعداد العربى لهذه المرحلة ، لا بمشروع موحد ، ولا حتى بمشروعات قطرية ، رغم ما كان واضحاً من أن هذه المرحلة آتية لا ريب فيها .

(ب) أن هـذا الجـدل افـتقـد الـتحـديد الدقـيق لموضوعه (هل هى ترتيبات إقليمية - أو هـى سـوق شـرق أوسـطية أم هـى نظـام شـرق أوسـطى) وحـدث الكـثير

---

(١)التقرير الاستراتيجى العربى :معركة الشرق أوسطية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام ، القاهرة، ١٩٩٤م ، ص ص ٢٢٨-٢٣٧ (بتصرف).

من الخلط نتيجة الإخفاق في تحديد الموضوع ولشيوع الارتجال والعشوائية وأدى ذلك - جنباً إلى جنب مع الرغبة في تسجيل المواقف - إلى قصور في طروحات المؤيدين والمعارضين للترتيبات الإقليمية الجديدة ، ولم يقدم أي من الفريقين رؤية للفرص والمخاطر المتضمنة في هذه الترتيبات وكيفية صياغة تصور عربي ندخل به العصر الجديد بما يقلص مخاطره علينا ويدعم فرصنا فيه مهما كانت محدودة بدلاً من الوقوف على طرف النقيض (ضد أو مع) .

تيار الرفض للشرق أوسطية :

شن هذا التيار حملة شديدة على الشرق أوسطية بكل الصيغ التي جرى الجدل حولها ، طارحاً القضايا التالية :

(أ) إن الشرق أوسطية مشروعاً ليس نابعاً من العرب وإنما مفروض عليهم وأن له أصول تاريخية غربية وصهيونية ، فيرى القائلون بأصوله الغربية أن هذه الأصول تعود إلى حلف بغداد وحلف شرق البحر المتوسط ومشروع إيزنهاور[1] . وغيرها من الأصول الغربية التي فشلت بسبب تنامي القومية العربية والإصرار على رفض أي ترتيب إقليمي يدعم مركز إسرائيل في المنطقة ، ولكن سلسلة الانكسارات التي تعرضت لها القومية العربية توفر ظروفاً مواتية الآن لمثل هذا الترتيب ، فالصف العربي مشتت ، والفكرة العربية تتلاشى ، باعتبارها أحلاماً والدول العربية مثقلة بأزماتها وهمومها الداخلية ، وأنظمة الحكم فيها حريصة على روابطها الغربية التي ترى فيها الضامن الوحيد لحمايتها واستمرار بقائها .

ويرى القائلون بالأصول الصهيونية للشرق أوسطية أن هذه الأصول تعود إلى مشروع " هرتزل " الذي تطلع إلى تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة سلام وتعايش وتعاون ، وقد تمت إعادة صياغته تحت مسمى جديد هو المشروع الشرق أوسطي ، الذي قامت مؤسسات صهيونية بدراسات حوله منذ ما قبل قيام إسرائيل . ومثال ذلك تلك الدراسة للمنظمة الصهيونية الأمريكية عام

(١) د. أحمد يوسف أحمد .العرب وتحديات النظام الشرق أوسطي . المستقبل العربي ، العدد (١٧٩) ، يناير ١٩٩٤م ، ص ٥٤ .

١٩٤٥م عن الاتحاد الشرق أوسطى التى تضمنت تصورات لتطوير المواصلات والتجارة والسياحة والأسواق المالية فى المنطقة من خلال تعاون عربى - يهودى ، وفى السياق التاريخى تعود النسخة الراهنة للمشروع الشرق أوسطى إلى منتصف الثمانينات عندما بحث شيمون " بيريز " و " مصطفى خليل " مشروع مارشال للتنمية ، والذى يقوم على برنامج للتنمية تموله دول غربية وأخرى عربية نفطية ، وقد تواكب ذلك مع عقد اتفاقية منطقة التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، والتى كانت إحدى وسائل التحايل على المقاطعة العربية من خلال إتاحة الفرصة لتسلل منتجات إسرائيلية إلى الدول العربية باعتبارها منتجات أمريكية . إلى جانب لجوء إسرائيل إلى إيجاد شهادات منشأ مزورة لسلعها ، الأمر الذى يؤكد مدى حاجتها إلى الأسواق العربية .

(ب) إن هدف المشروع الشرق أوسطى هو فرض إسرائيل على المنطقة العربية التى لفظتها وفى ظروف تتيح لها أن تتبوأ مركزاً متميزاً على حساب العرب، فتحقيق تسوية سلمية لا يقود بالضرورة إلى علاقات طبيعية وتفاعل إقليمى ما لم تقترن هذه التسوية بترتيبات معينة فالتسوية فى ذاتها لا تتضمن تعاوناً إقليمياً واسعاً ، كما ثبت من تجربة السلام المصرى - الإسرائيلى لأنها لا تكفل مصالح متبادلة حيث يظل جوهر المشكلة هو وجود إسرائيل نفسها بتكوينها العنصرى وأهدافها التوسعية وتهديدها للمصالح العربية من خلال وظيفتها كقاعدة متقدمة للغرب فى المنطقة وإصرارها على الاحتفاظ باحتكارها للسلاح النووى وتأييد الولايات المتحدة لها .

(جـ) إن الحديث عن دور إيجابى لإسرائيل فى التنمية الإقليمية ، فى إطار المشروع الشرق أوسطى لا أساس له . فهى ليست رائدة فى أى مجال من مجالات الإنتاج ، ولا قدمت اختراعات أفادت البشرية ، ولا تملك التكنولوجيا إلا ما يسمح لها الغرب بالتعاون فيه، فالتكنولوجيا الإسرائيلية ليست أصيلة بل مستوردة من الغرب . ولذلك فإن المشروع الشرق أوسطى لا يفيد سوى إسرائيل لأنه ينعش اقتصادها اعتماداً على السوق العربية الواسعة من ناحية والتمويل الدولى والعربى لمشروعات سيكون لها اليد العليا والنصيب الأكبر

فيها بدعوى إسهامها التكنولوجي . ثم إن هذا التبشير بفائدة التكنولوجيا الإسرائيلية ، التى هى غير أصيلة ، لا محل له لأن التكنولوجيا المطلوبة هى التى تنسجم مع الظروف والحاجات العربية ، فالتكنولوجيا المناسبة لمجتمع صغير ومنظم على مستوى علمي مرتفع تختلف عن تلك الملائمة لمجتمعات تفتقر إلى هذا المستوى وإذا أقحمت عليها تكنولوجيا غير ملائمة ستكون النتيجة اتساع الفجوة بين مكونات المجتمعات ، ومن ثم احتدام التناقضات داخلها .

(د) إن المشروع الشرق أوسطى يطمس هوية المنطقة وينزع عنها خصوصيتها العربية والإسلامية وبالتالى تصبح محيطاً جغرافياً لا علاقة له بالإنسان والتاريخ في صورة خريطة ملفقة مشوهة لا تصلح سوى لاستيعاب الحضور الإسرائيلى وطموحاته وأطماعه ، كما أنها لا تخلو من افتعال حتى على الصعيد الجغرافى نفسه ، حيث تسعى إسرائيل إلى إعادة ترتيب المنطقة تبعاً لهواها ومصالحها ، فتستبعد دولاً وتضيف أخرى ، ومعنى ذلك أن هذا المشروع لا يبقى على خصوصية تاريخية ولا جغرافية للمنطقة وإنما يستبدل بها خريطة فارغة من أى مضمون قيمى له اعتباره بدعوى عدم التعلق بالآمال والمثاليات ، لكن نسيان هذه الأحلام مطلوب من العرب وحدهم وليس من إسرائيل التى تبسط سلطانها على أرض الميعاد رغم أنها مفهوم توراتى أسطورى ما زال متجسداً فى سياسة الاستيطان . وهذا كله يندرج فى برنامج تطويع المنطقة الذى تمارسه القوى الغربية بأساليب مختلفة ، فالتطبيع الثقافى هو امتداد للغزو الثقافى ولسياسة الإخضاع التى يمارسها الغرب خاصة وأنه مرتبط بتسوية تفرضها موازين قوى مختلفة .

(هـ) إن مواجهة المشروع الشرق أوسطى إذن هى مهمة تاريخية جوهرها الحفاظ على الأمة وهى تقتضى السعى إلى تدعيم مؤسسات العمل العربى المشترك ، وتطوير ميثاق جامعة الدول العربية ، وتفعيل معاهدة التعاون الاقتصادى والدفاع المشترك ، وترشيد استخدام الموارد المالية والاقتصادية والبشرية لتحقيق تكامل تتوفر مقوماته بالفعل . فالمدخل الرئيسى الذى ينفذ منه هذا المشروع هو ضعف وتفكك النظام الإقليمى العربى ، والذى يمر الآن بأخطر مرحلة من مراحل تاريخه .

تيار الترحيب بالشرق أوسطية :

قدم المعبرون عن هذا التيار مجادلات عدة سواء لتبرير ضرورة التعاون الإقليمي في إطار شرق أوسطي أو لتأكيد الحاجة إلى سوق شرق أوسطية أو سعياً لتقليل مخاطر التعاون العربي مع إسرائيل :

(أ) في مجال تبرير ضرورة التعاون الشرق أوسطي ، يجرى التركيز على فكرة تراجع وانكسار مشروعى القومية العربية والصهيونية اللذان حاول كل منهما أن ينفى الآخر نفياً مطلقاً وإلحاق هزيمة ساحقة به . ووفقاً لذلك بدأ انكسار المشروع القومى العربى بهزيمة ١٩٦٧م ، وما تبعها من تحول إلى القبول بالتفاوض مع إسرائيل وهو القبول الذى ظل يتزايد ويتسع كلما تأكد انكسار هذا المشروع ، كما حدث انكسار مواز للمشروع الصهيونى رغم انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ م ، لأن هذا الانتصار لم يحقق فرض الحل الإسرائيلى على العرب وتزايد هذا الانكسار نتيجة انتصار العرب فى حرب ١٩٧٣م مما دفع الإسرائيليين لإدراك أن الاستمرار فى الصراعات الصغرى غير مجدى . ثم تنبهت قطاعات متزايدة منهم إلى أن قضية الأمن لم تعد مرتبطة بالعوامل الجغرافية وحدها ، ومن ثم سقط المقوم الرئيسى للمشروع الصهيونى ، كما أسهمت الانتفاضة الفلسطينية فى تأكيد انكسار هذا المشروع وخلقت نسيجاً سياسياً جديداً بين الإسرائيليين والفلسطينيين على المستويات الفكرية والسياسية والاجتماعية رغم المواجهة الحادة ، حيث تبلورت الحاجة إلى حل وسط يتيح التعايش والتعاون ليس فقط بين هذين الطرفين ولكن على صعيد المنطقة كلها وأصبح من الضرورى ربط أطرافها بالمصالح والمنافع المشتركة باعتبار ذلك هو الحل الأفضل للصراع والذى يحول دون تجدده مستقبلاً ، بحيث يكون الوعى العملى بفائدة المشروع الشرق أوسطى هو المانع لتكرار العنف الذى حدث ليس فقط على الجبهات العربية الإسرائيلية ، ولكن أيضاً فى منطقة الخليج التى شهدت حربين شديدتى الضراوة خلال عشرة أعوام فقط .

(ب) وفيما يتعلق بفائدة السوق الشرق أوسطية التى طرحها معظم المعبرين عن هذا التيار دون مناقشة جدية لمفهومها وإمكانياتها الواقعية ، فقد ظهرت مجادلات من أهمها :

١ - إن وجود سوق مشتركة واسعة ضرورية للتعامل مع التكتلات الاقتصادية الدولية ولدعم مركز المنطقة فى النظام العالمى الجديد . فالعالم الآن يتجه إلى التكتلات التى تتعدى الأسواق الوطنية ، ويقيمها على أساس المصالح والمنافع وليس من منطلق الحب والكره فهى تعبير عن الاتجاه العالمى الذى يقوم على الأسواق الكبيرة .

٢ - إنها تحقق تفاعلاً بين التكنولوجيا والموارد الاقتصادية والبشرية فى المنطقة بما يتيح التطلع إلى تنمية إقليمية تعد بازدهار الجميع . ويدعم هذا التوجه وجود ثروات بالمنطقة تتجاوز حدود الدول وتشكل قواسم مشتركة بين دولتين أو أكثر، ومنها مثلاً الموارد المائية مما تفرض الحاجة إلى تطوير مشاريع مائية وكهرومائية تفيد عدة دول ، كما أن هناك مشكلات إقليمية مستجدة لا يمكن التعامل معها داخل الحدود السياسية ، مثل تلوث البيئة والأوبئة والتصحر وما إلى ذلك .

٣ - إن السوق الشرق أوسطية تحقق الكفاءة الاقتصادية فى تخصيص الموارد واستخدام التكنولوجيا المتقدمة بما يساعد على رفع معدلات التنمية فى كل دول المنطقة والتى ستصبح فى هذه الحالة جاذبة للاستثمارات الأجنبية التى تسعى للإفادة من انخفاض تكلفة الإنتاج .

وكان التركيز الأكبر لهذا التيار ينصرف إلى محاولة تبديد المخاوف العربية من التعاون الإسرائيلى فى الإطار الشرق أوسطى ، ومن الطروحات الرئيسية فى هذا المجال هى أن إسرائيل ليست ذلك العملاق الذى يستطيع الهيمنة على المنطقة ، وبرزت فى سياق ذلك محاولات عدة من أهمها :

(أ) تخطئة الطريقة المتبعة فى قراءة قدرات إسرائيل الاقتصادية والتى تستند إلى حجم ناتجها السنوى الذى يزيد عن ٩٥ مليار دولار ،أى ما يفوق حجم اقتصاد دول الطوق مصر وسوريا والأردن ولبنان . فالاقتصاد الإسرائيلى يعتمد على

معونـات مباشـرة وغـير مباشرة تتجاوز ٥,٤ مليار دولار سنوياً[1]، ومعنى ذلك أن معظـم مـا تحـتاجه إسـرائيل للاسـتثمار يـأتى مـن معونـات أجنبـية (أمريكـية بالدرجة الأولى) وبحساب تأثيره المضاعف ، يصبح جزء مهم من حجم الاقتصاد الإسرائيلى ناتجاً عن هذه المعونات .

(ب) مـراجعة مقولـة الـتفوق الاقتصـادى الإسـرائيلى مـن خـلال التأكـيد عـلى أن الصـناعات العسـكرية هى التى توفر المجال الأهم لهذا التفوق إلى جانب الدعم الأمـريكى الـذى يـتجاوز المعونـات ، إلى توفـير الخـبرات والأسـواق ، وعندما يسود السلام سيقل الاندفاع إلى التسلح وستعانى الصناعات العسكرية بالتالى مـن انحسـار مواردهـا وأسـواقها الأمر الذى سيؤثر سلباً على أحد أهم مجالات التمـيز الإنـتاجى الإسرائيلى ، ولـن يـبقى مـن مجـالات التميز إلا صناعة الماس وصقله وإنتاج الأجهزة الإلكترونية وخاصة فى مجال الخدمات الطبية إلى جانب خـبرة الـزراعات الصـحراوية ، وهـى مجتمعة لا تضمن لإسرائيل ثقلاً اقتصادياً تجاه الدول العربية خاصة وأن قطاعى المصارف والتأمين فى إسرائيل يعانيان من مصاعب كبيرة لا يمكن تجاوز آثارها بسهولة ، وأى اقتصاد حديث نشط يحتاج إلى أرضـية صـلبة فـى قطاع المصارف بالذات ، وهذه متوفرة فى لبنان وبدرجة ما فى المملكة العربية السعودية ومصر والأردن أكثر منها فى إسرائيل . وفضلاً عـن ذلك فالعرب هم الذين يملكون المال والطاقة والعمالة والأسواق والمساحة وطـرق المواصـلات والممـرات المائـية وخطـوط أنابيـب الـنفط والغـاز ، أمـا التكنولوجيا الإسرائيلية فستواجه منافسة شديدة من التكنولوجيا الغربية واليابانية .

(جـ) إن التأكـيد عـلى تحويـل الأموال المهدرة فى سباق التسلح إلى التنمية يفيد منه العـرب أكثر مما يفيد إسرائيل ، فالمتوسط العربى للإنفاق العسكرى يبلغ ١٤٪ من الدخل القومى ، فإذا توقف هذا الإنفاق أو تراجعت معدلاته جزئياً ، يصبح بالإمكـان تحقـيق تنمـية تدعـم مركـز العـرب الاقتصـادى فـى ظـل الترتيـبات الإقليمـية الجديـدة ، بـل وتمكـنهم مـن مسـايرة العـالم المـتقدم نمـواً وازدهـاراً ، وفـى هذه الحالة تكون الدول العربية مؤهلة للتفوق على إسرائيل ، خاصة وأن العرب يتمتعون أيضاً بتقاليد وعلاقات مع العالم تفوق ما لدى الإسرائيليين .

---

(١)محمود وهبه .إسرائيل والعرب والسوق الشرق أوسطية ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(د) تسفيه المخاوف من غزو ثقافى إسرائيلى اعتماداً على اعتبارات من أهمها :

١ ـ أن المنطقة تضم خليطاً متنوعاً من الحضارات والثقافات واللغات والأقوام لم يكن تاريخها قصراً على الصراع والعداء بل ضم أيضاً فترات تعايش وتعارف خاصة فى المرحلتين العباسية والعثمانية ، كما أن العالم يعيش عصر التفاعل الثقافى الواسع النطاق ، ولا يمكن التخلف عنه بدعوى الخوف من الغزو الثقافى أو وهم الخضوع للهيمنة الثقافية الغربية .

٢ ـ إن الثقافة الإسرائيلية ذاتها تنطوى على تعدد ، ويوجد فى داخلها مكون عربى بحكم أن حوالى خمس سكانها عرب فلسطينيون ، وأن نسبة كبيرة من يهودها المهاجرين من أصل عربى .

٣ ـ أن الثقافة العربية ثرية استعصت على كل محاولات الاستيعاب والاحتواء فى الماضى والحاضر .

٤ ـ التأكيد على عدم وجود تعارض بين العروبة والشرق أوسطية فمن ناحية فإن العروبة هوية وشعور وانتماء فى حين أن الشرق أوسطية هى ترتيبات ذات جوهر سياسى أو تنظيمى وأن التحدى الحقيقى للعروبة هو القدرة على النقد الداخلى والتجديد ومعرفة جوانب القصور والمتناقضات فى البيئة العربية وقبل إجراء أى تسوية مع إسرائيل.

ومن ناحية أخرى فالشرق أوسطية ليست ترتيباً إقليمياً شاملاً يحل محل النظام العربى وإنما مجموعة ترتيبات تنظيمية يتعلق كل منها بإحدى القضايا التى توجد حاجة للتعاون فيها ، لذلك سيختلف المشاركون فى كل ترتيب منها وفقاً لمدى ارتباطهم بموضوعه.

ومن ناحية ثالثة عدم إنشاء مشروعات أو مؤسسات شرق أوسطية ، على حساب المشروعات والمؤسسات العربية ، بحيث تكون نظرة العرب إلى الدائرة الشرق أوسطية مثل نظرتهم إلى الدائرة الإسلامية أو الأفريقية أو دائرة البحر المتوسط .

ويرى الباحث أن المنظور الشرق أوسطى يكتنفه الغموض وعدم وضوح الرؤية، ولكونه مشروع استعمارى منذ البداية فإن الغموض وعدم الوضوح سيظل سمته الأساسية فى المستقبل القريب على الأقل .

غموض مفهوم الشرق الأوسط :

يمكن ملاحظة غموض مفهوم الشرق الأوسط مقابل مفهوم الوطن العربى أو المنطقة العربية : فالأول تعبير جغرافى عائم لم تتضح حدوده بعد ، فهو يستثنى الأقطار العربية فى شمال أفريقيا (دول المغرب العربى) لكنه يضم الأقطار العربية مثل مصر والسودان والصومال غرباً ، والعراق شرقاً واليمن جنوباً ، وبهذا نجده يجزئ المنطقة العربية الواحدة بدهاء وتعسف متعمد . وهو يفرض إسرائيل القائمة على التراب الفلسطينى باغتصابها الأرض ، ويضم إلى المنطقة كلاً من قبرص وتركيا وإيران وهى دول غير عربية ، مع أن البيان الختامى لمؤتمر الدار البيضاء لا يذكر البلدان الثلاث الأخيرة بالاسم ، ثم إن البعض يوسع المنظور الشرق أوسطى ليشمل أفغانستان مع إمكانية امتداده شرقاً من أفغانستان وشمالاً من تركيا .

إذن فالشرق الأوسط لابد وأن يكون تعبيراً عن بقعة أو محيط جغرافى غير ثابت الحدود ، ثم إن المفهوم غريب إلى حد بعيد من حيث اسمه ، فهو شرق أوسط بالنسبة لمن؟ ولأى بقعة من الأرض ؟

فإذا نظرنا إلى خريطة الكرة الأرضية فإن المنطقة العربية تمثل شرق أوسط إذا نظرنا إليها من الولايات المتحدة ، ولكنها تقع غرب أوسط بالنسبة لليابان واستراليا على سبيل المثال .

إن الهدف من إطلاق المصطلح منذ البداية هو تمزيق الوطن العربى وإحلال إسرائيل ودمجها فى المنطقة لتكون على الدوام بمثابة الحاجز الذى يفصل مشرق الوطن العربى عن مغربه ، وتفتت الأمة حتى لا تقوم لها قائمة . بل إن إسرائيل كما يقول قادة الصهيونية تقع فى قلب الشرق الأوسط وتلتقى فيها معظم المشاريع والبرامج فى إطار السوق الشرق أوسطية وهى مقولة وردت فى خطاب بيريز فى قمة الدار البيضاء .

وفي ضوء ما سبق يصعب تحديد مفهوم الشرق الأوسط جغرافياً في ظل تلك السيناريوهات والمنظومات والاستراتيجيات ووجهات النظر المطروحة التي تجعل دائرة الشرق الأوسط الجغرافية تتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى .

والخلاصة أن المفهوم الإقليمي " للشرق الأوسط " غير واضح المعالم ويصعب تحديده لاختلاف الآراء وفقاً للمصالح والأبعاد الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية لكل رأي، حيث يلاحظ أن مفهوم الشرق الأوسط مفهوم خارجي حديث نسبياً ، ولا يحتوي على أي مضمون تاريخي أو حضاري أو اجتماعي للشعوب العربية أو لشعوب المنطقة غير العربية .

فمن غير المتصور أن تجمع السوق الشرق أوسطية المقترحة هذه التوليفه الجغرافية غير المتجانسة ، وتلك الحضارات المختلفة ، والقوميات المتعددة ، والثقافات المتباينة والمفتقدة للروابط والبعد التاريخي ، إلا إذا كان المخطط لمقولة " السوق الشرق أوسطية " شيئاً آخر يحمل نواة للتعاون الاقتصادي الإقليمي وبين عدد محدود من دول المنطقة تمهيداً لدمج المنطقة في السوق العالمية التي تقودها الشركات معددة الجنسيات وتتحكم في نبض السوق العالمي وثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال التي تستأثر الولايات المتحدة بأكثر من ٧٠٪ منها .

إن الهدف من تمرير مخطط الشرق أوسطية هو تغيير التركيبة الكيانية للأمة العربية ، إذ أن مفهوم الشرق الأوسط عندما تفرض عليه إسرائيل وقبرص وتركيا وإيران وغيرها سيكون مفهوم لا يعبر عن كيانية تاريخية ككتلة بشرية متجانسة ذات تاريخ وثقافة وهوية وتطلعات ومصالح ومصائر مشتركة ، وكلها أمور تتطلبها معطيات العولمة الأمريكية الجديدة الهادفة إلى إذابة كل هذه الكيانات وعولمتها أي جعلها تحت سيطرة التقنية الأمريكية الجبارة .

ورغم أن مفهوم الشرق أوسطية لا يمتلك أي مرجعية جغرافية أو سياسية ولم يتم التعامل معه حتى يومنا هذا كنظام ، بل مجرد دعوة افتراضية ، إلا أن هناك من يتحمس لهذا المفهوم كخيار وحيد وحتمي وليس من حق أي دولة رفض الفكرة أو الانعزال عنها .

وممـا يـزيد الأمـر صعوبة عدم وجود مرجعية فكرية عربية يمكن الركون إليها تجاه الشـرق أوسـطية ، عـدا بعـض الكتـب والمقـالات الكـثيرة المنهمرة في الصحافة اليومية والدوريات تلتقى أغلبها في مفترق التوجس من الفكرة ، والاجتهاد الابتدائي حولها ، نظـراً لضـآلة المعلومـات ولانـبعاث الفكـرة أصـلاً مـن أيديولوجـيات خارج المنظومة العربية ومعادية لها .

ورغـم أن السياسـات العربية لم تقبل جميعاً حتى الآن بالفكرة وحصل تراجع من ناحية بعـض الذيـن تهافـتوا على التطبيع نتيجة لما آلت إليه عملية السلام من تدهور وفقدان الـثقة ونتـيجة للتعنـت الصـهيوني للحكومات المتعاقبة إلا أن الثقافة العربية كما يبدو مـن خـلال أسمـاء محـددة أكثر حماسة ضمن موجة العولمة التي تديرها الولايات المتحدة في الوقت الراهن ، والتي تعتبر العنف والأصولية ورفض التطبيع والتوجس من الآخر العـربي وحـتى الرغـبة فـي الـتوحد مع الآخر العربي كل هذه المتواليات وغيرها تعتبر ذات جـذر ثقـافي حسـب الوصـفة العالمـية، وبالتالي لابد من تغيير بنية التفكير العربي أصـلاً، لذلـك تـنهمر الطـروحات المـتفائلة بـنظام ثقافي عربي يعيد مقولة هدم الجدار النفسي ، ويتكئ على العولمة لتمرير المشاريع السياسية في لبوس ثقافي [1].

(١) مجلة الكلمة : العدد (١٦) بيروت ، صيف ١٩٩٧م ، ص ٨٠ .

الفصل الثالث

العولمة من منظور ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال

تشكل المعلومات عنصراً مهماً فى حياة البشر ولعبت دوراً فى حياة الأفراد والمجتمعات منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض . فقد كان الإنسان البدائى بحاجة إلى المعلومات لمعرفة منابع المياه وإلى الأماكن التى تتواجد فيها الوحوش المفترسة حتى يتحاشى الوقوع فى قبضتها ويصبح فريسة لها ، وتطورت الحاجة إلى المعلومات مع تطور الإنسان نفسه وتطور الأدوات التى استخدمها ، ثم أصبحت المعلومات عنصراً مهماً لمعرفة العدو ووسائله وآلياته فى الحروب المشاعية التى تطورت فكونت مرحلة الإقطاع .. إلخ .

وقد بدأت عملية احتكار المعلومات مع بداية الثورة الصناعية حيث كان الحرص على عدم انتقال التكنولوجيا من بلد إلى بلد آخر . وفى وقتنا الحاضر أصبحت المعلومات عنصراً أساسياً لا غنى عنه فى أي نشاط ، فهى المادة الخام للبحوث العلمية ، وهى الأساس والمحك الرئيسى لاتخاذ القرارات الصحيحة فى الوقت المناسب، ومن يملك المعلومات الصحيحة فى الوقت المناسب ، يكون قد ملك عناصر القوة والسيطرة .

إن توافر المعلومات يساعد الإنسان على نقل خبراته للآخرين واستيفائها من الآخرين ليستعين بها على إدارة شئونه وتطوير وسائل إنتاجه وتمكنه من القدرة على القيام بإنتاجية مبتكرة ومتجددة . فالإنتاج القومى يرتكز على المادة والطاقة والمعلومات مع أن الأخيرة أصبحت تتبوأ المكانة الأولى من حيث الأهمية ، فقد أصبحت معدلات نمو الاقتصاد القومى ترتبط ارتباطاً طردياً بكمية المعلومات التى بحوزة الدولة أو المؤسسة المنتجة وتطبيقها وتوظيفها فى كل عناصر الإنتاج . وتؤكد دراسات كثيرة على أن الوضع البائس لاقتصاديات معظم الدول النامية وتخلفها فى مجالات أخرى كثيرة نابع عن تخلفها فى مجال المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات ، وأن التحفظ وسوء الإدارة وانتشار الفساد يعود فى جزء كبير منه إلى افتقاد هذه البلدان وقياداتها السياسية إلى عنصر المعلومات . ويتوقع الكثير من المفكرين

والمختصين إن وضع الدول النامية قد يزداد تخلفاً وسوءاً إذا ما استمر إهمال قطاع المعلومات فيها .

وإذا ما أيقنا أن عصر المعلومات الآن قد غير الكثير من أنماط الحياة التى اعتدنا عليها حتى منتصف القرن العشرين ، أو نقل حتى عقد السبعينات منه ، فإن مهمة متابعة المعلومات والتحكم فى إنتاجها المتزايد بصورة أصبحت من الضخامة أمرا يكاد يكون مستحيلاً استيعابها ومن ثم أصبح تفجرها هذا يشكل مشكلة حقيقية تواجه البشرية [1]. ويعنى مصطلح تفجر المعلومات : اتساع المجال الذى تعمل فيه المعلومات ، فقد شملت كل مجالات النشاط الإنسانى ، وتحول إنتاجها إلى صناعة أصبح لها سوق واسع فاق أسواقاً كثيرة مثل سوق البترول أو الذهب ، وقد يزيد ما ينفق على إنتاج المعلومات ـ على المستوى الدولى ـ عما ينفق على الكثير من السلع الاستراتيجية المعروفة فى العالم .

تسارع النمو فى حجم الإنتاج المعلوماتى :

يتطور النمو فى مجال المعلومات بشكل متسارع يفوق غيره من كافة الإنتاجات السلعية الأخرى حيث وصل النمو فى الإنتاج الفكرى إلى أكثر من ١٠ ٪ فى بعض الأحيان فعلى سبيل المثال نجد أن دورية اسمها Chemical Abstracts وهى فرع من فروع الكيمياء فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٧م ، استكملت المليون بحث الأولى بعد ثلاثين عاماً ثم رصدت المليون بحث الثانى فى ستة عشر عاماً والمليون الثالث فى خمس سنوات أما المليون الرابع فقد أكملته فى خلال عامين ونصف العام فقط . وإلى سنوات قليلة مضت كانت المعلومات تتضاعف كل اثنتى عشر سنة ، وأصبحت الآن تتضاعف كل عشرة شهور، وقد يكون هذا التضاعف فى المستقبل شهريا، أى كل شهر ضعف ما كان عليه سالفه .

أما مصادر المعلومات فهى عديدة ، منها الدوريات والكتب ، والبحوث ، والبيانات، والندوات والمؤتمرات ، والرسائل الجامعية ، وبراءات الاختراع والمعايير

---

(١) محمد فتحى عبد الوهاب : مقدمة فى علم المعلومات ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤، ص٢٢.

الموحدة، والمواصفات القياسية ، وكذلك النشر المصغر مثل إعادة تسجيل النصوص المكتوبة (كتب - دوريات) وغيرها مباشرة مثل الميكروفيلم ، والميكورفيش ، والأشرطة والأقراص (الديسك) وغيرها ، التي توفر حيزاً كبيراً للغاية من الحيز المطلوب، وصل في استخدام المكروفيلم إلى ٩٩,٩ ٪ ، فالطفرة الهائلة في إنتاج المعلومات أدت إلى طفرة مشابهة في تخزينها في مراكز المعلومات ويؤدى ذلك إلى انخفاض كلفة التخزين .

علاوة على ذلك وهو الأهم في هذا الصدد : الكم الهائل من المعلومات التي تبثها وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى مثل الصحف والراديو والتلفزيون والتنوع الكبير في المعلومات التي توفرها الأقمار الصناعية والتي يستفاد منها في مجال التنمية بشكل مباشر وبدونها لا تستطيع أي دولة الآن أن توضع الخطط المناسبة لبرامجها التنموية . ونعزو تأخر الدول النامية ومنها العربية إلى افتقارها للحصول على المعلومات التي أصبحت سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب الأمر الذى يتيح للشركات الكبرى التابعة للدول المتقدمة احتكارها وبالتالى تعمل على حجب المعلومات الهامة عن الدول النامية التي تحرص على إبقائها مستوردة لمنتجاتها المصنعة والتي مصدرها الأساسي هذه الدول النامية ، أو المتخلفة بالمعنى الأكثر دقة في هيئة مواد أولية .

لقد حولت الشركات الاحتكارية الكبرى المعلومات إلى سلعة غير مادية منذ بداية ما يسمى مجتمع المعلومات الذى ظهر مع ظهور الحاسب الإلكترونى في مراكز البحوث والجامعات في الخمسينات وبدلاً من أن تكون قيمة رفيعة تقدر على أساس معايير تنموية واجتماعية وثقافية أصبحت تخضع لمعايير الربحية (١).

---

(١) شون ما كبرايد وآخرون :أصوات متعددة وعالم واحد، الاتصال والمجتمع اليوم وغداً، تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ١٩٨١م ، ص ٣٢٦.

مولد مجتمع المعلومات وآلات التفكير :

مثل ظهور الكومبيوتر أهم حدث منفرد في تاريخ التكنولوجيا وكانت أجهزة الكمبيوتر أداة التعبير الأساسية خلال الأربعين سنة الماضية . ونظراً لأهميتها فقد أطلق اسمها على عصر بأكمله ـ عصر المعلومات .

إن ما حدث من تطور وتقدم في مجالات مثل الهندسة الوراثية ، والطب ، والفضائيات وتكنولوجيا المركبات وغيرها يرجع إلى ظهور وتطور أجهزة الكمبيوتر التي لعبت دورها الخطير في مساعدة الباحثين في كل خطوة اتخذوها على طريق التقدم والنماء ، وأصبحت اليوم المحرك الرئيسي لعصر الوسائط المعلوماتية والاتصالية ، ورغم أنها قد غيرت كل ما وقع تحت تأثيرها ، فإن تأثير الكمبيوتر لم يضعف بل ازداد قوة وتسارعاً ، وأصبحت صناعة الحوسبة الآن تلخيصاً للتكنولوجيا الفائقة ، وهي تكنولوجيا من أكبر وأسرع الصناعات ، كما أنها أسرعها نمواً وأكثرها إثارة على مستوى العالم أجمع .

والتطور في مجال صناعة الكمبيوتر شمل الشكل والمضمون على السواء ، فقد كانت بدايته متواضعة في عام ١٩٣٧م وهي سنة بدء العمل على أول جهاز كومبيوتر رقمي إذ كان حجمه ضخم وثقيل الوزن وبطئ في نفس الوقت. ولكن النجاح الابتدائي لم يبدأ إلا أوائل الستينات ثم تطورت صناعة الأجهزة الكمبيوترية على أربع مراحل . تختلف كل مرحلة عن سابقاتها في التكنولوجيا وأنواع الأجهزة والشركات الرائدة لكل مرحلة . فقد دشنت IBM تاريخ الحوسبة عام ١٩٦٤م ، بإطلاق جهازها " ٣٤٠ " عبر خط تصنيع ينتج على نطاق واسع وإن ظلت تزن هذه الأجهزة آلاف الكيلومترات وتحتل مساحة تبلغ مئات أو آلاف الأقدام المربعة من أرضية مرتفعة ، ومزودة بنظام التكييف بالهواء ، واقتصر استخدامها على ما أطلق عليه المعالجة الدفعية ، وكانت إحدى الشركات الصناعية على سبيل المثال تستخدم الكمبيوتر لمتابعة مخزون الأجزاء وقطع الغيار بها . وطوال عقد الستينات والسبعينات سادت IBM المرحلة الأولى لسوق الحوسبة : الكمبيوترات الرئيسية ، وهي أجهزة معقدة، مكلفة ومحدودة الإمكانيات .

ورغم أن الكمبيوتر الصغير قد تم تصنيعه في عام ١٩٦٥م إلا أنه كان بدائياً ومحدود الإمكانيات بحيث لا يدخل ضمن جيل الستينات ، أي الكمبيوترات الضخمة الحجم .

وفى المرحلة الثانية : حيث تخطت مسيرة التكنولوجيا قدرة IBM بعد أن بدأ مفهوم المعالجة الموزعة وبعد أن أصبح نمو شركات الكمبيوترات الصغيرة الجديدة يأخذ شكل الانفجار فى الثمانينات ، فكان أن بدأت ونمت إلى أحجام فلكية مثل شركة " هوليت وباكارد " وشركة " تاندام " و " سيكو " و " سنجر " وغيرها من الشركات التى استفادت من الرقائق كسلعة وتمكنت هذه الشركات من بيع كميات ضخمة من أجهزة الكمبيوتر وبدأت تنتشر صناعته بالترخيص فى بعض دول جنوب شرق آسيا وكانت كوريا الجنوبية أكبر دولة من دول آسيا بعد اليابان تقوم بتصنيع وبيع أجهزة الكمبيوتر الصغير والمتطور فى أواخر الثمانينات .

أما المرحلة الثالثة : فقد شهدت صناعة ومولد الكمبيوتر الشخصى وكان العام ١٩٨١م هو نقطة التحول لصناعة الكمبيوتر الوليد عند فارسين على ساحة صناعة الحاسوب هى شركة " انتل " و " مايكروسوفت "[(١)] . اللتان مثلتا قمة جبل الجليد للكمبيوتر الشخصى، فقد برزت إلى الوجود مئات من الشركات بشكل فجائى ، مثل " أمل " " موتورولا " " بانيان" و " لوتس " وغيرها كثر وجدت مكاناً لها تحت الشمس . ولم تحل أواخر الثمانينات إلا وقد بدأ انتشار الكمبيوتر الشخصى على أنقاض الكمبيوتر الرئيسي : الكمبيوتر الشخصى يمتاز بصغر حجمه وبساطة بنائه الجسمانى الذى يتناقض حقاً مع تعقيداته وقدراته فى الداخل.

المرحلة الرابعة : وهى مرحلة متطورة للغاية (مرحلة عصر الوسائط المعلوماتية ، أو ما تسمى(بالأنفوميديا)، والذى يفوق تأثيرها أكبر بكثير من الانتشار المتفجر للكمبيوتر الشخصى الذى أطلق صناعة الكمبيوتر والاتصالات بسرعة الصاروخ فى الثمانينات ، ولاشك أن تكنولوجيا الوسائط المعلوماتية وما سيواكبها من المنتجات والخدمات يشكل سبغة التأثير فى القرن الواحد والعشرين طالما هناك إصرار من الشركات الأمريكية العملاقة على إنفاق البلايين لبناء طريق المعلومات

---

(١) ثورة الأنفوميديا : سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٢٢٣ ، يناير ٢٠٠٠ ، ص ٥٩ .

السريع ، فشركات مثل IBM , AT & T / Bell Lab تنفق بلايين الدولارات على البحوث : فالأولى تنفق ٣,٥ [(١)] بليون دولار وتنفق الثانية ٣ بلايين دولار ، وهو ما يزيد بكثير على ما تنفقه الدول العربية مجتمعة فى مجال البحوث.

وإذا كانت تكنولوجيا المعلومات تتكون من كمبيوترات وأجهزة تخزين للمعلومات، فإن تكنولوجيا الوسائط الإعلامية (الأنفوميديا) هى عبارة عن أجهزة سمعية وبصرية كالتلفزيون والراديو والهاتف أي أنها أي التكنولوجيا تتقدم نحو المنزل فتدمج هذه الأجهزة بواسطة الكمبيوتر فى جهاز واحد يطرد الخط الفاصل بينها . وتعتبر ألعاب الفيديو نوع من تقارب تكنولوجيا الكمبيوتر فى تطبيقها على أكثر الأجهزة شيوعاً " التليفزيون " الذى لم يعد أداة سلبية يعمل فى اتجاه واحد ، بل أصبح جهازاً تفاعلياً مزدوج الاتجاه . فبدلاً من أن نجلس أمام برنامج تليفزيونى وقد ألغينا عقولنا ، يمكننا الحصول على برنامج ما فى أى وقت نريده، وذلك بإدخال خرطوشة اللعبة فى المشغل ، ونصبح " عيون مشاركين إيجابيين أكثر منا مشاهدين سلبيين " وهكذا .

إن مراقبة تطور الكمبيوتر يجعلنا نتطلع إلى تربع زمانى ، فكلما تحركنا فى المستقبل كلما زاد تضاغط الوقت التكنولوجى ، وهو الوقت اللازم لتطوير تكنولوجيا جديدة، فقد استغرق التطور من الكمبيوترات الرئيسية فى الستينات إلى الكمبيوترات الشخصية عشرين عاماً ، أما الآن ومع التطور التكنولوجى فقد تقلص بشكل جعل ما كان يمكن إنجازه فى عامين أو ثلاثة أصبح ينجز فى ٦ أشهر فقط ولا ندرى ما المدى الذى ستحدثه التكنولوجيا فى تضاغط الزمن فى المستقبل فى ظل التسابق المحموم لأعداد ضخمة من الشركات المشاركة فى صناعة الكمبيوتر التى تنفق البلايين فى إجراء البحوث ، وتطوير المنتجات التى تتفاعل مع بعضها البعض[(*)] ، وتتزايد يوما بعد يوم . فقد أصبح بإمكان المشاهدين التفاعليين أن يحصلوا على جهاز تحكم تفاعلى بالمنزل من شركات مثل Zign مقابل ١٢٥ دولار للجهاز

---

(١) فرانك كيلش :ثورة الأنفوميديا ، مصدر سابق ، ص ٨٣ .

(*)للمزيد من المعلومات : راجع كتاب :المتلاعبون بالعقول ، سلسلة عالم المعرفة ، الإصدار الثانى ، عدد ٢٤٣ ، ص ٢٤١ .

واشتراك ٢٥ دولار سنوياً مقابل مشاهدة الألعاب الشعبية التى تعرضها شركة "سونى الدولية" عن طريق الكابل وبأسلوب المشاركة التفاعلية .

وسيقوم عصر الوسائط المعلوماتية بتغييرات أساسية منها دخول الكمبيوترات البيوت فى أشكال كثيرة متنوعة وتسللها إلى أجهزة التلفزيون والراديو، ومشغلات الأقراص المدمجة، وأجهزة الوسائل الإعلامية الأخرى داخل المنزل ، كما أن طبيعة التشغيل ستتغير بالتأكيد .

لقد أصبح المنزل فى بؤرة اهتمام الشركات المصنعة للحوسبة والاتصالات وكما حيدت الكمبيوترات الشخصية عمل الكمبيوترات الرئيسية وخلعتها من عرشها ستصبح تكنولوجيا المنزل متربعة على العرش بدلاً من تكنولوجيا المكتب (١).

وكل هذه الإنجازات والمخترعات المتجددة والمتغيرة بسرعات جنونية تؤكد أن ثورة الاتصالات هى روح عصر العولمة وعمودها الفقرى ، ولا يمكن إدراك أبعاد هذه الثورة إلا بإدراجها فى إطار أشمل هو الثورة التكنولوجية والعلمية بشكل عام أو ما أطلق عليه " توفلر بالموجه" الثالثة " والذى يقصد بها نمط حضارى جديد قوامه العلم والمعرفة (٢). وهذه الموجة لا تمثل قفزة نوعية فى تطوير وسائل الإنتاج فحسب ، بل أنها تمثل مرحلة جديدة فى حياة الرأسمالية التى يحدد المختصون أطوارها ابتداء من الرأسمالية التجارية فى القرنين (١٦و١٧) والذى تميز نشاطها التجارى فى إطار الاكتشافات الجغرافية الكبرى التى استنزفت خيرات بلدان كثيرة من بلدان الشرق عبر طريق الحرير الصينى الشهير من الصين ومن الهند وجنوب أسيا عبر حضر موت وعدن والمخأ وعبر مصر أيضاً ومن أفريقيا عبر تجار المغرب العربى،

وكانت المرحلة الثانية (خلال القرن ١٨و١٩) والتى لعبت فيها الصناعة دوراً حاسماً فى تطوير أوربا ، وكان أهم إنجازاتها استبدال القوة العضلية (الإنسانية والحيوانية) بقوة الإله.

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨٥ .

(٢) الفن توفلر : حضارة الموجة الثالثة ، ترجمة عصام الشيخ قاسم بيروت ١٩٩٠ ص ٢٠

والمرحلة من (١٨٥٠ - ١٩١٤) ورغم التطور الصناعى الذى واكب هذه الفترة إلا أن المؤسسات المالية باعتبارها مصدر التمويل لهذا القطاع ولغيره كان لها مركز الصدارة . فقد أصبحت العمود الفقرى للنظام الرأسمالى ، حيث نشطت بنوك الأعمال وأصدرت الأوراق المالية ومنحت القروض للدولة ورجال الصناعة وأصبحت الرأسمالية تعيش جزئياً من توصيف رأس المال أكثر من استثماره ، أى على ريع الأوراق المالية أكثر من ربح المشروعات الإنتاجية[1] .

أما المرحلة الرابعة فهى مرحلة ما بعد الصناعة أو الثورة التكنولوجية والتى بدأت معالمها تتبلور منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والتى سعت إلى استبدال الطاقة الذهنية باستعمال العقول الإلكترونية فى تسيير عملية الإنتاج من خلال التوسع السريع والدقيق فى إنتاج الوسائط المعلوماتية ، وفى هذه المرحلة المتقدمة من تطور النظام الرأسمالى تندرج العولمة باعتبارها مظاهر اقتصادية واجتماعية وسياسية لإنجازات علمية وتكنولوجية.

إن مراحل تطور الثورة الصناعية وثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات التى سبق إيضاحها، أساسها اختراع الحاسوب ومراحل تطوره الآتية :

مراحل تطور الحاسبات الإلكترونية :

١- ظهر الجيل الأول من الحاسبات (الكومبيوترات فى الفترة من ١٩٣٥-١٩٤٦) من خلال العلماء " جون مشلى " و " إيكارت " وجولد شبانى " وهو الحاسب Eniac ، ثم تكونت أول شركة لإنتاج الحاسبات على المستوى التجارى باسم Cenivac .

٢- ظهر الجيل الثانى من الحاسبات الإلكترونية فى أوائل الستينات بعد استخدام عناصر الترانزستور فى بناء دوائر الأجهزة الحاسبة كبديل لاستخدام الصمامات المفرغة Vaclum Tube .

---

(١) د. فؤاد مرسى :الرأسمالية تجدد نفسها :كتاب سلسلة عالم المعرفة عدد ١٤٧ ٢ المجلس الوطنى للفنون والثقافة والآداب ، الكويت ص ٢٣٤ .

٣ـ أدى استخــدام الــدوائر الإلكترونية Incegrated Cireuits إلى ظهــور الجيل الثالث من الحاسبات الإلكترونية فى عام ١٩٦٩.

٤ـ ظهر الجيل الرابع من الحاسبات خلال عقد السبعينات بعد أن تطورت الدوائر الإلكترونية المتكاملة بسرعة كبيرة، وبعد تطويع المواد فوق الموصلة وأشباه الموصلات الحرارية Semiconductor.

٥ـ وظهر الجيل الخامس فى بداية الثمانينات ويطلق عليه الحاسوب الشخصى Personai Computer وهو يتمتع لصغر الحجم، وسهولة التشغيل، والربط من خلال وسائل الاتصال العادية مثل التليفزيون والتلفون [(١)].

الإنترنت وثورة المعلومات وتكنولوجيا الأقمار الصناعية :

تكنولوجيا الأقمار الصناعية :

فاجأ الاتحاد السوفيتى العالم فى أكتوبر ١٩٥٧ بإطلاق أول قمر صناعى Sputnik وكان ذلك إيذانا بثورة الاتصالات الخامسة، وأصبح الاتصال عن طريق الأقمار الصناعية وتطورات الحاسبات الإلكترونية من أبرز سمات عصر المعلومات أو الانتقال إلى مرحلة ما بعد الثورة الصناعية التى تتسم بظهور المجتمعات ذات الاقتصاديات المبنية على تكنولوجيا المعلومات التى تشكل فيها نسبة عالية من إجمالى الدخل القومى، ويعمل بها نسبة كبيرة من حجم القوى العاملة وتعد المعلومات فيها مورداً ثابتاً ومتجدداً[(٢)].

أما استخدام الأقمار الصناعية فى مجال الاتصالات فقد بدأ فى ١٩٦٢/٧/١٠ حين شوهد برنامج تليفزيونى فى كل من أمريكا وفرنسا وبريطانيا فى وقت واحد، بعد أن بث أول قمر صناعى مستقر فى القضاء باسم " تلستار " Telestar الذى تم الاتصال به عن طريق إقامة هوائيات ضخمة فى شمال الولايات

---

(١) د.حسن عماد مكاوى تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى عصر المعلومات، الدار المصرية اللبنانية : الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٩٧ ص ٦٠ .

(٢) راسم الجمال ،الأقمار الصناعية ووظائفها الاتصالية، مكتبة الصباح، طبعة أولى ١٩٨٩ ص ١٧٥.

المتحدة ، مكنت القمر الصناعي من تكبير هذه الإشارات عشرة ملايين مرة قبل إعادة بثها إلى الأرض لتستقبلها هوائيات استقبال في كل من إنجلترا وفرنسا وأسندت هذه الخدمة التليفزيونية التجريبية لأقل من ساعة بسبب تحرك القمر الصناعي بعيداً عن خط النظر الوهمي الذي ترسل له الإشارات من الأرض وقد أدخلت تطويرات مستمرة في عقد الستينات على هذه التكنولوجيا واستغلت صناعة التليفزيون فرصة استخدام هذه التكنولوجيا حتى تم نقل وقائع الدورة الأولمبية التي أقيمت في طوكيو عام ١٩٦٤ إلى كل أنحاء العالم عبر القمر الاحتياطي تلستار الذي بشر ببداية عصر جديد للتليفزيون الدولي ، خاصة وأن إطلاق الأقمار الصناعية الأكثر تطوراً قد بدأ يتوالى ضمن سلسلة " انتلسات " التي أتاحت اتصالات دولية واسعة النطاق لتشمل نقل بيانات الحاسب الإلكتروني والاتصالات الهاتفية والراديو ومراقبة الطقس واستخدامات كثيرة أخرى (١).

وفي عام ١٩٦٧ تم إطلاق الجيل الثاني من أقمار " انتلسات " Intelsat فوق الباسفيكي والأطلنطي الذي حقق الاتصال مع ثلثي الكرة الأرضية .

أما الجيل الثالث بين عامي ١٩٦٨-١٩٧٠ والذي كان موقعه فوق المحيطين الهادي والهندي فقد سبق الاتصال بكل الكرة الأرضية . وقد أضيف إلى الاتصال الدولي عبر أقمار إنتلسات أقمار صناعية أخرى على مستوى إقليمي في كندا والهند وفرنسا والقمر الصناعي العربي الذي تم إطلاقه عام ١٩٨٥ ومجموعة من الأقمار الصناعية الأمريكية التي توجد في الولايات المتحدة في إطار وطني إقليمي.

البث التليفزيوني بواسطة الأقمار الصناعية:

تستخدم إحدى طريقتين في نقل البرامج التليفزيونية عبر الأقمار الصناعية الأولى :وتعتمد على نقل البرامج من موقع لموقع بحيث يتم الإرسال من مكان الاستقبال إلى مكان آخر ، مثل التقارير الإخبارية التي يتم إرسالها في إحدى الدول

---

(١) Arne, E Bryan Modern Telecom Mummification: N.Y: Plenum Press, - 1984 :P156.

الأوربية عن طريق وصلة صاعدة إلى القمر الصناعى ثم يرتد الاتصال من القمر الصناعى إلى أى مدينة عربية مثلاً حيث يمكن إما إذاعة التقرير على الهواء مباشرة أو تسجيله على أشرطة فيديو وإذاعته فى وقت لاحق.

وأما الطريقة الثانية لاستخدام الأقمار الصناعية فتعتمد على نقل البرامج إلى القمر الصناعى عبر المحطة الأرضية فى مكان ما ، ثم ترتد الإشارة من القمر الصناعى إلى منطقة جغرافية شاسعة بحيث يتم استقبالها بشكل مباشر من خلال العديد من أجهزة الاستقبال التليفزيونى فقط ، ويمكن أن يتم هذا الاستقبال من خلال محطات تليفزيونية تقدم نفس البرامج فى مواقع أو مدن مختلفة ، أو شبكات التليفزيون الكابلى التى تعيد توزيع الإشارات التليفزيونية على المستقبلين فى مناطق صغيرة نسبياً إو إلى التليفزيونات التى لديها هوائيات استقبال البث المباشر(١).

الإنترنت : أصول الفكرة وأهمية الدور :

ارتبطت الشبكة العنكبوتية كما يطلق عليها منذ بداية فكرتها بتكنولوجيا الأقمار الصناعية ، وكانت وكالة الفضاء والطيران الأمريكى " النازا " (Nasa) تراقب الأرض بتمعن ودقة وتفرد لها مبادرة خاصة هى مشروع الأرض " النازا " تجمع المعلومات عبر الأقمار الصناعية المختصة فى الرصد العلمي للكوكب ، وكذلك طائرات المسح والساحات الفضائية المختلفة (٢). وتساهم فيها الوكالة الوطنية الأمريكية حول المحيطات والغلاف الجوى Noaa أو " الناوا " وتختص مهمتها فى مراقبة المحيطات والغلاف الجوى وأحواض البحار، بكل ما تحويه من مكونات وأنواع الحياة فيها. أنطلق هذا الجهد منذ أكثر من ثلاثين عاماً تراكمت من خلالها أهرام ضخمة من المعلومات العلمية حول الكوكب وجسده ومياهه وحيوانه.

ويعيش هذا المشروع الآن منعطفات كبرى ، إذ تزمع " النازا " و " الناوا " على إطلاق أقمار اصطناعية مختصة فى المعلوماتية مهمتها بث المعلومات وتلقى ما

(١) Barden Robert and Hacker, Micheal Commuhication Technology, N Y : Delmar Publishers, Inc. 1990.

(٢) مجلة منبر الحوار : العدد ٣٧ شتا ١٩٩٩ ، بيروت ص ١١٥.

يستجد منها ووضعها فى تصرف العلماء والبحاثة عبر شبكات المعلوماتية العالمية وفى مقدمتها الإنترنت والطريق السريع للمعلومات.

يرجع أول تاريخ مدون لفكرة " التشبيك " أو إقامة شبكة اتصال بين كمبيوترات متباعدة إلى عام ١٩٦٢ حين وصف ليكلابدر فكرة الشبكة الكونية التى تربط كل كومبيوترات العالم بأنها الوسيلة التى ستتيح لكل منها الاتصال مع الآخر والاستفادة من كافة المعلومات فى كل الأجهزة.

وكان البنتاغون السباق فى تمويل الأبحاث التى جرت فى سرية تامة ابتداء من أول بحث نظرى حول نقل الحزم الرقمية Packets إلى أن وصلت إلى نقطة التحول النوعى فى الثقافة المعلوماتية التى أعقبها تحويل كل أنواع المعلومات الصور والأصوات والكلمات والأفلام والبيانات إلى اللغة الرقمية عبر البرمجة مما يعنى نقلها وتداولها بين كمبيوترات متباعدة على الأرض.

ولأن تمويل الأبحاث كان عسكرى فقد وضعت الشبكة لربط الكومبيوترات العسكرية الأساسية وخصوصاً تلك التى تتحكم فى الصواريخ العابرة للقارات والمشاريع النووية كما استخدمت كأداة لوصل مراكز حلف الناتو فى مختلف قارات الأرض ، كما تزايدت أهميتها مع مبادرة حرب النجوم وتحولت إلى شبكة واسعة الاتصالات العسكرية الاستراتيجية فباتت تعرف باسم الميلى نت [١].

ومع اقتراب الحرب الباردة من نهايتها ، ومع تزايد التداخل بين الأبحاث المدنية والعسكرية أصبحت حماية الـ " ميلى نت " صعبة فأنشأ البنتاغون شبكة خاصة، ووضع الـ " ميلى نت " قيد الاستعمالات المدنية ، وخصوصاً للربط بين كومبيوترات الجامعات ، ثم تحولت إلى شبكة عالمية ، وعند بداية انطلاقها كشبكة عالمية لم يكن فيها سوى ٥٠٠٠٠ موقع وصفحه. أما الآن وبحلول الألفية الثالثة فيقدر عدد المشتركين فى استخدام شبكة الإنترنت مائتى مليون مشترك [٢].

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٠

(٢) صحيفة لبيراسيون الفرنسية فى ١٩٩٦/٥/٢١

وكما احتكر البنتاغون خدمة الكومبيوتر للأعراض العسكرية لفترة طويلة فإنه قد عمل نفس الشئ مع الإنترنت فقد استخدم الجيش الأمريكى الكومبيوتر من قبل لحساب قوة قذائف المدفعية منذ أوائل الخمسينات [1]، واستخدم شبكة الإنترنت لربط الكومبيوترات الأساسية للتحكم فى الصواريخ العابرة للقارات .

وفى واقع الأمر أحدثت شبكة الإنترنت ثورة فى عالم الاتصالات والكومبيوتر فاق ما كان متخيلاً ، فهى تولد من الأثر العلمى والاجتماعى ما يفوق أى ابتكار علمى مفرد ، وكان اكتشاف التلغراف والراديو والتليفزيون والكومبيوتر قد مهد لظهور أداة تقنية تقوم على فكرة الربط بين كل هذه الابتكارات ، والحصول على إمكانية نوعية متأتية من اجتماع قدرات تلك الاكتشافات كلها ، عبر تطور علوم المعلوماتية .

وللتعرف أكثر على الإنترنت يكفى أن تشاهد على شاشة جهاز الكومبيوتر برنامج " موزاييك " الذى يعطى فكرة وافية عن حاضرها ومستقبلها . أنها مجموعة تضم ٧٠٠ جهاز كمبيوتر تعمل معاً فى خدمة "إنترنت" المسماه "وورلد وأيدوب" ، وهذه الكومبيوترات المدعوة أجهزة " وب القائدية " منتشرة فى سائر أنحاء العالم وتحتوى على أى نوع من البيانات . ولكن شبكة وب ، وبواسطة برامج معينة ، تمكن من التحول من جهاز إلى آخر دون بذل جهد كبير ، وقد يساور المستخدم شعور بأنه يستخدم جهاز كمبيوتر كبير واحد .

ويستطيع برنامج " موازييك " على سبيل المثال أن يصل المستخدم بباريس أو موسكو ويقوم بعرض أنواع عديدة فى المعلومات خرائط للشوارع وللمترو، وصور تمثل مشاهد فى المدينة، ومعروضات المتاحف وغيرها.

وبواسطة فأرة الكومبيوتر يمكن الانتقال إلى أجهزة تديرها مدارس وهيئات حكومية وغيرها من المؤسسات الحكومية فى باريس أو موسكو. وفيما إذا كان المستخدم بحاجة إلى التسوق ، فالبرنامج يضع تحت تصرفه ما يزيد على ٨٠٠ متجر ،

---

(١) فرانك كيلس :ثورة الإنفوميديا ، مصدر يابق ص ٢٤٧ .

كـل ذلـك وغـيره يجعـل مـن شبكة الإنترنت شبكة جماهيرية ومكان تجمع للمهندسين والهـواة (١)، كما يجعل منها فعالة للتجارة الإلكترونية، فقد انضمت إلى الشبكة أعداد مـن أكـبر الشـركات فـي الولايـات المتحدة وبلـغ عـدد الشركات والمؤسسات التي اشتركت فيها نحو ٢١٨٠٠ شركة ومؤسسة.

ويتضـاعف عـدد الكومبيوترات الـتي تـزود بالمعلومـات شـبكة "وب" كل عشـرة أيـام ، ويـأتي هـذا النوع غير العادي بعد مرور أقل من خمس سنوات على قيام باحـثين فـي مؤسسة قرب جنيف بتطوير شبكة " وب " وقد تم جمع الأرقام في نوفمبر ١٩٩٩ بواسـطة أنظمـة مؤقـتة استحدثها في مواقع المعلومات ، وأظهرت الأرقام أن "وب" تـنمو بنسـبة واحـد فـي المائـة يومياً ، وإذا استمر هذا المعدل فإن كل فرد على سـطح الأرض ستكون له صفحة خاصة في شبكة " وب " خلال أربع سنوات على ما يقول " مايتو غراي " الباحث في معهد ماساشوستش للتكنولوجيا.

ولأن الإنترنـت لا تعـرف حـدوداً جغرافـية فإن المشـتركين فيها ينتشـرون فـي ٧٥ بلـداً ويستطـيع مالكو الكومبـيوتر في ٧٧ بلداً آخر إرسـال وتلقـي بريد " إنترنت " الإلكتروني.

ومـا يجـدر الإشـارة إلـيه هـو أن أحداً لا يملك " إنترنت " وليست موجهة من قـبل أيـة شركة أو مؤسسة مستقلة ، وكانت النتيجة إنها أصبحت تشكل ظاهرة تقنية واجتماعية ، والآن تجارية وغدت مركزاً للتجديد حيث يختبر العلماء أفضل أفكارهم. ولكـن لـيس كـل مـن يكتـب عـبر الإنترنـت مؤلـف له مكانته العلمية ، ذلك لأن أي مسـتخدم للإنترنـت يسـتطيع أن يضـع نصوصـه عـلى " الـوب "(٢). دون الخضـوع لانـتقاء ناشـر أو لتقيـيم لجـنة علمـية ، ولهـذا لابـد مـن التعرف على مؤلف النصوص الإلكترونـية وتحديـد مكانـته ومكانـة ، المؤسسـة الـتي ينـتمي إليها، وهنا نلفت النظر إلى أن الـتأكد فـي حـال الوثـائق الإلكترونـية أصعب بكثير مما هو عليه في دور النشر

(١) أنطـون بطـرس:الإنترنـت شـبكة تحـتوي العالم، فـي كـتاب العربي :الكـتاب الأربعـون وحضـارة الحاسوب والإنترنت "الكويت" إبريل ٢٠٠٠ ص ١٧٦.

(٢) Patel Patrick - " Understanding the nature of the web" in Database Prorpemming and Design Jan 1998. Vol.11. P. 72 .

والتوزيع للوثائق المطبوعة حيث يتحمل الفرقاء كل في دوره مسئوليته في نشر وبث العمل .

توجد مواقع عديدة غير موقعة ، قد يكون بعضها بقرار سياسي لحماية حرية التعبير، أما القسم الأكبر فيتجاهل أبسط قواعد الأمانة العلمية ولا يوقع المضمون الذي يبث، وبالعكس فأفضل المواقع هي تلك التي تعرف بالمؤلف وبكفاءته العلمية وخبرته ومنشوراته العلمية الأخرى وكذلك المؤسسة العلمية الحاضنة له ، والسيرة الذاتية ، والمهم أن تحتوى أيضاً على رابط يوصل إلى صفحة الوب الخاصة بالمؤسسة الحاضنة .

وغالباً ما يرفق توقيع المؤلف عنوانه الإلكتروني ، وكذلك رقم هاتفه وعنوانه البريدي مما يفسح المجال لمناقشة المؤلف وإرساء علاقات تبادل علمي .

إن كل شئ مطبوع يمكن إدخاله في شبكة الإنترنت وهو ما يعني أن الولايات المتحدة تدخل أكثر من ٤٥ ألف كتاب والتي تصدرها كل سنة وأكثر من ١٥٠٠ صحيفة و ٣٧٠٠ دورية تتناول مختلف المجالات والقطاعات ، و ٢٥٠ دورية للمهندسين فقط ، وإضافة إلى إدخال ٤٠ ألف كتاب جديد تصدر سنوياً في اليابان .. الخ مما يجعل الإنترنت أكبر مكتبة في العالم.

وإذا ما لاحظنا كثافة ما ينشر على الإنترنت من إنتاج ثقافي غربي أو رأسمالي يأتي معظمه من الولايات المتحدة فإن هذه الشبكة الاتصالية التي أصبح في مقدورها الربط الفوري مع أي شبكة معلومات باستخدام جهاز الكومبيوتر ، مهما كانت قدراته ، وخط تليفون دولي ، وجهاز لتمويل الإشارات وغيرها تتم بطريقة إلكترونية دون تدخل بشري ، إضافة إلى انتفاء المسئولية عن ما يمكن إدخاله في هذه الشبكة بحكم عدم وجود مؤسسة تدعى إنترنت ، فإن القادرين ممن يمتلكون القوة المالية والتقانية والثقافية إضافة إلى القدرة والخبرة في صقل المعلومات والتي تأتي الولايات المتحدة على رأس هولاى القادرين أن يضيفوا ضغوطاً عولمية أخرى إلى تلك الضغوط والمؤثرات التي تحاول إقناع شباب العالم بنمط الحياة الأمريكية ، ولكن في جانبها الاستهلاكي والانحلالي ، التي تبثها وسائل الإعلام الأخرى وفي مقدمتها البث الفضائي الذي أصبح ينتشر ليغزو الكثير من بيوت سكان العالم حاملاً معه الطابع

الأمـريكى فـى الـتفكير والـنموذج الأمـريكى فـى الاقتصـاد ، والقـيم الأمريكـية فـى السياسـة وأخـلاق الـثقافة الأمريكـية والسينما الأمريكية بحيث يتم تعميمها على العـالم وفرضـها علـيه بالإغـراق والإغـراء والإلحاح والضغط الناعم والتسلل السريع [1]، ويـتفق جمـيع الخبراء فى مجال التقنية الاتصالية إنه إذا كانت الرقابة صعبة فى مجال البـث التلـيفزيونى القضـائى فـإن الـرقابة بهـدف الحـيلولة دون السـماح بالولوج إلى معلومات معينة على الشبكة أمر شبه مستحيل.

الإنترنت وجانبيها المظلم والمضئ :

أولاً : الجانب المضىء :

لا نسـتطيع فهـم طبـيعة الـدور الـذى تلعـبه شبكة الإنترنت فى حياة البشرية إلا إذا تخيلـنا الحجـم الـذى تداخلت به هذه الشبكة العالمية مع الحياة اليومية لإنسان الـيوم . وهذا ما يتضح إذا لاحظنا أن محتوى إنترنت يتناول كل مختلف جوانب الحياة. فهـناك المحتوى الأكاديمى (الجامعى) الذى تتولى تقديمه والإشراف عليه هيئات ومراكز جامعية وبحثية، وهـناك المحتوى الإعلامـى الـذى يشـمل وسـائل الإعـلام المخـتلفة ؛ مطـبوعة ومرئـية ومسـموعة ، من خلال نسخها لإلكترونية ،إضافة إلى المحتوى المتعلق بالحضـارة والفلسـفة والأديان، وهى مجالات تطرح بكثرة فى الإنترنت ، حيث توجد مواقـع ومنـتديات لكـل المذاهـب الدينـية والفلسـفية بمـا فيها الديانات غير السماوية كالـبوذية والهندوسـية والكونفوشـية وغيرهـا مـن الديانـات والفلسـفات الموجـودة فـى العـالم والـتى يمكـن للإنسـان أن يطلع عليها من خلال شبكة الإنترنت كما توجد مواقـع فـى الإنترنـت ، لمـواد عينية ومتنوعة لإشباع الهوايات وتوفير المعلومات لهواة السفر والسياحة. كما يستطيع المستخدم الحصول على المحتوى العلمى غير الأكاديمى فـى كـثير من الموضوعات المتعددة التى تنشرها الصحف والمجلات والدوريات وسواء كـان ذلـك فـى عـلم الحـياة أو الكيمياء أو استكشاف الفضاء والرياضة بكل أنواعها والـتعرف علـيها من حيث علم الألعاب نفسها أو أخبارها أو منتدبات الحوار حولها ، كمـا توجـد مواقع تقدم معلومات متكاملة عن شبكة إنترنت نفسها وارتباطها وكيفية الـتحول فـيها ، غـير أن أكـثف المحتويات فى إنترنت الآن هو المحتوى التجارى المرتبط

(١) الأهرام ٢٤/٤/٢٠٠٠

بقطاع الأعمال ، ويستخدم من قبل الشركات والمؤسسات التجارية ، ولجميع الأغراض التسويقية ، وهناك الكثير من المجالات المستجدة لمحتويات مبتكرة كالتلفزة عبر الشبكة ، والجامعات الإلكترونية، والنقود الإلكترونية وغيرها .

لقد مثلت الإنترنت قمة التطور النقدى والمعلوماتى الذى لا يستطيع أن يراجع أى إنسان أو أى فئة أو شعب ضد هذا التطور الكبير ، الذى يبشر بمستقبل جديد على مستوى الإنجاز المادى والتقدم والتحكم فى المجالات الصناعية والعلمية والتكنولوجية [(١)].

لقد أصبحت شبكة الإنترنت " قوة تجارية أكثر حرية ، وهى تزيد من فهمنا بأن التبادل وليس الاكتفاء الذاتى - هو الذى يجلب القيمة ، واكتسبت الإنترنت سلطانها من كونها متاحة لجميع الأطراف ، والانقطاع عن الشبكة يحصر الشخص على جهاز الكمبيوتر الخاص به فقط ، مثلما تجعل القيود التجارية دولة ما محصورة بمواردها الذاتية وتحافظ على الفقر بها. ويعتقد البعض أن بعثاً جديداً للحياة قد أوجدته التكنولوجيات الرقمية وخلقت مفهوم المبادرة التجارية عن طريق بروز طبقة كبيرة من أصحاب المبادرات التجارية الشبان كاشفة لهم عن أنهم هم أنفسهم وليس العمليات التى تديرها الحكومة أو استراتيجيات التنمية التى تنفذها السلطة المركزية الذين يجلبون الثروة ،إذ أصبح من الممكن أن يقتنى شاب أو شابة جهاز تليفون محمول ويبدأ فى إقامة مشروع تجارى خدمى ، يقدم مثلاً خدمات تليفونية لسكان قرية بكاملها، كما يمكن لخريج جامعى عاطل فى دولة فقيرة أن يصنع تصميمات ويبيعها عبر الإنترنت لشركة غربية ، وبالتالى لم ينتظر أى منهما مجيء رجل ثرى لإنشاء مصنع كانا سيكافحان من أجل أن يحصلا على وظيفة لديه [(٢)].

هذا ما يطرحه البعض فى إطار الجانب المضىء فى خدمات الإنترنت وفى اعتقادى بأن مثل هذا المثال لا ينطبق إلا على القلة النادرة من الشباب الجامعى فى الدول الفقيرة ، ولو اشتغل معظم الشباب بهذا المشروع أو ذاك على غرار ما ورد

---

(١) د. حسام الخطيب : أى أفق للثقافة الوبية وأدبها فى عصر الاتصال والعولمة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٢٨ العدد (٢) أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٩ الكويت ص ٢٢٣.

(٢) الأهرام ٥/٤/٢٠٠٠

فى المثال ، فإن بطالة جديدة وإفلاسات وكساد سيفرزه التنافس وتكاثر المشروعات ذات الاتجاه الواحد .. الخ .

ثانيًا : الجانب المظلم :

تبرز فى الجانب المظلم ، بشكل رئيسى معضلة ما يسمى بالمحتوى المتطرف وهو المحتوى الذى يتوزع على مجالين : أخلاقي واجتماعي وسياسى وفى الحالين نكون بحاجة إلى إيجاد الردع والحماية وبغض النظر عن الإمكانيات التقنية المتوافرة لمثل هذا المحتوى ، إلا أنها غير كافية وتصادف فى طريقها بعض الصعوبات ، الأمر الذى يتطلب إيجاد آليات فعالة تحقق عنصر الردع لحماية المجتمع والأجيال الشابة ، وقد تكون أنجح وأفضل آلة فى هذا الصدد هو الرادع التربوى الوقائى ، ذلك لأن استخدام وسائل الحماية التقنية ، إذا تم اجتيازه ، فهو سينحصر فى منع بعض المحتوى دون أن يتجاوزه إلى محاولة تجبير الأمر لمنع الشبكة نفسها ، أو جزء من إيجابياتها .

وصحيح إننا نستطيع عن طريق الإنترنت محاورة رئيس دولة مباشرة فى الفضاء التخيلى ، ونستطيع فى نفس الوقت التحاور مع أحد أصحاب المليارات ، ولكن هل بهذا نكون قد حققنا نوع جديد من المساواة ؟ والجواب حتماً سيكون بالنفى ، لأن ما يتم هو تجسيد معرفى للفجوات أكثر منه إزالة تناقضية للطبقات والثقافات والحضارات ، بما لا يمكن أن تتجه الممارسة السياسية المجردة (١).

إن الإنترنت والكومبيوتر وغيرهما من تكنولوجيا الاتصال ووسائل صناعة المعرفة تزيد الفجوة بين الأغنياء والفقراء من حيث قدرة الأغنياء على حيازتها والتعامل معها من خلال آليات تحقق لهم أرباحاً خرافية تصل إلى عشرات المليارات فى العام الواحد مثال: بيل جيتس مالك شركة ميكروسفت الذى بلغت أرباح شركته فى عام ١٩٩٩ (٥٦) مليار دولار بينما يفقد الكثير من العمال الفقراء أو المنتمين إلى الطبقة الوسطى وظائفهم فيزداد الفقراء فقراً وينحدر أصحاب الطبقة المتوسطة بسرعة إلى صفوف الطبقة الفقيرة ، وفى هذا الصدد سأورد مثال على خبر تناقلته وسائل الإعلام يقول: " إن البنوك البريطانية الكبرى تغلق فروعها بسبب اعتماد

(١)جهاد عبد الله ، الدور الحضارى للإنترنت، فى كتاب العربى ، مصدر سابق ص ١٨٤.

العمـلاء على الإنترنت ، فقد أغلق بنك ماركليز بلندن المزيد من الفروع بعد أن أغلق يـوم الجمعـة ١٢/٤/٢٠٠٠ (١٧١) فـرعاً وقـال: " جـون فـارلى " مديـر الأنشـطة المصـرفية الصـغيرة للبـنك بـأن ١٣٠٠٠٠٠ (ملـيون وثلاثمائة ألف عميل) أصبحوا يسـتخدمون الهـاتف والإنترنـت فى التعامل مع حساباتهم به [1]. فالإنترنت جيدة لكـنها لا توفـر كـيس أرز أو كوب ماء . وهـذا عنوان فى مجلة " لابل الفرنسية " فقد وجـه خـبيران دولـيان انـتقادات حادة لشبكة الإنترنت فى مقالين نشرتهما هذه المجلة الـتى تصـدرها وزارة الشـئون الخارجية الفرنسـية.. وكتـب فيليب كيبو ، مدير قسم المعلومـات والمعلوماتـية باليونسـكو ، إن " الإنترنت " تجسيد لفكرة لابديل عنها وهى ببسـاطة إتاحـة الإعـلام للجمـيع، ولكـن مـثل هـذه الفكـرة غـير كافية لأن الإنترنت لا توفـر المـياه الصـالحة للشـرب ولا أكياس الأرز، واليوم لا يستفيد من تلك الشبكة إلا مـن يملكـون كـل شـئ، وأكـد ضـرورة أن نفهـم جـيداً طبيعة القوى التى تشكل الهياكل الأساسـية لعـالم الإنترنـت ، وقـال : " الحقـيقة إن تلـك الشـبكة مركزة على الولايـات المـتحدة ، وهـذه الظاهـرة تـتفاقم بـدلاً من أن تتراجع ، فالشركات الثلاث عشر الأولى على نطاق العالم التى تتيح الدخول إلى شبكة الإنترنت كلها أمريكـية ".

وهـنا أتوقـف عـند مقولـة الشـركات الـتى تتيح الدخول إلى شبكة الإنترنت وهى كلها أمريكية ، وهو ما يعنى وجود سيطرة وتحكم وامتلاك ينفى ما ورد فى كثير مـن المصـادر والمقـولات الـتى تؤكـد عـلى عـدم وجـود عـنوان لهذه الشبكة أو مالك يديـرها ، فـتحكم الولايـات المـتحدة فـى الدخـول إلى الشبكة يعنى استخدامها كآلية هامة للغاية فى إدارة وتوجيه العالم إلى طريق العولمة الأمريكية .

ويرى " دومنيك وولتون " مدير معمل الاتصال والسياسة فى المركز الوطنى للأبحـاث العلمـية CNRS فـى مقالـه : إن الإنترنـت ثـورة تقنـية تفـتقر إلى مشـروع اجـتماعى وثقـافى ، ويؤكـد إنه إذا كان العالم أصبح قرية شاملة على الصعيد التقنى ، فهـو لا يعتـبر كذلك على الصعيد الاجتماعى والثقافى ولن يصبح أبداً ، ويقول :"بل

(١) الأهرام ١٣/٤/٢٠٠٠

أننا نجد أن الذى يتحقق هو التحدى المعاكس ، فكلما ألغيت المسافات ، كلما ظهر بسهولة ما يفصل بين الثقافات والحضارات والأنظمة الفلسفية والسياسية وأحتجنا لبذل المزيد للتسامح مع الآخر.

وفى اعتقادنا أن الكاتب من خلال كلمته " احتياجنا " إلى التسامح مع الآخر، يوجه تحذيراته من قيام ثورات واضطرابات وربما تغيير نظم وأيديولوجيات من جراء وُضوح الفوارق في مستوى المعيشة بين الأغنياء والفقراء وهى فوارق شاسعة عمقتها ثورة المعلومات وصناعة المعرفة التى أصبح الفقير يراها ويسمع عنها دون أن ينال من خير هامشى ، الأمر الذى يولد الحقد الطبقي الذى غالباً ما تكون نتائجه الاضطرابات العالمية أو الثورة ضد إمبريالية العولمة المستغلة ، وإن بطريقة أكثر مرونة وديمقراطية من تلك الثورة التى حدثت فى روسيا عام ١٩١٧ من القرن الماضى. وكما أنتجت الإمبريالية الاحتكارية ، الثورة البولشفية وأخرجت أي الإمبريالية من رحمها حربين إمبرياليتين عالميتين فإن ظلم الإمبريالية العولمية ستنتج لدى شعوب العالم الثالث أفكار ومفاهيم تقودهم إلى ضرورة التخلص من وضعهم المزرى والمهين عاجلاً أم آجلاً، إما بإرغام الغرب على النزول عند مطالب هذه الشعوب المقهورة وإما بثورة عارمة تحرق كل مصالح الغرب فى هذا العالم وينتقل العالم إلى مرحلة ما بعد العولمة ، والتى لا نعرف لها شكلاً أو هوية . وإذا كان دافيد هوب " أسقف يورك البريطانى قد أطلق تحذيره من أن شبكة الإنترنت قد تصبح أداة للشر " وأن سحر الكومبيوتر سيوجد مجتمعاً بلا روح ، وأضاف فى تصريحاته إلى صحيفة التايمز البريطانية فى منتصف إبريل ٢٠٠٠ أن تكنولوجيا الكومبيوتر والإنترنت يمكن أن تلتهم وتبدد قدرات الخلق والإبداع فى الإنسان ، فحذر من أن هاتين الوسيلتين قد تساهمان مع غيرهما من وسائل العولمة فى تبديد حياة الإنسان فى العالم المتخلف وتسلب ما تبقى له من مقومات بقائه على قيد الحياة .

وإذا كان القس هذا يبدى تخوفه من أن الإنترنت يمكن أن تحد من مستويات التفاعل بين البشر ، مادام الناس لا يجدون سبباً كافياً للخروج من منازلهم ، وأنه

يخشى أن يأتى اليوم الذى يجلس فيه الشعب كله أمام الكومبيوتر ويدير شئون حياته بالضغط على زر" أو بتحريك الماوس ، فإن ما نخشاه نحن هو تجميد التفاعل الإنسانى وحركة البشر فى معظم دول آسيا وفى أفريقيا وأمريكا اللاتينية بسبب الفقر والجوع والأمراض الفتاكة مثل الملاريا التى تفتك بمليون إنسان فى أفريقيا سنوياً وأكثر من مليون يموتون من مرض الإيدز ونخشى أن لا توجد يد قادرة على تحريك الماوس بسبب الرعاش والقشعريرة والخمول الناتجة عن تلك الأمراض.

إذن ثورة المعلومات والاتصالات هى أم العولمة أو روحها وعمودها الفقرى إذا ما صرفنا النظر عن العامل الآخر المتمثل فى غياب الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية وهو عامل مهم للغاية فبدونه ما كان للولايات المتحدة أن تطلع علينا منذ بداية عقد التسعينات من القرن الماضى بنظريات وإطروحات جديدة من نوع نهاية التاريخ ، وصراع الحضارات ، ثم العولمة ، وهى أطروحات تستهدف السيطرة الرأسمالية بعد أن حققت مكاسبها فى مجالات عديدة أهمها المجال الاقتصادى.

الفصل الرابع

العولمة الاقتصادية واتفاقية الجات

بات واضحاً أن العولمة حالة انتقال إلى مرحلة القطبية الاقتصادية ، أحادية الجانب فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفرد الولايات المتحدة بمقاليد السلطة السياسية العالمية بعد أن أرهبت العالم بقوتها العسكرية ذات التقنية العالية التي برزت كقوة لا تضاهيها قوة في حرب عاصفة الصحراء ضد العراق . ومع ذلك تبين للجميع إن النفوذ السياسي أو الأيدلوجي والقدرات العسكرية وحدها ليست ضمانة ، فهذه الأشياء جميعاً لم تحمي الاتحاد السوفيتي من الانهيار التام بعد أن كان قوة عظمى سبق الولايات المتحدة والغرب في مجالات كثيرة كان في مقدمتها مجال التكنولوجيا التي حققت السبق في غزو القضاء الخارجي ، في حين أن القدرات الاقتصادية وحدها رفعت دولاً مثل اليابان وألمانيا إلى مصاف القوى الدولية التي تتمتع بالمهابة والنفوذ بقدراتهما الاقتصادية ، بعد أن خرجتا من الحرب العالمية الثانية وهما في حالة انهيار تام ، وقد برزت إلى جوارهما قوى اقتصادية أصغر مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية ودول أخرى آسيوية قبل الأزمة التي هزت أركان جنوب شرق آسيا والذي شارك فيها عزرائيل الاقتصاد [1]، كما يطلق عليه البعض "جورج شورس " اليهودي الأمريكي المجري الأصل والذي اكتسب شهرته الواسعة عام ١٩٩٢ عندما أخذ يبيع الجنيه الإسترليني بمئات الملايين ويشتري بها المارك الألماني مما جعل الجهات المسئولة عن المال في إنجلترا عاجزة عن المحافظة على هيبة الجنيه الإسترليني وتركته يتهاوى ، وعندما وصل إلى أدنى مستوياته في الصرف أمام العملات الأخرى ، تحول المضارب شورس إلى بيع المارك وشراء الجنيه الإسترليني ليجني من وراء هذه العملية وحدها مليار وثلاثمائة مليون دولار، ويجعل إنجلترا وهي إحدى أقطاب الرأسمالية المتطورة أن تضطر إلى مراجعة سياستها النقدية الأوربية والخروج من منظومتها . ويعترف سورس

---

(١) خالد محمد بهاء الدين : على الجميع أن يكونوا حسب المواصفات الأمريكية : مجلة المعرفة العدد (٥١) ورابط المعارف السعودية : الرياض سبتمبر ١٩٩٩ ص ١١٩

بتحركه عام ١٩٨٧ ضد ألين اليابانى وأشعل أزمات مالية خطيرة فى روسيا أدت إلى تدهور كبير فى أسعار العملة الروسية (الروبل) [١].

ومع التصاعد المستمر فى الدعوة إلى عولمة التجارة والجهود المتزايدة التى تمارسها قوة التبشير الأمريكية والصناديق والمنظمات الدولية أمام مختلف بدائل السلعة الواحدة ، بدت غريبة فى الأيام الأخيرة هذه الحملة التى تنفذها قطاعات مهمة ومؤثرة فى الولايات المتحدة تحت شعار " أتشترى البضاعة الأمريكية " وتقف وراء هذه الحملة شركات أمريكية قوية كما يقف أيضاً أكاديميون وأعضاء فى الكونجرس وإدارة كلينتون نفسها التى أعلنت اعتراضها على اقتراحاً تقدم به البنك الدولى بزيادة صادرات العالم الثالث خشية أن يلحق ذلك الضرر بجهود الرئيس بيل كلينتون فى حقل التجارة العالمية خاصة مع الصين [٢]، وكان اقتراح البنك سيسمح لعدد من أفقر دول العالم فى أفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية ببيع سلع للولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى دون فرض تعريفات جمركية أو رسوم استيراد عليها ، وكان يمكن لهذا الاقتراح فى حالة تنفيذه أن يوفر دعماً كبيراً للدول النامية يتجاوز محاولات كلينتون بإقناع الكونجرس بإعفاء تلك الدول من الديون . وتجدر الإشارة إلى وجود معارضة شديدة فى الكونجرس لإلغاء التعريفات الجمركية أو الحصص التى تحمى الصناعات الأمريكية من الصناعات الأقل تكلفة الواردة من الخارج (من العالم الثالث)، وذلك على الرغم من الدعوة التى ترددها الإدارة الأمريكية ليلاً ونهاراً والضغوط التى تمارسها من أجل تحقيق الانفتاح الاقتصادى العالمى والاندماج فيه ، خاصة عبر التجارة الحرة التى تمثل مع الانفتاح حسب رأى الداعين إلى العولمة السبيل الأفضل للتطور والتقدم الاقتصادى [٣].

وفى الوقت الذى تدعو فيه العولمة الأمريكية إلى إطلاق حرية السوق والمنافسة فإنها تفرض قيوداً على سياسة الاحتكار داخل الولايات المتحدة ، ويدعو الرئيس كلينتون فى هذا الصدد إلى الاستفادة الجماعية من الإمكانيات الهائلة للكومبيوتر والإنترنت فى إشارة إلى احتكار شركة " ميكروسوفت " للبرمجيات والتى

---

(١) أخبار اليوم ١٩٩٩/١/٣٠.

(٢)صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية ٢٠٠٠/٤/١٠ .

(٣)الأهرام ٢٠٠٠/٤/١١ .

أصبحت مهددة بتفكيكها إلى ثلاث شركات بحكم صادر عن المحكمة التجارية الأمريكية وتأييد الحكومة ووزارة العدل الأمريكية و ١٩ ولاية لقرار المحكمة ، الأمر الذى أدى إلى هبوط مؤشر الشركات التقنية المعلوماتية إلى أدنى مستوى له ٣٠٠٠ نقطة وخسرت ميكروسوفت ٧٢ مليار فى يوم ٢٥/٤/٢٠٠٠ بعد أن كان قد وصل إلى مستوى عال أذهل المتعاملين فى البورصات عندما تجاوز خمسة آلاف قبل عرض قضية ميكروسفت على المحكمة[١] .

نستنتج من هذه الأمثلة وغيرها التناقص الشديد بينما تدعو إليه العولمة نظرياً وبين مواقف دعاتها عندما تتكشف ردود الفعل كالدعوة فى بعض الحالات إلى فتح منافذ صغيرة للسلع القادمة من الدول الفقيرة تطبيقاً لمبدأ الانفتاح وسياسة السوق الحرة التى هى أهم مبادئ وسياسة العولمة المعلنة .بغض النظر عما ستلحقه من أضرار بفقراء الناس فى العالم المتقدم ناهيك عن دول العالم الثالث وفى قلبها الدول العربية .

ففى الولايات المتحدة كما فى اليابان وفرنسا وبريطانيا وكثير من دول العالم قطاعات من الناس والمصالح متضررة من التوسع فى تطبيق مبدأ حرية التجارة ورفع الحواجز الجمركية . وفى الولايات المتحدة نفسها كما فى غيرها ، قطاعات أخرى مستفيدة من هذا التوسع ويتصدرها نخب العولمة ، مثل النخب العاملة فى قطاع الاستثمار وفى الأوراق المالية والنخب المرتبطة بالمؤسسات الاقتصادية الدولية والشركات متعددة الجنسية ، وسيستفيد أيضاً المستهلك الذى سيدفع أقل فى السلعة التى يحتاجها ، والمفترض هنا ، ألا يهتم المستهلك بمحل نشأة السلعة ، أى جنسيتها ، بل لأنه الشرط الأهم لنجاح سياسة الأسواق المفتوحة ألا يكون المشترى وطنياً ، أى يتخذ قراره فى الاختيار بين مختلف بدائل السلعة نفسها دون أن يضع فى اعتباره إن كان البديل . صناعة وطنية أو مستوردة والسؤال الذى يطرح نفسه هو ما مدى الصدق والأمانة فى الدعوى العولمية ، هل هى نوع من الميكافلية الأمريكية لاستخدام قوتها ونفوذها فى السيطرة على العالم اقتصادياً وثقافياً وسياسياً، بواسطة شركاتها العملاقة متعددة الجنسية والتى أصبحت تشكل خطراً وشراً مستطيراً على قطاعات واسعة من الناس فى الدول الرأسمالية المتقدمة وفى الولايات المتحدة ذاتها، وقد برزت هذه القطاعات

---

(١) أخبار قناة الجزية ، ٢٦/٤/٢٠٠٠ .

من خلال الحشد الجماهيرى الذى اجتاح مدينة سياتل الأمريكية فى مظاهرات عارمة أفشلت مؤتمر منظمة التجارة العالمية فى ديسمبر ١٩٩٩م أم أنها ستحقق فرص التقدم والرخاء لجميع سكان المعمورة حسب ما يروح له ".

لقد حددت مظاهرة سياتل وجنيف المناهضة لمنظمة التجارة العالمية ، من أن الرعب الغذائى سمت العصر القائم سيكون أكثر خطراً من الرعب النووى . لقد اكتظت شوارع سياتل وجنيف ومدن غربية أخرى بملايين الناس من العمال والفلاحين والمدرسين ومن مختلف الطبقات فى وجدة أممية بعد توافدهم من مختلف بلدان العالم رفعت شعاراً صريحاً تتهم فيه الولايات المتحدة بأنها تسعى إلى السيطرة على العالم وتكريس استعمارها للشعوب.

وكان عدد من السياسيين ورجال الفكر والاقتصاد الأوروبى والأمريكى قد تقدموا المظاهرات ومن ضمنهم المفكر السويسرى المعروف " جون زيجلر " الذى انضم إلى مظاهرة جنيف بعد عودته من قمة أفريقيا الغربية التى ختمت " دوله والمعروفة بالقمة المناهضة للتجارة العالمية . وحذر زيجلر من حالة الانتحار الصامت التى يعيشها العالم الثالث فى الصبغة الاستعمارية الجديدة التى تمارسها منظمة التجارة العالمية [1]، وتحت غطاء الرأسمالية ، وقال إن العالم بحاجة إلى صحوة ضمير قوية تضع حداً لحالة العمى التى يعيشها الرأسماليون الذين يسيرون ضد مصالحهم بإهمالهم لأفريقيا السوداء والدول الفقيرة فى العالم النامى سيؤدى هذا الإهمال وهذا الاستغلال إلى هدم كيانات هذه الدول وتساءل " بدون هذه الكيانات ماذا سيصنع الرأسماليون ؟ لاشك أن الأمر سيتحول إلى كارثة لأننا بدون مطار لا يمكن أن نهبط وبدون وزارات لن نعرف مع من نتفاوض . وتناقلت حديثه هذا وكالات الأنباء والصحف السويسرية وأضاف" ينبغى أن يعرف الجميع أن ٧٢٪ من التجارة العالمية تتحكم فيها ٢٠٠ شركة متعددة الجنسية " (عابرة للقارات) .

وفى اعتقادى أن ما حدث فى سياتل يشير إلى حالة الغضب العارم الذى يجتاح العالم من السياسة الأمريكية المتعجرفة ومن فرضها بالقوة نظام العولمة الذى يجعل العالم بما فيه أوربا واليابان تحت رحمتها وهيمنتها المطلقة .

---

(١) الأهرام ١٩٩٩/١٢/١

وصحيح إن سياسة الاستعباد والاستغلال المفروضة على كثير من دول العالم الثالث ومنها الدول العربية لا تنطبق على الدول الرأسمالية المتقدمة ، إلا أن ذلك لا يمنع الولايات المتحدة من جعل هذه الدول تابعة لها ترضخ لإرادتها فى ظل النظام العالمى الجديد أحادى القطبية . فقد تجلت التبعية الأوربية واليابانية عسكرياً وسياسياً ابتداء من حرب الخليج الثانية ومؤتمر مدريد ثم حرب البوسنة والهرسك وأخيراً حرب كوسوفا وظهرت التبعية الاقتصادية بشكل جلى من خلال الرضوخ لاتفاقية الجات التى دار صراع مرير بين الجانبين بشأنها ولسيما فى موضوع تحرير الزراعة[1] ورفع الدعم عن المزارعين الأوربيين والذى لا يزال محل خلاف حتى الآن .

الجات وتحولات عقد التسعينات

شهد العالم خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٩١ أي فى بداية حقبة التسعينات العديد من المؤتمرات الاقتصادية الهامة والوثيقة الصلة بترتيبات تكوين النظام العالمى الجديد والتى تعد الأساس فى إحداث المتغيرات الاقتصادية فى العالم أجمع وأن لم تحظ بالضجة الإعلامية الكافية فقد خطف منها الأضواء والاهتمامات الصحفية مؤتمر ما سمى بإحلال السلام في الشرق الأوسط والذى عقد فى العاصمة الأسبانية " مدريد " فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩١.

وشهد عام ١٩٩٤ نهاية جولة أوروجواى [2] للدول المنضمة لـ " الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات الجمركية - جات التى بدأت فى ٢٠ سبتمبر ١٩٨٦ وانتهت فى منتصف ديسمبر ١٩٩٤ باتفاق الدول الأعضاء على عدد هام من القضايا المرتبطة بتحرير التجارة الدولية ، الأمر الذى يجعلها من أهم المتغيرات الاقتصادية العالمية فى العصر الحديث.

---

(١)إبراهيم العيسوى فى ندوة (مؤتمر منظمة التجارة العالمية فى سياتل فى ٢٠٠٠/١/٥) ، المستقبل العربى ، العدد ٢٥٦ ، يونيه ٢٠٠٠ ، ص ١١٨ .

(٢) إبراهيم نوار :الأثار المتوقعة لتحرير التجارة العالمية (الجات)على اقتصاديات الدول العربية: مجلة الباحث العربى عن مركز الدراسات العربية ، لندن، العدد ٣٥ مارس ، يونيو ١٩٩٤.

ولا يمكن النظر إلى المفاوضات التى جرت فى إطار الـ" جات " دون الإشارة إلى التأثيرات الحاسمة للتغيرات العاصفة فى المناخ والنظام الدوليين فى التسعينات والتى أثرت على مسار تلك المفاوضات وعلى فرص نجاحها ومن هذه التطورات الأكثر أهمية على الصعيد الدولى الآتى :

(أ) انتهاء الحرب الباردة وسقوط نظام القطبية الثنائية بعد انهيار وتفكك الاتحاد[١] السوفيتى السابق - وبهذين الحدثين انتفت مبررات التساهل فى العلاقات الاقتصادية الدولية وانتهت مرحلة تجاهل الدول الكبرى للتجاوزات الاقتصادية والتجارية والتى تقوم بها بعض الدول المرتبطة بها سياسياً . وبدأت الدول الرأسمالية عالية التطور تطرح وبقوة قضايا الإغراق وحقوق الملكية الفكرية والتجارة العادلة [٢] والفتح المتبادل للأسواق فى إطار المفاوضات الاقتصادية الثنائية وأيضاً فى إطار الجات مما حول غالبية الدول النامية إلى مجرد مراقب عليه أن يوافق على نتائج مفاوضات الكبار فى إطار هذه المنظمة[٣] .

(ب) وكان التطور الثانى والهام فى العلاقات الاقتصادية الدولية والذى أثر على مفاوضات الجات كأهم متغير اقتصادى عالمى معاصر هو تزايد تماسك التكتلات الاقتصادية الموجودة فعلاً وظهور تكتلات اقتصادية جديدة. هذا التزايد فى الاندماج الإقليمى فى إطار التكتلات الاقتصادية الإقليمية استوجب ضرورة وضع أسس لعلاقات اقتصادية دولية مفتوحة حتى لا تدخل هذه التكتلات فى صراعات تجارية واقتصادية تضر بمصالح الجميع.

أما أهم المتغيرات الاقتصادية على الصعيد الإقليمى فى منطقة الوطن العربى فهو ممارسة الضغوط الأمريكية على دول مجلس التعاون الخليجى بإيقاف انتهاء المقاطعة العربية الخليجية لإسرائيل من الدرجة الثانية والثالثة قبل ظهور بوادر حسن النية فى المضى فى طريق السلام لإنهاء المقاطعة العربية / الاقتصادية لإسرائيل والسماح لها بالاستفادة من الاستثمارات والتجارة العربية والتى كان لاتفاق غزة أريحا الفلسطينى الإسرائيلى الأثر البالغ فى دفع الجهود المبذولة أمريكياً وصهيونياً منذ

---

(١) فريد هاليداى الباحث العربى عدد ٤٣، ص١٤.

(٢) الأهرام ١٩٩٥/١/٢١.

(٣) الحياة ١٩٩٧/٢/١٨.

فترة طويلة من أجل إنهاء المقاطعة العربية لإسرائيل وما يترتب عليها من تغيرات اقتصادية إقليمية تواكب المتغيرات الاقتصادية لهذه التحولات الخطيرة في مطلع القرن الواحد والعشرين والتي تبدأ بمفعول سريان اتفاقية الجات التي وصلت إلى التوقيع النهائي عليها في يناير ١٩٦٥ ويتم تطبيقها نهائياً بحلول عام ٢٠٠٥.

تحرير تجارة السلع الزراعية (في إطار الجات):

يمكن القول أنه تم الاتفاق على إجراء خفض تدريجي بنسبة ٣٦٪ في الرسوم الجمركية على السلع الزراعية والدعم المقدم لتصديرها وهو ما يعني أن الولايات المتحدة قد حققت أهدافها في هذا الصدد على حساب المعارضة العنيدة من فرنسا واليابان وكوريا الجنوبية وهي الدول التي عارضت ولكنها اضطرت في النهاية لقبول المطالب الأمريكية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة قامت بتصدير نحو ٨٧,٧ مليون طن من الجنوب عام ٩٢/٩١ ما يوازي ٤٠,٧٪ من إجمالي صادرات الجنوب الدولية في ذلك العام والبالغة ٢١٥,٣ مليون طن كما أشارت تقديرات منظمة الأغذية الزراعية العالمية (فاو) إلا أن الصادرات الأمريكية من الحبوب بلغت ٩٢,٤ مليون طن عام ٩٣/٩٢ بما يوازي ٤٦٪ من إجمالي صادرات الحبوب الدولية في ذلك العام والبالغ ٢٠٠,٨مليون طن.

في المقابل فإن صادرات دول الاتحاد الأوربي من الحبوب بلغت ٢٨,٤ مليون طن عام ٩٢/٩١ بما يوازي ١٣,٢٪ من إجمالي صادرات الحبوب الدولية وارتفعت تلك الصادرات إلى ٣٠,٧ مليون طن عام ٩٣/٩٢ ما يوازي نحو ١٥,٣٪ من صادرات الحبوب الدولية في نفس العام.

وكان الدعم الذي يحصل عليه المزارعون الأوربيون يبلغ نحو ٣٤ مليار دولار سنوياً مقابل ٨,٤ مليار دولار يحصل عليها المزارعون الأمريكيون سنوياً ونظراً لأن الإنتاج الزراعي الأمريكي يزيد عن ضعف نظيره الأوربي فإن معدل دعم المنتجات الزراعية الأوربية يزيد عدة أضعاف على معدل الدعم الأمريكي للسلع الزراعية حيث يبلغ نصيب المزارع الأوربي من الدعم الحكومي ٣٣٣٠ دولار

سنوياً[1] " عدد المزارعين فى أوربا ١١ مليون مزارع " فى حين يبلغ نصيب المزارع الأمريكى من الدعم الحكومى نحو ٤٢٠٠ دولار سنوياً " عـدد المزارعين فى أمريكا ٢ مليون مزارع " ويعود ذلك لارتفاع نصيب المزارع الأمريكى من الأرض بالمقارنة بنظيرة الأوربى وإلى تطور مستوى الميكنة ووسائل الإنتاج اللازمة للزراعة فى الولايات المتحدة الأمريكية مقارنة بأوروبا.

تحرير تجارة السلع الصناعية " فى إطار الجات " :

تم الاتفاق بالفعل على خفض الرسوم الجمركية بنسبة ٣٣٪ على عدد هائل من السلع الصناعية كالآلات والإلكترونيات والمنتجات المعدنية والخشبية والأجهزة الكهربائية والإلغاء التدريجى خلال ١٠ سنوات لنظام الحصص والقيود الكمية التى تفرضها الدول الصناعية المتقدمة لحماية المنسوجات والملابس الجاهزة لديها من تدفق المنسوجات والملابس الجاهزة الرخيصة من الدول النامية (الصين).

كما تقرر تخفيض الرسوم الجمركية على السلع الصناعية التى تصدرها الدول الصناعية المتقدمة بشكل أساسى بنسبة ٣٨٪ وتخفيض الرسوم الجمركية على الصادرات الصناعية للدول النامية بنسبة ٣٢[2] وللدول الأقل نمواً بنسبة ١٩٪ وأوضح أن هذا الاتفاق يخدم الدول الصناعية المتقدمة التى من المتوقع أن تحقق مكاسب بسبب هذا الاتفاق باستثناء قطاع المنسوجات والملابس الجاهزة . فالصين وهى دول نامية ستحقق أكبر المكاسب من هذا الاتفاق حيث ستتمكن المنسوجات والملابس الجاهزة الصينية الرخيصة من اجتياح بعض الأسواق فى الدول الصناعية المتقدمة وبعض الدول النامية إذا لم يتم التحايل على هذا الاتفاق لعرقلة تدفق صادرات المنسوجات والملابس الجاهزة الصينية إلى الأسواق العالمية تحت دعاوى مكافحة الإغراق.

---

(١) إبراهيم النوار : العرب فى مواجهة النظام التجارى العالمى الجديد تكتل اقتصادى أم تنويع هياكل الإنتاج ،مجلة الباحث العربى : العدد ٣٨ مارس - يونيو ١٩٩٥، ص ٥١ .

(٢) مجلة روز اليوسف - العدد ٣٥٣٢ - ١٩٩٦/٢/١٩ ص١٧.

ويقدر البنك الدولى ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية الأرباح الصينية المحتملة بعد هذا الاتفاق بنحو ٣٧ مليار دولار سنوياً مما يضعها على رأس الرابحين من الاتفاق .

وتشير التقديرات إلى أن دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق تزيد فرص تصديرها من المنسوجات والملابس الجاهزة بمقدار ٢٠ مليار دولار سنوياً. وقد أعلنت البرتغال تحفظها على التحرير التدريجى لتجارة المنسوجات والملابس الجاهزة حيث أبدت تخوفها من غزو المنسوجات والملابس من الدول النامية وبالذات الصين والهند وباكستان إلى أسواقها بما يؤثر سلباً على صناعة المنسوجات والملابس الجاهزة فى البرتغال.

ونجحت الولايات المتحدة فى الفوز بتعهد أوربى بوضع سقف محدد للدعم الحكومى الأوربى لصناعة الطائرات الأوروبية بعد أن كانت قد أعربت من قبل عن تخوفها وتذمرها من دعم الحكومات البريطانية والألمانية والفرنسية والأسبانية لمجمع صناعة طائرات إيرباص الأمر الذى يزيد من قدرة هذا المجمع التنافسية فى مواجهة شركتى بوينج وماجدونال الأمريكيتين .

تحرير الخدمات المالية :

لم تتمكن الأطراف الرئيسية فى مفاوضات الجات من الاتفاق على التحرير الشامل للخدمات المالية والمصرفية حيث تم الاتفاق على حرية البنوك وشركات التامين من أى دولة عضو فى الجات فى دخول أسواق الدول الأخرى مع إعطاء مهلة للولايات المتحدة الأمريكية حتى منتصف عام ٩٥ لتختبر مدى التزام الدول الأخرى بتحرير أسواقها المالية حتى تتعامل معها بمبدأ المعاملة بالمثل[(١)].

ومن المعروف أن تجارة الخدمات المالية والمصرفية تشكل جانباً أساسياً من تجارة الخدمات التى أصبحت تشكل نحو ٢١٪ من إجمالى التجارة الدولية .

وعلى صعيد آخر تم الاتفاق على تحرير تجارة الخدمات الملاحية وتم استبعادها كلية من اتفاقية الجات على أن تعاود الدول الأعضاء بحثها فى جولة قادمة.

---

(١) الأهرام ١٩٩٧/٥/٢٠

الجات والسيطرة الثقافية :

حاولت الولايات المتحدة الأمريكية خلال المفاوضات طرح قضية تجارة الخدمات الثقافية وبالذات المنتجات الصوتية والمرئية على اعتبار أنها الدولة التى تملك ميزات كاسحة فى هذا المجال وخاصة فيما يتعلق بالأفلام السينمائية ، ولكن الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا تصدت للموقف الأمريكى ورفضت تخفيض الدعم لمنتجيها السينمائيين والتليفزيونيين كما قررت دول الاتحاد الأوروبي أن تواصل إجبار شبكات التليفزيون العاملة لديها على تخصيص ٥١٪ من برامجها للأفلام والمنتجات المرئية والصوتية الأوروبية.

وهكذا فإن عدم الاتفاق بشأن هذه القضية يؤكد مدى تمسك الدول الأوروبية بضرورة الإبقاء على تراثها وعلى ثقافاتها ومنتجاتها الثقافية داخل أسواقها ، وبعيداً عن السيطرة الأمريكية العولمية .

الجات ومثلث السيطرة الاقتصادى الدولى :

بعد أن تم التوقيع على اتفاقية الجات وبدأ تنفيذها من أول يناير ٩٥ تحولت إلى منظمة عالمية جديدة كمتغير جديد فى الاقتصاد العالمى تحت مسمى " منظمة التجارة العالمية" لتصبح الضلع الثالث فى الاقتصاد الدولى إلى جوار البنك الدولى للتعمير والتنمية وصندوق النقد الدولى. وجدير بالذكر أن صندوق النقد الدولى يختص بالعمل على تحرير النظام النقدى الدولى وهى عملية مكملة لمهمة البنك الدولى للتعمير والتنمية الذى يختص بدفع وتمويل عملية التنمية فى الدول النامية فى إطار اقتصاديات السوق ، وبهذا تكون المنظمات الثلاث هى صاحبة الاختصاص واليد الطولى فى توجيه الاقتصاد العالمى من خلال تحرير النقد الدولى وعملية التنمية فى دول العالم الثالث بشروط تجعلها تابعة لاقتصاديات السوق إضافة إلى تنظيم التجارة الدولية من خلال منظمة التجارة العالمية الجديدة.

عولمة منظمة التجارة العالمية وآثارها على الوطن العربى:

أعقب اتفاق " جات " بشأن تحرير تجارة السلع الزراعية ردود فعل حادة تراوحت بين الترحيب الشديد ـ والرفض الغاضب ففى واشنطن لم يخف الرئيس الأمريكى ترحيبه الشديد بالاتفاق الذى وصفه بأنه يضع الولايات المتحدة على حافة

نصر تاريخى[1] ـ وهو ما يتفق مع حقيقة أن الاتفاق الذى تم التوصل إليه يستجيب أساساً للمطالب الأمريكية .

أما فى أوروبا فقد تظاهر المزارعون الغاضبون من الاتفاق ـ وحدثت مظاهرات مماثلة فى الهند ودول الشرق الأقصى وعلى رأسها اليابان وكوريا الجنوبية والأخيرة شهدت تطورات درامية كرد فعل للاتفاق حيث استقال رئيس الوزراء والمجموعة الاقتصادية احتجاجاً على الاتفاق وتم تعيين رئيس جديد للوزراء.

أما فى الاتحاد الأوروبى فقد بدأت لجان فنية فى بحث المشاكل التى ستتعرض لها بعض دول الاتحاد بسبب الاتفاق وآليات معالجة هذه المشاكل ـ توصلت إلى أن تقوم الدول الصناعية الغنية فى الاتحاد بتقديم مساعدات إلى البرتغال وأسبانيا واليونان وإيطاليا لتعويض هذه الدول عن الأضرار التى يمكن أن تتضرر اقتصادياتها بعد الاتفاق.

وفى الدول العربية انصبت ردود الأفعال على تقييم الاتفاق بشكل أساسى وعلى تأكيد بعض الدول لرغبتها فى الانضمام إلى الجات مثل السعودية ـ وقد ظهرت اختلافات فى تقييم الاتفاق وتأثيراته على اقتصاد هذه الدول العربية مما يعكس حسابات كل دولة بشأن مصالحها من هذا الاتفاق من ناحية ، وتعلية الطابع الاجتهادى لعدم توافر المعلومات الخاصة باتفاقية الجات وبالاقتصاد العالمى من ناحية أخرى .

إن المصالح التى يمكن أن تحققها الفئات المختلفة من هذا الاتفاق تتباين حتى داخل الدولة الواحدة ـ فعلى سبيل المثال ـ سوف يضار المزارعون اليابانيون والكوريون من تخفيض الجمارك على واردات بلدانهم من الأرز والسلع الزراعية ـ بينما سيستفيد المستهلكون للسلع الزراعية فى البلدين من انخفاض أسعارها. كما ستستفيد شركات الاستيراد من عملها فى استيراد هذه السلع.

وتشير دراسة مشتركة أعدت بالتعاون بين البنك الدولى ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية إلى أن أكبر الرابحين من الاتفاق الاتحاد الأوروبى الذى تقدر

---

(١) مجلة المستقبل العربى : النظام التجارى الجديد ومستقبل التنمية العربية: العدد ٢٠٤، فبراير ١٩٩٦.

أرباحه الإجمالية بـ٨٠,٧ مليار دولار سنوياً يليها الصين ٣٧ مليار سنوياً ثم اليابان ٣٥ مليار دولار سنوياً - ودول شرق وجنوب شرق أسيا التى ستحقق مجتمعة أرباحاً سنوية ٢٢,٤ مليار دولار ، ثم الولايات المتحدة الأمريكية وستحصد أرباحاً قدرها ١٨,٨ مليار دولار ببدء تطبيق الاتفاق فى يناير ٩٥.

ومن المؤكد أن الدول المصدرة للسلع الزراعية وبالذات الحبوب والموز سوف تحقق أرباحاً كبيرة - أما الدول المستوردة للحبوب والسلع الزراعية فسوف تكون على رأس المتضررين من هذا الاتفاق فى المدى القصير على الأقل وفى مقدمتها الدول العربية .

وقد طرح اقتراح بتقديم معونات غذائية وتسهيلات ائتمانية لشراء الحبوب والسلع الغذائية الأخرى للدول النامية المستوردة للحبوب والغذاء - ومن المؤكد أن استفادة أى دولة من التعويض المقرر يتوقف على قدرتها على إظهار حجم الأضرار التى تعرضت لها بسبب التحرير الجزئى والتدريجى للتجارة الدولية - وقدرتها على إقناع الدول الأخرى الأعضاء فى الجات بأن تلك الأضرار حقيقية .

ولأن الدول العربية مستوردة للسلع الغذائية وعلى رأسها الحبوب ، فإن دولاً عربية مثل مصر والجزائر والعراق والسعودية والمغرب وسوريا والسودان وليبيا واليمن فى مقدمة الدول العربية المتضررة من تحرير السلع الغذائية لكونها من أكبر مستوردى الغذاء والحبوب فى الوطن العربى وتفتقر فى نفس الوقت إلى تصدير سلع بديلة بالقدر الكافى.

كما أن هناك عدد من الآثار العامة التى ستسفر عن الاتفاق بالنسبة لاقتصاديات الدول لأعضاء فى جات - يمكن إيجازها فى الآتى:

١- زيادة حجم التجارة الدولية بزيادة الطلب الخارجى المتبادل ، وتشير التقديرات إلى زيادة التجارة الدولية بمقدار ٣٥٠ مليار إلى ٤٠٠ مليار دولار سنوياً.

٢- خلق اتجاه عام نحو التخصص وفقاً للمزايا النسبية - بما يعنى رفع كفاءة تخصيص الموارد بغض النظر عن أى اعتبار آخر.

٣- استفادة المستهلكين من انخفاض الأسعار فى الدول التى كانت تقيم حواجز جمركية وتدعيم المنتجين فيها لجعلهم قادرين على المنافسة فى الأسواق المحلية -

رغم ارتفاع أسعار منتجاتهم بالمقارنة بأسعار المنتجات المناظرة فى الأسواق الدولية.

٤ـ استفادة المنتجين من زيادة الطلب الخارجى على إنتاج البلدان التى كان إنتاجها يواجه عوائق كمية وجمركية من التى تم إلغائها أو تخفيضها فى الاتفاق.

٥ـ تزايد الاعتماد المتبادل الذى يحقق زيادة الاندماج على الصعيد العالمى مما يؤدى إلى خلق مصالح متشابكة يمكنها تخفيف حدة الصراعات الدولية .

٦ـ زيادة معدلات التضخم وزيادة تكلفة الواردات فى البلدان التى تستورد سلعاً سوف ترتفع أسعارها فى الأسواق الدولية ـ بعد تخفيض الدعم الذى كان يقدم لمنتجاتها ومصدريها .

٧ـ ارتفاع معدلات البطالة فى الدول التى كان المنتجين الصناعيين والزراعيين فيها يعتمدون على الدعم الحكومى أو على الحواجز الجمركية العالمية للحفاظ على قدرتهم التنافسية بشكل مصطنع .

وباختصار شديد فإن أبرز عيوب الاعتمادات المتبادل يكمن فى اختلاله الذى يؤدى إلى دخول الدول فى تشابك قوى تنقسم إلى دول تابعة ، ودول مهيمنة .

الدول العربية واتفاقية الجات :

هناك ست دول عربية أعضاء فى منظمة الجات هى مصر والبحرين وتونس والمغرب والكويت وقطر ، وقد شاركت هذه الدول فى دورة أورجواى ، ودولتان عربيتان بصفة مراقب هى ـ السعودية والجزائر ، ثم تسابقت الدول الخليجية للانضمام بعد توقيع الاتفاق فى ظل الاعتقاد السائد بأن الاتفاق يشكل الإطار العام للعلاقات الاقتصادية الدولية .. ولا يمكن لأى دولة عربية ترغب فى الاندماج بشكل قوى فى النظام الاقتصادى العالمى أن تتجاهل الآثار المرتقبة لاتفاقية الجات فى المجالات الآتية :

(أ) ارتفاع تكلفة الواردات الغذائية:

يعد تخفيض دعم المنتجين والمصدرين للحبوب والسلع الزراعية هو الجانب الأكثر أهمية من الاتفاق مما سينعكس على ارتفاع أسعار الحبوب والسلع الزراعية

الغذائية وغير الغذائية فى الأسواق الدولية ، والدول العربية فى مجموعها أكبر مستورد للحبوب والسلع الغذائية فى العالم - وقد ارتفعت قيمة الواردات الغذائية العربية بقوة خلال الفترة من عام ٩٥ وحتى عام ٢٠٠٠ .

ونجد أن واردات الحبوب العربية بلغت نحو ٣٥,٦ مليون طن عام ٨٨ وبلغت عام ١٩٩٣م(٤٠) مليون طن ووصلت الآن إلى ٥٠ مليون طن فى ظل تزايد الاحتياجات بسبب تزايد السكان مع نمو الإنتاج بشكل محدود يقل عن معدلات نمو الاحتياجات على المستوى العربى العام.

وفى هذا الصدد فإن قيمة واردات الحبوب الغذائية بلغت ٦,٣ مليار دولار عام ٨٨ وزادت هذه القيمة بنسبة ٣٦٪ عام ٢٠٠٠ مع تزايد الواردات ، وتعد السعودية ومصر والجزائر والعراق والمغرب وسوريا واليمن وليبيا هى أكبر الدول العربية المستوردة للحبوب والغذاء كما أسلفنا، وهى الأكثر تأثراً بشكل سلبى من الارتفاع المتوقع لأسعار السلع الزراعية فى الأسواق العالمية ، مما يتوقع له أن يغذى التضخم فى المنطقة العربية التى تستورد سنوياً من المواد الغذائية بأكثر من ٢٥ مليار دولار ، وفى تقرير للمنظمة العربية للتنمية الزراعية أكد المدير الإقليمى فى صنعاء أن تحرير التجارة العالمية للسلع الزراعية سيكبد الاقتصاديات العربية أكثر من ١١٥٤ مليون دولار سنويا [(١)] كفارق سعر للسلع الزراعية المستوردة.

(ب) حفز برامج الاكتفاء الذاتى من الغذاء :

من المؤكد أن ارتفاع أسعار السلع الزراعية فى الأسواق الدولية وعلى رأسها الحبوب والسلع الزراعية الغذائية الأخرى ، سوف يؤدى إلى ارتفاع تكلفة استيرادها وإلى تحسين الموقف التنافسى للمنتجين المحليين فى الدول العربية بمقارنة أسعار وجودة منتجاتهم مع السلع الزراعية المستوردة ، وبالتالى فإن الحوافز الاقتصادية للأموال الاستثمارية العربية لزيادة الإنتاج العربى من السلع الزراعية سوف تتزايد بما قد يؤدى إلى تزايد التوسع الزراعى العربى لاستغلال الإمكانيات الزراعية العربية المتاحة وغير المستغلة فى مصر والسودان ودول شمال أفريقيا العربية والعراق وسوريا واليمن ، وربما تؤدى التغيرات فى أسعار الحاصلات المختلفة فى الأسواق الدولية إلى

---

(١) جريدة الحياة : ١٩٩٧/٢/١٨.

تغيير هيكل الحاصلات المزروعة فى الدول العربية لصالح المحاصيل التى سترتفع أسعارها وهى بشكل أساسى الحبوب والسكر والسلع الغذائية بصفة عامة. غير أن هذا يتوقف بالطبع على توافر النوايا للاستثمار العربى بنوعيه الحكومى والخاص، وعلى توافر عناصر الأمان للمال المستثمر وعوائده.

(جـ) المنافسة الشديدة لمنتجى الملابس:

من المنتظر فى ظل التحرير التدريجى لتجارة المنسوجات والملابس الجاهزة أن تتعرض الدول العربية المنتجة لها لمنافسة كبيرة من الدول المنتجة للمنسوجات والملابس الجاهزة بتكلفة أقل، مثل الصين والهند وربما تكون هذه المنافسة الرهيبة حافزاً لرجال الأعمال العرب وللشركات العربية العاملة فى مجال صناعة المنسوجات والملابس الجاهزة لتطوير نفسها والعمل على زيادة الإنتاج بما يؤدى إلى تقليل التكاليف بصورة تسمح لهذه الصناعة العريقة بالاستمرار فى المنافسة فى الأسواق المحلية العربية وفى الأسواق الدولية المفتوحة بعد الاتفاق.

وأهم الدول العربية المنتجة للمنسوجات والملابس الجاهزة هى: مصر والمغرب وتونس وسوريا، أما بالنسبة للصادرات فإن تونس تأتى على رأس الدول العربية المصدرة للمنسوجات والملابس الجاهزة حيث بلغت قيمة صادراتها عام ٩١ نحو ١٢٥٠ مليون دولار بما يوازى ٣٣٪ من إجمالى الصادرات التونسية ذلك العام، ويأتى بعدها مصر وصدرت بما قيمته ١٠٥٠ مليون دولار ثم المغرب صدرت بما قيمته ٨٥٥ مليون دولار ثم سوريا ٨٣٩ مليون دولار وسوف يكون على صناعات النسيج والملابس الجاهزة فى الدول العربية المذكورة أن تستعد لمواجهة منافسة عاتية من منتجى السلع المناظرة الآسيويين حتى تستطيع الحفاظ على حصتها فى الأسواق الدولية وفى سوقها المحلى ذاته.

(د) رفع كفاءة استخدام الموارد:

من المؤكد أن تحرير التجارة الدولية بصفة عامة سوف يؤدى إلى تركيز كل دولة على مجالات الإنتاج الصناعى والزراعى التى تتمتع بميزات نسبية فيها، مما يعنى

الدفع فى اتجاه زيادة كفاءة استخدام الموارد وخاصة فى الدول العربية إذا أرادت التفاعل بشكل إيجابى يحقق مصالحها من الاتفاق العالمى .

(هـ) الفرص المتاحة للصناعات العربية الجديدة :

تضمن الاتفاق تحرير عدد كبير من السلع الصناعية ـ وتشير التقديرات إلى أن دول الخليج ستحقق مكاسب بمبلغ ٣,١ مليار دولار سنوياً إذا ما أحسنت التصرف بسبب تحرير تجارة السلع الصناعية وخاصة إنتاجها من البتر وكيماويات إلى أسواق العالم دون مواجهة نفس العوائق الكمية والجمركية الكثيرة التى كانت تواجهها من قبل فى مختلف الأسواق وبالذات السوق الأوربية، وكذلك الصناعات العربية الحديثة التى يتم إنشائها لتعمل بأساليب إنتاج تكنولوجى حديث . فلو تمت إدارة هذه الصناعات بشكل كفء ، فإن إنتاجها سوف يكون قادراً على المنافسة فى الأسواق الدولية بالمقارنة بإنتاج الصناعات التى مضى على إنشائها عدة سنوات والتى تقادمت تكنولوجيا ـ وبذا فالصناعات الجديدة تملك فرصة جيدة المنافسة دولياً شريطة أن تدار بكفاءة عالية يضمن تحقيق مستوى مرتفع من الإنتاجية للعامل وللآلة فى نفس الوقت ـ ويضمن إدارة التسويق المحلى والخارجى بما يعطى انطباعات جيدة عن السلع المنتجة ويعطيها مقبولية فى الأسواق الخارجية ويمكنها من المنافسة دون عوائق انطباعية أو نفسية مع السلع المناظرة لها فى مناخ شبه حر.

وأياً كانت الآثار السلبية أو الإيجابية لاتفاقية الجات ـ فإنها أصبحت حقيقة واقعة ، وعلى الدول العربية الأعضاء وغير الأعضاء فيها أن تحاول وضع خطة للتكييف الهيكلى وللتفاعل مع المتغيرات التى يطرحها الاتفاق وذلك لتفادى الآثار السلبية له ولتحقيق أفضل استفادة من العناصر الإيجابية فيه وما نعنيه بخطة التكيف الهيكلى ليست تلك التى يفرضها البنك الدولى على الدول الرخوة والتى لا تعدو أن تكون خطة تجويع وإمعاناً فى إفقار الفقراء فى الوقت الذى يتضاعف فيه فساد الدولة وأجهزتها الحكومية استعجالاً وانتشاراً.

ومن المؤكد أن إعداد برامج شاملة لتطوير الزراعة العربية وزيادة إنتاج الحبوب والسلع الزراعية النباتية والحيوانية ـ ورفع مستوى الاكتفاء الذاتى فى الدول العربية بصورة تنافسية غير مدعومة هو أمر هام لتفادى التعرض لاستيراد تلك السلع

بأسعار أعلى كثيراً من أسعارها فى الوقت الراهن . كما أن التركيز على تطوير إنتاجية العامل الصناعى والزراعى فى الدول العربية وزيادة القدرة التنافسية للمنتجات الصناعية العربية هو أمر هام للحفاظ على حصة هذه المنتجات فى الأسواق العربية ذاتها ولجعلها قادرة على المنافسة فى الأسواق الدولية.

وفى هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن ما تناولناه فى إطار اتفاقية الجات عربياً لا يخرج عن حدود ما هو ممكن تحقيقه فى حده الأدنى ، فى حالة توافر نوع من التنسيق العربى - العربى على ما حصل من انفراط فى صيغة العمل العربى المشترك التى حكمت العالم العربى منذ ميثاق الجامعة العربية عام ١٩٤٥ وأدت إلى كسر المحرمات العربية التى كانت مقدسة عندما غزت دولة عربية كبيرة شقيقتها عام ١٩٩٠، وبات كل شئ مباح - وترجم ذلك على أن من حق كل دولة عربية أن تبحث عن مصالحها القطرية بعد أن غابت المصلحة القومية وأصبحت الأمة العربية تحت التبعية الكاملة للولايات المتحدة الأمريكية(١) .

ويعد القرار الخليجى الخاص بإلغاء المقاطعة محصلة للتفكك العربى الذى استغلته إسرائيل فقامت بالتعاون مع الولايات المتحدة بحملة دولية مسعورة تعد الأولى من نوعها من حيث تعدد القوى المشاركة والتى جاءت مترابطة ومتزامنة مع مجموعة من التطورات الإقليمية والعالمية ومن أهمها (٢):

١- انهيار نظام القطبية الثنائية وتعاظم دور الولايات المتحدة التى تربعت على عرش قيادة النظام العالمى الجديد بعد حرب عاصفة الصحراء وتحطيم النظام العربى.

٢- التغيرات التى طرأت على النظام العالمى الذى أتاح مناخات سياسية واقتصادية لبعض الشرائح العربية للتعامل مع إسرائيل.

٣- استئناف العلاقات بين إسرائيل ودول أوروبا الشرقية وكذلك مع الهند والصين اللتان ظلتا محتفظتان فى إقامة علاقة دبلوماسية مع إسرائيل منذ نشأتها .

---

(١) مجلة الوسط عدد ٢١ تاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤.

(٢) عبد المنعم حسن : قرار مجلس التعاون الخليجى ومصير المقاطعة العربية الإسرائيلية: السياسة الدولية عدد ١١٩: يناير ١٩٩٥ ص ١٧١.

٤ـ الصراعات العربية وحالة التردى التى وصلت إليها العلاقات العربية العربية خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد، وزادت تفاقماً بعد غزو العراق لدولة الكويت عام ١٩٩٠.

كل هذه الظروف وفرت المناخ الملائم لنجاح حملة إلغاء المقاطعة التى قادتها إسرائيل والولايات المتحدة مستفيدة من الفترة السابقة لإصدار وثيقة مراكش لتربط بين المقاطعة العربية والاتفاقية الدولية ، فقد قامت إسرائيل خلال مفاوضات الأرجواى بتصنيفها على أنها تدخل فى مجال الإجراءات الحمائية التى تأسست " الجات " لرفعها ، وكانت الحجة الإسرائيلية في ذلك تعتمد على أن أحد مبادئ الجات يقضى بالتحفظ ضد كل سياسة احتكارية فى مجال التجارة الخارجية وأن كل التجارة حرة فى دخول الأسواق الدولية . وهو ما يعنى ليس رفع المقاطعة فقط ، وإنما الدخول مع إسرائيل فى كتلة اقتصادية واحدة تناظر التكتلات العالمية الأخرى. وقد استخدمت إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة كل أنواع الضغوط على الدول العربية من أجل إلغاء المقاطعة أهمها :

١ـ ضغوطاً سياسية تمثلت فى استخدام الطرق الدبلوماسية التى تشعر الدول العربية بأن مسألة إلغاء المقاطعة هى أولوية سياسية لدى الولايات المتحدة وتمكنت من تحويلها إلى أولوية غربية أيضاً ، ثم إلى أولوية دولية بعد عرض الموضوع على الدول الصناعية السبع الغنية فى طوكيو ١٩٩٣ .

٢ـ ضغوط قانونية تمثلت فى تشديد القوانين الأمريكية المتعلقة بمكافحة المقاطعة العربية ، وأهمها قانون مناهضة العنصرية أو التمييز الاقتصادى الذى صادق عليه الكونجرس فيما بعد أي فى ٢٧ يناير ٩٥ وينص على حظر بيع خدمات الدفاع لأية دولة عربية تحافظ على المقاطعة على الشركات التى تتعامل مع إسرائيل .

٣ـ عقوبات جزائية تمثلت فى إرهاب الشركات ومنعها من الخضوع لقوانين المقاطعة العربية . ورغم أن الدول العربية حاولت الصمود ـ مع تأثيرها الضعيف فى أروقة هذه الدورة فلم يمضى وقت حتى كانت أغلبها تسعى لتحقيق ما تريده إسرائيل.

ولو وضعنا دراسة مقارنة بين المحاولات الإسرائيلية التى كثفت فى نهاية هذه الدورة وأوراق مؤتمر مدريد والاتفاقات التى توالت من أوسلو إلى القاهرة، لرأينا أن عدداً من الدول العربية التزمت برفع المقاطعة مع إعلان الالتزام بالدرجة الأولى منها حفاظاً على ماء الوجه[1]. كما يدخل فى هذا الإطار أن اتفاقات غير معلنة مثل إقامة علاقات بدرجات متفاوتة قامت بها دول مغرب الوطن العربى ومشرقه مع الكيان الصهيونى قد حققت لهذا الكيان ما يريده.

لقد بات واضحاً أن الدول الكبرى تحاول الاستفادة من أية قضية سياسية أو ثقافية أو اقتصادية لفرض شروطها "المهيمنة" على الدول الأقل منها قدرة تجارياً وعسكرياً وهنا لابد أن نتذكر موقف المجموعة الأوربية بعد مؤتمر مدريد ومحاولتها إنشاء مشروع أوروبى متوسطى تدخله من البوابة الإسرائيلية عندما وجدت نفسها خارج اللعبة السياسية الجديدة فساورها المخاوف من احتمال حرمانها من القيام بدور فى سلام الشرق الأوسط وفى عملية التنمية المزمع تحريكها فى المنطقة، فى الوقت الذى تتحرك الولايات المتحدة وخلفها البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ومنتدى داقوس وهى المؤسسات الاقتصادية العالمية المكرسة لخدمة المصالح الأمريكية للاضطلاع بدور منفرد فى مجال الاقتصاد والسياسة، فاقترحت اللجنة التنفيذية للمجموعة تعزيز العلاقات التجارية والتعاون السياسى مع إسرائيل لعرض خدماتها فى مجال قضايا الشرق الأوسط المتعلقة بالمتغيرات السياسية وبالتطور الاقتصادى الإقليمى والمياه والبيئة والأمن الإقليمى وغيره، خاصة فى إطار المباحثات المتعددة الأطراف بلجانها المختلفة.

وقد أدركت إسرائيل مدى أهميتها لأوروبا فى ظل ظروف أصبحت أوربا شبه مستبعدة من القيام بأى دور فعال على مستوى العالم أو على مستوى منطقة الشرق الأوسط بعد أن أصبحت خيوط اللعبة كاملة فى يد الولايات المتحدة الأمريكية[2]، فلم تُضع الفرصة فى ممارسة الضغوط على المجموعة الأوروبية من خلال اتفاقية تتيح لها الوصول إلى برامج التنمية والبحوث الخاصة المتقدمة فى

---

(١) د. مصطفى عبد الغنى، الجات والتبعية الثقافية، مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٥، ص ٢٤.

(٢) ميرفت عبد العزيز: العلاقات الأوروبية الإسرائيلية قبل وبعد اتفاق غزة – أريحا، العالم اليوم، ١٩٩٣/١١/٢٥.

المجموعة الأوروبية لتكون الدولة الوحيدة من خارجها ، وهو ما يمثل مرحلة نوعية جديدة في العلاقات الأوروبية الإسرائيلية . وقد جاءت المبادرة الأوروبية هذه بعد الالتفاف الأمريكي بتأسيس مبادرة بناة السلام برعاية نائب الرئيس الأمريكي " الجور" والهادفة إلى تنسيق جهود الاستثمار لدعم السلام وتمويل مشروعات الشركات الأمريكية المستثمرة في الضفة الغربية وغزة بعد أوسلو وتأمينها من المخاطر السياسية ومساعدتها بتقديم الفرص في القطاعات الصناعية(١) . وبالفعل دخلت المجموعة في مفاوضات مع إسرائيل بهذا الشأن عام ١٩٩٤ لتعطى للأخيرة دوراً مركزياً في التعاون الإقليمي . بينما يفرض على الدول العربية التطبيع مع إسرائيل من أجل تحقيق مصالح الأخيرة.

وجاء انعقاد مؤتمر برشلونة في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر عام ١٩٩٥ ليبرز التململ الأوروبي ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه بخصوص الدور الأوروبي في الشرق الأوسط ودول شرق أوروبا الذى بات مهمشاً رغم مشاركة أوروبا ودعمها للتحالف ضد العراق . وجاء المشروع الأوروبي المتوسطي كبلورة نهائية للسياسة الأوروبية تجاه الدول المتوسطية انتهت بمفهوم الشراكة بين الاتحاد الأوروبي ودول جنوب البحر المتوسط(٢).

ورغم أن المشروع المتوسطي كان نتيجة محاولة الاتحاد الأوروبي لمنافسة المشروع الشرق أوسطي الإسرائيلي الأمريكي ، فإن دول المجموعة حاولت أن تجعل منه هو الآخر مشروع أوروبي إسرائيلي ، يصبح العرب فيه متلقين لما يملى عليهم ، حيث بدأ المشروع باستبعاد ليبيا وهي الدولة التي تمتد شواطئها إلى أكثر من ١٣٠٠ كيلو متر على ساحل المتوسط ، وأدخلت دولاً غير مشاطئة مثل الأردن وموريتانيا مثلما استبعدت الشرق أوسطية إيران والعراق ، بينما ضمت دولاً بعيدة كل البعد عن المنطقة مثل باكستان ودول أسيا الوسطى . وكما جزأت الشرق أوسطية الأمة العربية إلى منطقتين الأولى تدخل ضمن منطقة الشرق الأوسط (دول المشرق

(١) جيمس زغبي :بناة السلام ، مبادرة أمريكية جديدة ، جريدة الشرق الأوسط ، ١٩٩٣/١٢/١.
(٢) راجع اتفاقية المشاركة الأوروبية ، في مجموعة الأوراق التي قدمت إلى المؤتمر الدولي عن العلاقات العربية مع الاتحاد الأوروبي ٢٢-٢٣ سبتمبر، القاهرة ١٩٩٦م.

العربى) والثانية ضمت إلى الشرق أوسطية تحت مسمى شمال أفريقيا وتضم بلدان المغرب العربى الخمس وسكان الصحراء الغربية المتنازع عليها بين المغرب والبوليساريو. فإن المتوسطية أوجدت فواصل إقليمية بين الدول العربية المشاطئة للبحر المتوسط وبقية الدول العربية التى لا تملك سواحل عليه. وبينما فتحت المجموعة أبوابها لإسرائيل لتنهل من معين التكنولوجيا الأوربية المتقدمة ، تباينت أهداف الدول العربية المتوسطية مع المجموعة الأوروبية حول القضايا التكنولوجية والسياسية والأمنية ، فأوروبا لا تريد تلبية المطالب التكنولوجية والسياسية العربية بينما تريد تحقيق مطالبها الأمنية ، ولكن ليس الأمن العسكرى وأعمال الإرهاب فقط، بل الأمن الاقتصادى على أساس أن أسبانيا تمثل البوابة التى تهدد أوروبا من تسرب الهجرة غير الشرعية والسلع المنافسة للبضائع الأوروبية . وبينما يطالب الجانب العربى باهتمام الجانب الأوروبى بالقضية الفلسطينية بحيث يكون للمجموعة دور فى حل الصراع العربى الإسرائيلى يتناسب مع مكانتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية [1]، يصب الاهتمام الأوروبى فى مسألة ضرورة تطبيع العلاقات العربية الإسرائيلية ، والسلام مع إسرائيل والذى بدوره سيوجد الحلول للقضايا الصعبة ، مثل القضية الفلسطينية . إذن فالنتيجة واحدة والأهداف متماثلة ، وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً رأينا تلخيص بعض أهداف المشروع المتوسطى فى الآتى :

(أ) إيجاد مجالات أوسع لصادرات الاتحاد الأوروبى من سلع وخدمات ورأسمال وإدماج إسرائيل فى الوسط العربى المجزأ مع الحرص على أن تكون لها الأفضلية السياسية والاقتصادية.

(ب) محاربة ما يدعونه بالأصولية الإسلامية والإرهاب ودعم أمن إسرائيل وفى هذين الهدفين يلتقى المشروع المتوسطى بالشرق أوسطى[2].

(جـ) إيقاف هجرة أبناء الجنوب المتوسطى إلى أوروبا ، وهذه القضايا الثلاث ظلت شغل أوروبا الشاغل بدءاً من بيان لشبونة عام ١٩٩٢ ، مروراً بمؤتمر

---

(١) طلعت شاهين :تقرير عن مؤتمر طليطلة ، جريدة الحياة ١٩٩٧/١١/١٣

(٢) محمد الأطرش :مجلة المستقبل العربى ، العدد ٢١٠ ، ١٩٩٦/٨ ، ص ١٧

" كورفورد " باليونان في يوليو ١٩٩٤ بقرارات القمة الأوروبية التى انعقدت فى مدينة " إيس " بألمانيا فى ديسمبر ١٩٩٤[1] وانتهاءً بمؤتمر مالطا عام ١٩٩٧ .

وكما باغتت الشرق أوسطية الأمة العربية فاجأتها المتوسطية بنفس الأهداف والمبادئ والسياسات الرامية إلى تفتيت هذه الأمة التى ابتليت ببعض قياداتها التابعة للولايات المتحدة وبينما تعلن الأخيرة على الدوام وبصراحة وهى صانعة الشرق أوسطية عن التزامها بضمان أمن إسرائيل ، مقابل استباحة الأمن العربى تلتزم الدول الأوروبية فى ظل المتوسطية بأمن إسرائيل أيضاً وتظهر التعاطف الكامل والصريح مع الكيان الصهيونى ودعمه بمليارات الدولارات وفى كل المناسبات والمواقف الدولية وقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالصراع العربى الإسرائيلى، وكل هذا يدخل فى إطار التكفير عن الذنوب التى اقترفتها النازية فى الحرب العالمية الثانية حسب الادعاءات الصهيونية دون أى التفاته إلى جرائم إسرائيل التى ارتكبت فى حق العرب عموما والفلسطينيين بشكل خاص ، وهى جرائم فاقت بكثير جرائم النارية . كل هذا والعرب " عفواً " لا أريد أن أحمل الشعوب العربية وزر أنظمتها (**ولا تزر وازرة وزر أخرى**) أعنى كل هذا والأنظمة العربية تعيش فى حالة ركود وتبلد والنظام العربى كله يعيش مرحلة ضياع و تشتت لا يشعر ما يجرى فى حاضره ولا بما يرسم لغده .

لقد حاولت أوروبا أن تكون شريكاً فى قيادة النظام العالمى الجديد وسلكت نفس المسلك الأمريكى فى سلخ جلد النظام العربى وأكل ما تبقى من لحمه وتفتيت عضامه وحاولت الدخول فى شركة العولمة من النافذة الإسرائيلية لتصبح عولمة غربية صهيونية ، إلا أن بعض أو معظم جهودها هذه قد فشلت نتيجة عدم قدرة الأوروبيين على إدراك أن الأمر كان قد حسم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بعد عاصفة الصحراء وإعلان بوش قيادة الولايات المتحدة للنظام العالمى الجديد الذى تمخض فحرجت من أحشائه العولمة التى أصبحت أمريكية بكل ما تحمله من أهداف

---

(١) د. مفيد شهاب :نمو بلورة رؤية عربية مشتركة للشراكة الأوروبية المتوسطية ، مجلة شئون عربية ، العدد ٨٨ ، ديسمبر ١٩٩٦ ، ص ١٧٥.

سياسية واقتصادية وأنماط سلوكية وثقافية واجتماعية ، مدعومة بعناصر التفوق التكنولوجي والإنتاج المعرفي وبسطوة المال والإعلام وغلبة الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات وعابرات القارات على نظيراتها فى أوروبا واليابان . وحسمت أمر القيادة الواحدية للعالم عندما سيطرت بالمطلق على بترول الخليج واحتلته عسكرياً ووضعت الدول الأوروبية وغير الأوروبية من الدول المستوردة للنفط وخاصة اليابان وألمانيا تحت رحمتها وإرغامها على دفع مليارات الدولارات مساهمة فى تكاليف حرب الخليج التى كلفت الاقتصاد العربى أكثر من سبعمائة مليار دولار وفرضت ولازالت تفرض على الدول الخليجية تحويل عشرات المليارات إلى الخزينة الأمريكية مقابل حمايتها وتكاليف تواجدها العسكرى فى المنطقة ومقابل ما تنفقه قوات الجو الأمريكي والبريطانى فى تدمير العراق وما تبقى من قواته وبنيته التحتية التى كلما أعيد بناء جزء منها تم تدميره.

إن العولمة لا تعنى سواء الأمركة والسيطرة الأمريكية فى عصر التكتلات الكبرى وانطواء الضعفاء تحت جناح الأقوياء ، وما يحدث هو تخطيط صهيونى تمثله الظاهرة الأمريكية وهى ظاهرة استعمارية جديدة كما أطلق عليها محاضر محمد رئيس وزراء ماليزيا قبل وصوله إلى هافانا يوم ١١ إبريل ٢٠٠٠ لحضور مؤتمر اقتصادى لمجموعة دول جنوب شرق آسيا، وحذر قائلاً " لا سيادة " وقال : إن جنوب شرق آسيا تخاطر بإعادة استعمارها مرة أخرى ما لم يتم وضع الضوابط لقوى العولمة ، وأضاف قائلاً إننا لم نقاتل للتحرر من الاستعمار القديم لكى نحظى بشرف الخضوع للاستعمار الجديد[١]، أما وزير خارجية ناميبيا رئيس الدورة الرابعة والخمسين للأمم المتحدة فقد حذر فى افتتاح أعمال الدورة وأعرب عن خشية دول عديدة من العالم النامى من أن تؤدى العولمة إلى فتح الباب على مصراعيه أمام المنافسة غير العادلة لتؤدى فى نهاية المطاف إلى شطب بعض دول نامية من خريطة العالم .

وفى هذا الصدد ، فإن ما حذر منه محاضر محمد يطبق على أرض الواقع العربى منذ عام ١٩٩٠ بعد أن أعطت الأنظمة العربية الفرصة كاملة للولايات المتحدة لتوسيع نطاق مصالحها فى الوطن العربى وتكريس وجودها العسكرى وتغلغلها

---

(١) الأهرام ٢٠٠٠/٤/١٢ .

الاقتصادى واللعب بالمصالح العربية القومية بعد أن أصبح من حق الولايات المتحدة الاعتراض السافر على أى مواقف عربية تحمل طابعاً قومياً أو نوعاً من الاستقلالية . وقد انطلقت هذه السياسة مع حرب الخليج الثانية ابتداء من فرض قرارات القمة العربية فى سبتمبر ١٩٩٠ والخاصة بحل الوضع المتجدد فى الخليج على أثر الغزو العراقى للكويت ثم خطت خطوتها الثانية بالاعتراض على إعلان دمشق التى توصلت إليه دول مجلس التعاون الخليجى مع مصر وسوريا والذى كان يمثل أفضل وثيقة تعالج قضية الأمن العربى ولا زالت حتى الآن تقف فى طريق انعقاده القمة العربية وتعارض أي تقارب عربى ، فهى تعتبر أن أى تقارب عربى يعد عملاً مضاداً للمصالح الأمريكية العليا، وقد عبر عنها بوضوح وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت جيمس بيكر ، عندما أعلن أن حماية الخليج مسئولية أمريكية ، والولايات المتحدة مخول لها ذلك، غير أن ما تعاب عليه الأنظمة العربية هو القصور الفكرى المتمثل فى عدم الرؤية السياسية والاستراتيجية السليمة، إذ أنها لم تدرك أن ما قامت به الولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية هو إلغاء ما تبقى من الإرادة العربية وإذابة القومية العربية فى إطار منظومة شرق أوسطيه تنصهر فيها معالم القومية العربية وتتبوأ فيها إسرائيل مركز الصدارة . أما التوجهات السياسية الأمريكية تجاه الأوضاع الداخلية للدول العربية فقد عبر عنها العديد من الساسة الأمريكيين بالحديث المستمر عن الإصلاحات السياسية وتوفير الأجواء المناسبة لتعميق المفاهيم الديمقراطية والمقصود بهذه المفاهيم قيام أنظمة سياسية تحت ستار الديمقراطية تكون موالية للولايات المتحدة وخاضعة لسياستها ، وهى فى هذا الشأن تركز على إعداد قيادات شابة تم صقلها فى المدارس الغربية والأمريكية وتشبعت بالنموذج الأمريكى فى الثقافة والاستهلاك وأنماط السلوك الأخرى . كل هذا يدخل فى إطار عولمة الاقتصاد والأنظمة والشباب العربى وخاصة من هم فى الفئة العمرية أقل من ثلاثين سنة ، على اعتبار أن هذه الفئة العمرية لم يكن لها حضور فى مرحلة الفورة القومية ومن السهل التعامل معها بعد أن أصبحت الثقافة القومية والفكر القومى العربى شيئاً من الماضى أو نوع من أنواع الثقافة والفكر الشوفينى كما يروج له دعاة الاستسلام أمثال جماعة كوبنهاجن وجمعيات الصداقة الجديدة مع العدو الصهيونى والجماعات

الأخرى التى أصبحت تشكل منظومة للعمل فى اتجاه الترويج للتطبيع الذى سيحقق الرخاء ورغد العيش وطمأنينة الحياة حسب ما يدعون .

إن ما نراه من حولنا من تدن فى الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد يجعلنا نتفق على أن العرب جميعاً يواجهون مصيراً مرعباً ومخيفاً ليس فقط فى معيشتهم ومعاشهم وإنما فى وجودهم أيضاً ، فرغم الهزائم والإخفاقات التى آلت إليها الأوضاع العربية فى القرن المنصرم ، إلا أن العقل العربى لم يستوعبها ويستفيد منها ويأخذ منها العبر ، فلنحاول نحن العرب أن نُحوّل ونَتحول بدلاً من ردود الفعل السياسية لكوارثنا ومآسينا التى كان أبرزها الكارثة المشهودة فى الخامس من حريزان عام ١٩٦٧ ، إلى عقلية مضر أو قيس : أو نرجع تفسير الكارثة الأشهر فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ إلى عقلية داحس والغبراء [1] حسب محمد الرميحى .

عولمة الغرب وعولمة الآخرين :

فى عرض الدكتور سعيد اللاوندى لكتاب جديد تحت عنوان " من يريد أن يقتل فرنسا " لمؤلفه " دانيل ديمى " الباحث فى معهد الدراسات العليا للدفاع القومى ـ عندما وضع سؤاله فى العنوان الرئيسى للكتاب لم يشأ أن يترك القارئ يضيع وقته فى البحث عن الإجابة فوضع العنوان الثانى الفرعى " الاستراتيجية الأمريكية " لتتكفل بذلك . والكتاب يلقى رفضه لكل المستسلمين للحكم الأمريكى فى السيطرة على العالم بالقوة التى تنبع من قدراتها الاقتصادية والتكنولوجية الفائقة ومن براعتها فى إدارة حرب نظيفة لا تراق فيها دماء الجنود الأمريكيين ، ويشير إلى أهمية القوة الاقتصادية على لسان " جون دوتش " المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية الـ C I A وجاء فيها أن الاقتصاد أصبح رهان قوة مثل الرؤوس النووية التى تمتلكها أمريكا وإلى العجرفة الأمريكية التى نطقت بها وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت حين قالت : إننا نتصرف دائماً استناداً إلى موافقة الأمم المتحدة ، لكن إذا نفذت أو تعطلت هذه الموافقة فلا نتردد فى أن نتصرف بمفردنا .

وفى الكتاب يطرح المؤلف نصائحه بضرورة رد الفعل فى الهجوم المنظم ضد الإمبريالية الأمريكية التى أصبحت تستهدف أوروبا أكثر من أى وقت مضى ويؤكد

---

(١) د. محمد الرميحى : مجلة العربى ، العدد ٤٥٩ ، فبراير ١٩٩٩ الكويت ص ١٧.

المؤلف على أن الحروب التقليدية لم تعد تضع إلا بين الدول الفقيرة ، أما الأمم المتطورة والمعتمدة على السلاح النووى فإن أرض المعركة بالنسبة لها هى فى الساحة الاقتصادية، ويؤكد على أن أوروبا وفرنسا بدون سياسة اقتصادية قوية وشرسة فإنها لن تستطيع ترسيخ أداتها الدفاعية على الصعيدين الداخلى والخارجي ويؤكد على أن قوى أى أمة بالدرجة الأولى فى حركتها الاقتصادية، لأن هذه الدينامية هى التى تعطى الأمم الديمقراطية والحرية وتمكنها من الوسائل التى تصنع بها أداتها الدفاعية الموثوق بها وتضمن فى الوقت ذاته التنمية الاجتماعية والثقافية المرغوبة من قبل شعوبها.. ناهيك عن أنه لا يوجد دينامية اقتصادية بدون إرادة سياسية قوية تكون فى خدمة العوامل المنتجة .

إن أمريكا تواصل هيمنتها على العالم بدون شريك ، ويبدو أن بريطانيا قد فهمت ذلك جيداً بدءً من تشرشل وحتى تونى بلير [1].

ويشير إلى أن الانتصار فى مائة معركة لا يعنى امتلاك قمة المعرفة ، وهو فى هذا الصدد يعنى الصراع الذى أحتدم فى العالم بعد الحرب العالمية الثانية فى مجال الاختراعات والأجهزة بدءاً بصناعة الطائرات والسيارات وحتى أدق الأجهزة الكهربائية الإلكترونية ، ويضيف أن اليابان استطاعت أن تنتقم لنفسها وبرغم أنها تأخرت لنحو ٤٠ عاماً فإنها عقدت تحالفات مع أمريكا وبريطانيا وفى زمن قصير أصبحت كل هذه الأجهزة الصغيرة والكبيرة صناعة يابانية .

والغريب أن كثير من الناس يرون أن النموذج الأمريكى اقتصادياً وثقافياً هو النموذج الأقل سوءاً فى العالم لسبب بسيط هو أنه يضمن الحرية لا العبودية ، ولقد نسى هؤلاء أن البلدوزر الأمريكى إذا مر من مكان فمن الصعب أن يظهر فيه العشب مرة ثانية . وتأكيداً لما نطرحه دائماً من أن حرب الخليج الثانية كانت صناعة أمريكية ، كما كانت الأولى كذلك ، إذ يقول " دانييل ريمى " الكثيرون يعتقدون وهم على حق فى أن صدام حسين عندما غزا بجيوشه الكويت إنما وقع فى فخ أمريكى ، لأن لا شئ يبرر قيام صدام حسين ، بالسطو على الكويت وسكوت أمريكا على ذلك وهى التى كانت تعلم ذلك مسبقاً يعنى أن هذا الغزو كان مخططاً ومبرمجاً

(١) الأهرام ٨/٤/٢٠٠٠

لخدمة المصالح الأمريكية وحليفتها إسرائيل ثم أن الأمريكان هم الذين كانوا يحركون الخيوط في كوسوفا منذ نحو عشر سنوات مستغلين في ذلك ضعف الأوربيين ولا مبالاتهم حتى يستخدمونهم إلى جانبهم في إرهاب نظام معارض للأمريكان في يوغسلافيا ، وهو نظام " سلوبودان ميلوسيفيتش " وفرض الحصار عليه .

وهنا وقبل الدخول إلى الفقرة التالية وإلى الأوهام التى تساور البعض من خلال وسائل إعلامهم المهرجة أن يجعلون من الخيال حقيقة وواقع في أذهان شعوبهم المجهولة : وذلك عندما يطربوننا بأكاذيب المراكز المعلوماتية ونقل التكنولوجيا والاتفاقات التي تبرم غالباً مع الولايات المتحدة في هذا المجال ، وتصور لنا وسائل إعلام الطبل والزمر العربية بأننا أصبحنا على شفا المعرفة أو أنها تكون قد أغرقتنا.

وفي هذا يقول الكتاب والكاتب : وليس مصادفة أن الأمريكان يرفضون دائماً فكرة إنشاء خدمة معلوماتية مستقلة في الأمم المتحدة ، والسبب هو أن تظل المعلومات حكراً عليهم.

وأياً كان الأمر فالثابت أن منظمة الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي تستعملهما الولايات المتحدة لتحقيق مآربها ، فإذا ما أعلنت رغبتها في ضرب أى دولة عسكرياً استخدمت حلف شمال الأطلسي ، وإذا دولة ما أعلنت رغبتها في التعامل تجارياً مع منافس أمريكا فإن الجهاز الأمريكي كله يتحرك لزعزعة هذا البلد واستصدار القرارات من المنظمة الدولية لمعاقبته بعد دفعه للأخطاء المبررة لهذا العقاب [1]، وإذا ما حدث وترددت الأمم المتحدة أو تلكأت في الانصياع للقرارات الأمريكية ، بادرت أمريكا بالسخرية منها وإصدار قراراتها من جانب فردى ، ولعل عملية ضرب العراق في ما أسمتها الولايات المتحدة بثعلب الصحراء خير دليل على ذلك.

استخدام الحصار الاقتصادى كآلية عولمية:

لم يكن قانون " هيلمز بيرتون " الذى صد في مارس ١٩٩٦ موجهاً ضد كوبا وحدها بل هو في الأساس ضد الشركات الأجنبية العاملة في الولايات المتحدة ،

---

(١) الأهرام ٢٠٠٠/٤/١٢ .

ويسمح القانون لكل مواطن أمريكي أن يرفع دعوى قضائية ضد أى من هذه الشركات يثبت تعاملها تجارياً مع أوروبا ، وقد مس هذا القانون فرنسا التى بادرت بعقد اتفاقية تجارية مع كوبا فى ٢٥ إبريل ١٩٩٧. وبادر رئيس وزراء كندا بزيارة كوبا فور إصدار هذا القانون . ولم تستسلم أمريكا وإنما أصرت على مواصلة حربها فصدر قانون داماتو الذى وقعه كلينتون بنفسه ، ويقضى بتوقيع عقوبات على الشركات البترولية الأجنبية التى تستثمر بأكثر من ٤٠ مليون دولار فى العام مع ليبيا وإيران [1] ولم تكن فرنسا وحدها هى المستهدفة وإنما أوروبا بكاملها ، ولكى تظل صاحبة القوة الضاغطة هددت الصين بالا تكون الدولة الأولى بالرعاية إذا أصرت على شراء طائرات إير باص الأوربية بدلاً من بوينج ٧٧٧ ، وأثارت قضاياها مع تايوان وقضية المليار دولار التى كانت مقترحة فى عام ١٩٧١ مقابل أن تأخذ الصين مكانها فى الأمم المتحدة ، وكان هذا المبلغ ينبغى أن تدفعه الصين تحت بند شراء مقعد فى مجلس الأمن ، وكررت العملية مع ألمانيا بإغرائها بمساعدتها فى الحصول على مقعد دائم فى مجلس الأمن إذا ما رفضت سياسة الحوار الذى تجريه أوربا مع إيران .

ورغم هذه الضغوط الأمريكية التى تمارس على الدول الصناعية الكبرى ، الا أن أمريكا لم تعد ضامنة الهيمنة الاقتصادية التى اكتسبتها بعد الحرب العالمية الثانية، فأوروبا وكذلك اليابان أصبحتا قوة اقتصادية كسبت قدرة تنافسية فى مواجهة الولايات المتحدة وصارت كل منهما قادرة على السعى إلى تحقيق مصالحها ولو تعارضت فى هذا الإطار مع خطط واشنطن . ومما يؤكد على ذلك توقيع شركة توتال الفرنسية بالاشتراك مع شركة ماليزية وروسية على عقد مع إيران بمبلغ اثنين مليار دولار للاستثمار فى مجال البترول والغاز الإيرانى فور صدور قانون " داماتو " وبالتالى يتوقع أن تكون المرحلة المقبلة مرحلة صراع المنافسة بين قطبين "الأمريكى والأوروبى "[2]. غير أن الأمر لم يكن بهذه البساطة كما اعتقد ، فالولايات المتحدة وإن فقدت بالفعل أسبقيتها الاقتصادية المطلقة ، فهى تحتفظ بموقع عسكرى لا مقابل له على الصعيد الأوروبى ، كما أن الولايات المتحدة قد عرفت كيف توظف هذا

---

(١) محمد على حوات : مفهوم الشرق أوسطيه وتأثيرها على الأمن القومى العربى : رسالة دكتوراه تحت الطبع : القاهرة : ١٩٩٩ ص ٢٧٨

(٢) د. سمير أمين : العولمة الأمريكية : الأهرام ٢٠٠٠/٤/٣

المكون العسكرى، من خلال التدخل مباشرة فى شئون أوروبا ، فجعلت أوروبا تدفع فاتورة هذا التدخل من خلال حلف الأطلسى من ناحية، وعملت على تعميق الخلاف بين أوروبا وروسيا من ناحية أخرى.

وفى هذا الإطار يقول " هنرى كيسنجر " أن العولمة ليست إلا كلمة أخرى للإشارة إلى هيمنة الولايات المتحدة أو بمعنى آخر لن تكون هناك عولمة اقتصادية ليبرالية وعسكرية إلاّ بقيادة واشنطن.

وتقوم هذه الاستراتيجية العسكرية السياسية على المبادئ التالية :

أولاً : إحلال الناتو محل الأمم المتحدة بصفتها مؤسسة مسئولة عن إدارة السياسة العالمية وضمان السلام .

ثانياً : تكريس التناقضات داخل أوروبا من أجل إخضاعها لمشروع واشنطن .

ثالثاً : استراتيجية عسكرية تكرس الميزة التى تستفيد منها الولايات المتحدة وهى القذف الجوى دون التعرض للحد الأدنى من الخطر والامتناع عن إنزال قوات برية أمريكية على أن تقوم القوات الأوروبية التابعة والمرؤوسة بهذا الدور فى حال اللزوم.

رابعاً: توظيف قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والشعوب لمصلحة الخطة الأمريكية وذلك ما دامت الظروف قد أتاحت استغلالها فى خطاب موجه للرأى العام.

الفصل الخامس

العالم الثالث والعولمة

يتضح مما سبق أن العولمة الأمريكية لم تعد كما يعتقدها البعض اقتصادية فقط أو اقتصادية ثقافية تعمم النمط الأمريكي الاستهلاكي فحسب ، بل هي عولمة اقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية. والعولمة العسكرية تشكل عنصر القوة والضغط لإحياء عناصر العولمة الأخرى، وفي مواجهة هذا النمط من العولمة العسكرية فإن المطلوب هو إعادة بناء كتلة دولية ترفض مخطط الهيمنة الأمريكية ، ولعل كتلة عدم الانحياز ومجموعة الـ ٧٧ يمكن أن توفر الإطار المناسب للبدء في إنجاز هذه المهمة على أن تعطى الأولوية للنضال من أجل إنعاش هذه الكتلة وصياغة اقتراح يسعى إلى إضفاء مفهوم جديد للجبهة المطلوبة حتى تصبح كتلة عدم الانحياز في مواجهة العولمة الأمريكية ، إلى أن تتوافر شروط تبلور مشروع جنوبي جديد بفرض تكييف العولمة لمقتضيات إنعاش التنمية ، ولعل الدول النامية ومنها دول عدم الإنحياز ومجموعة الـ ٧٧ التى أصبحت الآن تضم ١٣٣ دولة قد استشعرت الخطر الذى سيجتاحها من جراء العولمة الأمريكية خاصة وأن ممثلى دول العالم الثالث في مؤتمر سياتل قد سمعوا أنين المريض الأوروبي الذى يحاول الإفلات من القبضة الأمريكية والتحرر من الصياد الأمريكية التى طالما استخدم سياطاً أغلظ منها فى تعامله مع الدول النامية أثناء مراحل استعماره لها ، ولا يزال يستخدمها حتى الآن، فالشعور بالخوف من أن تقع شعوب العالم الثالث تحت رحا العولمة واستشعار وتململ الدول الأوربية تحت الفيل الأمريكي الرابض على صدرها استضافت كوبا فى ٢٠٠٠/٤/١٢ أول قمة من نوعها لزعماء مجموعة الـ ٧٧ بمشاركة ٦٥ رئيس دولة لبحث تشكيل جبهة موحدة ضد العولمة ومخاطر التفاوت الهائل بين الأغنياء والفقراء .

وقد صرح آرثر مبانجو سفير نيجيريا بالأمم المتحدة ورئيس مجموعة دول ٧٧ بأن المشاكل الرئيسية التى ناقشتها دول المجموعة منذ إنشائها عام ١٩٦٤ مثل الفقر

والتفاوت بين الدول الغنية والفقيرة والفجوة التكنولوجية ما زالت موجودة ، بل وأصبحت أكثر عمقاً لسوء الحظ. (١)

وبالرغم من أن مجموعة الـ ٧٧ تكونت في عام ١٩٦٤ وهى الفترة التى ساد فيها نوع من الرواج بعد الحرب العالمية الثانية والناجمة على نحو أساسى عن تكيف رأس المال مع مقتضيات العلاقات الاجتماعية تحت ضغط العمل الشعبى والنقابى الداخلى وضغوط المنافسة مع الاتحاد السوفيتي ، ونمو الحركة الوطنية في العالم الثالث ، فإنها غير قادرة على تحقيق الحد الأدنى من الأهداف التى أنشأت من أجل تحقيقها ، ذلك لأن دول العالم الثالث والتى كانت في معظمها قد تحررت من نير الاستعمار العسكرى فإنها ظلت ولا زالت ترزح تحت نوع جديد من الاستعمار الاقتصادى والثقافى ، أضف إلى ذلك أن كثيراً منها تحولت إلى ساحات صراع وحروب خاضتها بالوكالة عن القطبين الأيديولوجيين اللذان برزا بعد الحرب العالمية الثانية ونتاجاً لها .

أما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى فإن الظروف المستجدة قد جعلت رأس المال يعود إلى أساليب فرض منطقه الآحادى الجانب من وراء ستار العولمة في معالجة أزمته الراهنة ، المتمثلة حالياً في الفائض الهائل من الأموال العائمة التى تبحث لها عن استثمارات جديدة مربحة وقادرة على توسيع قدراتها من أجل حماية النظام من خطر الخسائر التى قد يلحق بقيمة هذه الأموال وتبخيسها بشكل فجائى وضخم كما حدث في أزمة الكساد العظيم في الثلاثينات .

وفى ضوء هذه الخلفية أثبتت السياسات التى تضمنها خطاب العولمة الهادف إلى توفير مجالات الاستثمار واستيعاب الفوائض المالية ، واستخدمت مؤسسات " بريتون وودز " (صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، ومنظمة التجارة العالمية) الجات قبل ١٩٩٤، لهذا الغرض معتمدة في ذلك على أيديولوجية الليبريالية الجديدة التى تولتها دولاً صناعية غربية وبخاصة بعد نجاح مارجريت تاتشر في انتخابات عام ١٩٧٩ رونالد ريجان عام ١٩٨٠ ، ومارجريت تاتشر هى صاحبة مصطلح

---

(١) منير الحمش : النظام الإقليمى الغربى والتحديات الاقتصادية ، المستقبل العربى : العدد ٢٥٢، ٢/٢٠٠٠، ص ٤٦.

الخصخصة . أما فى البلدان النامية والبلدان التى كانت اشتراكية فقد تولى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى مهمة اجبارها على إتباع برامج التثبيت الاقتصادى والتكيف الهيكلى تطويعاً لها لمطالب العولمة ، ولو كان ذلك على حساب التنمية فى هذه البلدان[1].

وقد أدت سياسة برامج التثبيت والتكيف الهيكلى ومن خلال دراسات تناولت حالات وتجارب وطنية فى عدد من البلدان، ومن خلال النتائج التى أدى إليها تنفيذ هذه البرامج ، كما ورد فى الخلاصة التى توصلت إليها المحكمة الدولية للشعوب ، فى حكمها ضد مجموعة السبع الصادرة فى طوكيو عام ١٩٩٣ [٢].

١ـ ارتفاع نسبة البطالة فى العالم مع انخفاض عوائد العمل .

٢ـ تفاقم التبعية الغذائية وظروف البيئة تفاقماً خطيراً على الصعيد العالمى .

٣ـ تدهور النظم الصحية والتعليمية .

٤ـ تفكك نظم إنتاجية فى العديد من البلدان.

٥ـ استمرار تضخم عبء الديون الخارجية والتى بلغت الآن فى القارة الأفريقية وحدها ٣٦٨مليار دولار وفى الوطن العربى بلغت نحو ٢٧٠ مليار دولار .. الخ

من هنا تأتى الاستجابة لجرس الإنذار بالخطر الداهم على الجنوب (دول العالم المتخلف) الذى قد يمحى من على وجه الأرض دولاً كاملة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، الجرس الذى دوى رنينه فى هافانا ليجمع ٦٥ رئيس دولة منها ٣٠ رئيس دولة من القارة الأفريقية وحدها .

وتأتى أهمية اجتماع هافانا من كونه أول اجتماع قمة لقادة المجموعة على هذا المستوى منذ أن تأسست عام ١٩٦٤ داخل أروقة الجمعية العامة للأمم المتحدة كمنبر للتعبير عن دول العالم الثالث فى مواجهة الدول الغربية الصناعية المتقدمة ، وتزامنه مع قمة أفريقيا وأوروبا فى القاهرة الذى أنعقد فى أوائل إبريل أى فى نفس

(١) د. سمير أمين :فى مواجهة أزمة عصرنا ، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٧ ص ٩٥ وما بعدها.
(٢)المستقبل العربى ، مصدر سابق ص ٤٧.

الشهر من عام ٢٠٠٠، وانتهت إلى إبراز الفرق الشاسع بينما يريده الأفارقة من أوروبا وما تريد أوروبا أن تعطيه حسب شروطها هي . وتزامنت القمتين في مواعيد متقاربة مع الاجتماع المشترك للبنك والصندوق الدوليين والتي تكمن أهميته في أنه أنعقد وسط احتجاجات ومظاهرات صاخبة أعادت إلى الأذهان ما حدث في مدينة سياتل بأمريكا أيضاً خلال الاجتماع الوزارى لمنظمة التجارة العالمية في ديسمبر ١٩٩٩. التي وضعت واشنطن في مواجهة مع دول العالم الثالث وبعض الدول الغربية الصناعية التي استمدت دعمها من جماهير العمال والفلاحين والمثقفين والفقراء في جميع دول العالم، والذين توافدوا على مدينة سياتل الأمريكية وجنيف السويسرية ليعلنوا رفضهم وغضبهم وعزمهم على مواجهة العولمة الظالمة خوفاً على مصيرهم ومصير أولادهم وأسرهم من عسف الرأسمالية والشركات متعددة الجنسية التي سترمي بالكثير منهم إلى الشوارع عاطلين بعد استغناء هذه الشركات عن خدماتهم. ليصبحوا أفراداً معدمين ، وحتى أولئك الذين سيظلون في أعمالهم ستتضرر مكاسبهم وتنخفض أجورهم ، وهو الأمر لا يستطيع مروجو العولمة نكرانه . ففي كتاب " جنون العولمة " يكتب مؤلفوه الأربعة المتحمسون جداً للعولمة حرفياً وتحت عنوان التجارة والاختلال .

إن أى مناقشة لمنافع التجارة الأكثر حرية لا تكتمل بدون الإقرار بأنه ليس صحيحاً أن الجميع يكسبون من التجارة الأكثر انفتاحاً فتطبيق التكنولوجيات الجديدة التي تجعل الحياة أسهل وأكثر شراء ، تضر عادة بعض المنتجين الراسخين - وهكذا يفعل تحرير التجارة ، وإن كان على نطاق أصغر ، وتعانى الشركات والعمال الذين ينتجون سلعاً أو خدمات تحل الواردات محلها ، على الأقل من خسائر مؤقتة نتيجة للإقلال من الحواجز التجارية ، لكن يوجد من يشير بوقف التقدم التكنولوجي لأنه يؤثر بصورة معاكسة على العمال الذين ينتجون منتجات متقادمة . ولا ينبغى لنا أن نصرف النظر عن تحرير التجارة لأسباب مماثلة في الأساس ، بل يمكننا بالأحرى ، وينبغي لنا القيام بما هو مطلوب لمساعدة العمال والمؤسسات التي تؤثر عليها التجارة الأكثر حرية بصورة معاكسة لنجد لها مكاناً مزدهراً في اقتصاد أكثر ثراء . ويتمثل التحدى في نطاق وتوسيع الأسواق المفتوحة ، مع توفير الفرص للجميع للحصول

على التعليم والمهارات المطلوبين لتحقيق النجاح فيها [1]، وهو ما يجعل تحقيقه في الدول الفقيرة شبه مستحيل .

مؤتمر سياتل ومخاوف الدول النامية :

مع دخول اجتماعات منظمة التجارة العالمية أول أيامها في أوائل ديسمبر ١٩٩٩ والتي شاركت فيها ١٣٥ دولة ٨٠٪ منها في دول العالم الثالث بداء الشعور بخيبة الأمل يساور ممثلي الدول النامية الذين شعروا بأن العالم يجلس على فوهة بركان يحاصر دولهم من كل الجوانب ويهدد طموحات التنمية بمستقبل مأساوي لا مخرج منه الا بإقرار العدالة وإيجاد نوع من التوازن وعدم احتكار الأقوياء والأغنياء في الدول المتقدمة للنصيب الوافر من الأرباح والغنائم في ظل القواعد الاقتصادية والتجارية والنقدية العالمية التي زادت أكثر ضراوة وتوحشاً في العقد الأخير من القرن العشرين.

إن مفاوضات سياتل قد أثارت الكثير من مخاوف الدول النامية حول العديد من الموضوعات منها ما يرجع إلى اتفاقية دورة أورجواي والتي تم التوقيع عليها في جنيف في ديسمبر ١٩٩٣ [2]والتي أفرزت منظمة التجارة العالمية اعتباراً من أول يناير/١٩٩٥ وسلبياتها على أوضاع التنمية ، ولكن جانباً هاماً أثار المخاوف والصراع في نفس الوقت هو مطالبة الدول المتقدمة بالإعلان عن جولة عالمية جديدة للمزيد من التحرر في قطاعي الزراعة والخدمات اللذين يمثلان ثلثي الناتج الإجمالي العالمي وهو ما يؤثر على مستقبل الأوضاع الاقتصادية الدولية خاصة وأن الدول الكبرى تكاد تحتكر قطاعات الخدمات العالمية ، ومع تطورات الاقتصاد العالمي وتحوله للاعتماد المكثف على الثروة المعرفية والتكنولوجية واحتكار الدول الكبرى لنحو ٩٧٪ من براءات الاختراع العالمية وحركة رؤوس الأموال التي وصلت إلى ١٥٠٠ مليار دولار والقيمة الإجمالية للتجارة العالمية إلى ما يقرب من ٦٦٠٠ مليار دولار

---

(١) جاري بير تلس وآخرون بجنون العولمة ، ترجمة كمال السيد مركز الأهرام للترجمة والنشر: مؤسسة الأهرام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٤٠ .

(٢) منير زهران :في ندوة منظمة التجارة العالمية في سياتل ، المستقبل العربي، عدد ٢٥٦، ٦/٢٠٠٠، ص ١١٠ .

فى عام ١٩٩٨ منها ٨٠٪ تجارة سلعية بقيمة قدرها ٥,٣ ترليون دولار و ١,٣ ترليون دولار تجارة خدمات فى حين أن القيمة الإجمالية لتجارة السلع الدولية كانت لا تتعدى فى عام ١٩٤٨ ٥٨ مليار دولار .

وبالنسبة لحركة الاستثمارات تؤكد أوراق منظمة التجارة العالمية فى سياتل على أنها أحد الركائز الرئيسية لتجارة الخدمات الدولية ، فى الربع الأخير من القرن العشرين بمقدار ٢٧ مرة . وبمتوسط زيادة سنوية ١٧٪ ووصلت قيمتها الإجمالية إلى ٦٤٥ مليار دولار عام ١٩٩٨ مقابل ٦٠مليار دولار عام ١٩٨٥ و ٢٤ مليار دولار عام ١٩٧٣ وارتفعت قيمة الاستثمارات المباشرة ٨ مرات بالمقارنة عام ١٩٨٠ وبلغت قيمتها الإجمالية ٤١٠٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٨، فى حين بلغت الاستثمارات غير المباشرة فى البورصات ٥٤٤ مليار دولار، وكان متوسطها يبلغ ١٤٥ مليار دولار فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٤ وتضاعفها ثلاث مرات للدول المتقدمة.

وتكشف أوراق منظمة التجارة العالمية عن الأعباء المنخفضة التى تتحملها اقتصاديات الدول المتقدمة فى حالة فتح أسواقها أمام الواردات من الدول الأقل نمواً والسماح بدخولها مع تمتعها بالإعفاء الجمركى لوارداتها من الدول الأقل نمواً لن تحملها الا أعباء تقدر قيمتها بنحو ١٢٣ مليون دولار من حصيلة جمركية إجمالية قدرها ١٧,٥ مليار دولار وأن جملة واردات أمريكا من هذه الدول البالغ عددها ٤٨ دولة ٦,٣ مليار تمثل ٠,٧٪ من جملة وارداتها السلبية .

وتشير أوراق منظمة التجارة العالمية إلى أن استكمال تنفيذ اتفاقيات دورة أورجواى مع عام ٢٠٠٥ سيؤدى إلى زيادة الناتج الأمريكى(١) بمعدل سنوى يتراوح بين ١٢٥و٢٥٠ مليار دولار سنوياً وهو ما يعنى زيادة القوة الشرائية للأسرة الأمريكية بما يتراوح بين ١٥٠٠و٣٠٠٠ دولار سنوياً ، إضافة إلى فرص العمل الجديدة التي وفرتها قطاعات التصدير فى أمريكا والتى تصل إلى ١,٣ مليون فرصة

---

(١) د.نبيل زكى أستاذ الاقتصاد بجامعة نيويورك فى حديث للنشرة الاقتصادية : قناة الجزيرة فى ٥/٥/ ٢٠٠٠ .

عمل في الفترة من عام ١٩٩٤-١٩٩٨ مع ارتفاع فرص العمل بمقدار ١٢ مليون وانخفاض نسبة البطالة من ٦,٢٪ - ٤,٥ وهي أقل نسبة للبطالة في الولايات المتحدة منذ ثلاثين عاماً.

وتشير تقارير سياتل إلى المنافع المحققة التي ستجنيها الدول المتقدمة مع إكمال تحرير التجارة في عام ٢٠٠٥ وتخفيض معدلات الحماية الجمركية بمقدار ٤٠٪ تبلغ قيمتها ٣٥٠ مليار دولار فيما يرتبط بالتجارة والنقل والخدمات الحكومية، بالإضافة إلى ٦٩,٦ مليار دولار فيما يتعلق بالدعم الزراعي و ٢٤ مليار دولار في قطاعي المال والأعمال وخدمات التشييد والبناء وهي جميعاً مجالات تصدرها الدول المتقدمة وتحتكر كل منافعها الضخمة.

وبالنسبة لتحرير الزراعة التي تتبناه الدول الصناعية الكبرى كمحور رئيسي في تحرير التجارة العالمية والذي أثار جدلاً في جولة أورجواي كما سبق وأن ذكرناه ، فإن أهميته الحيوية قد تضاعفت في مؤتمر سياتل خاصة وأن هذا القطاع يتمتع بدعم كبير في أمريكا وأوروبا للحفاظ على قدرته التنافسية في الأسواق العالمية ، تم الاتفاق على خفض هذه الحماية في دورة أورجواي في مراكش بالمغرب عام ١٩٩٤، وأعلنت الدول المصدرة عن استعدادها لتعويض الدول المستوردة الصناعية للغذاء . وهو ما يعني توفير موارد لها كانت مخصصة للدعم ويستفيد منها المستهلك المحلي والمستورد .

ويأتي على رأس قائمة الدول المصدرة للمنتجات الزراعية الولايات المتحدة بقيمة ٧٠ مليار دولار عام ١٩٩٨ تمثل ١٢,٦٪ وفرنسا ٤١ مليار دولار بنسبة ٧,٤ ٪ ثم هولندا ٣٤,٧ بنسبة ٦,٣٪ ثم كندا بقيمة ٣٠ مليار دولار ٥,٤٪ ومثلها تقريباً ألمانيا ثم تليها بلجيكا ولكسمبورج بقيمة ٢٠ مليار دولار وبنسبة ٣.٪ وبريطانيا بقيمة ١٩,٥ مليار وبنسبة ٣,٥٪ وأسبانيا ١٧,٥مليار بنسبة ٣,٢٪ وإيطاليا بقيمة ١٧ مليار وبنسبة ٣,١ كل هذه دول غربية أوربية على رأسها أمريكا وفقط دولة واحدة شذت عن القائمة هي البرازيل التي تبلغ صادراتها من المنتجات الزراعية ١٧ مليار دولار وبنسبة ٣,١٪ من الإنتاج العالمي.

وإذا ما نظرنا إلى هذه الأرقام الخاصة بقيمة الصادرات الأمريكية والأوروبية من المنتجات الزراعية وقارنا ناتج هذا القطاع السنوى مع إجمالى الناتج القومى لدولة فى العالم الثالث لوجدنا أن ناتج لكسمبورج من القطاع الزراعى وحده يفوق الناتج القومى لدولة فى العالم الثالث يبلغ سكانها أكثر من ٤٠ مليون نسمة ويفوق الناتج القومى الإجمالى للجمهورية اليمنية مثلاً التى يصل عدد سكانها إلى أكثر من ١٨ مليون نسمة بحوالى ٨ أضعاف ، وهذه الأرقام بطبيعة الحال لا تثير المخاوف والتحفظات لدول العالم الثالث فحسب بل تمثل فاجعة وكارثة كبرى لمستقبل أكثر من أربعة مليار إنسان يمثلون نسبة ٨٠٪ من سكان العالم .

وحول إلزام الدول الموقعة بالقواعد التى أقرتها اتفاقية أورجواى وبفترات السماح الانتقالية المقررة للدول النامية حتى عام ٢٠٠٠ وللدول الأقل نمواً حتى عام ٢٠٠٥ وخاصة ما يرتبط بتطبيق القواعد المتشددة لاتفاقية حقوق الملكية الفكرية "تريس" التى تمثل قيداً كبيراً على نقل التكنولوجيا والمعارف الفنية المتقدمة يجعل الدول النامية تشعر بالغضب الشديد والتحفظ إزاء تنفيذ هذه الاتفاقات التى هى غير قادرة على تنفيذها أصلاً.

ولأن حالة التحفظ والألم والإعلان فى الاجتماعات والتجمعات الدولية والمنظمات العالمية عن شعورها بالحسرة والغضب من أوضاع عدم عدالة النظام الدولى بجميع مفرداته ومكوناته لم يكن مجدياً، فقررت التحرك فى اتجاه اتخاذ مواقف أكثر إيجابية فكانت قمة هافانا مكرسة لمحاولة وضع استراتيجية لدول الجنوب تعزز مشاركة هذه الدول فى الاقتصاد العالمى .

وطالب إعلان القمة بتطبيق مجموعة من المقترحات لإصلاح النظام المالى الدولى وضمان مشاركة أكبر للدول النامية فى صناعة القرار بالمؤسسات المالية والحد من التقلبات التى تضر باقتصاد الدول الفقيرة وتشجيع الاستثمارات فى العالم الثالث والحد من التدخل فى السياسات الداخلية لهذه الدول.

وقد تعهد زعماء المجموعة بالعمل على مشاركة أكبر لدولهم فى صناعة القرار بمنظمة التجارة العالمية ومجلس الأمن الدولى التى دعت القمة إلى توسيع عضويته.

ودعت القمة إلى إلغاء الديون المعوقة للتنمية عن كاهل الدول الفقيرة مع التوسع فى تقديم المساعدات الحكومية ، وطالبت بمنح منتجاتها فرصة أكبر للوصول إلى أسواق الدول المتقدمة ، وأشار البيان إلى ضرورة تحرير القواعد الخاصة بحركة العمال من بلد إلى بلد آخر ، بالصورة التى تعكس تحرير سياسة تدفق رؤوس الأموال[1] وتحريكها بحرية وبسرعة فائقة فى مختلف أنحاء العالم التى ترغب التحرك فيه .

وعن دور المجموعة فى المحافل الدولية طالبت بتوسيع دور مجموعة الـ ٧٧ بتوسيع دورها وتعيين متحدث رسمى باسمها لطرح قضايا الدول النامية أمام المجموعات الدولية مثل منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى وغيرها وطالبت المجموعة الأمم المتحدة والمنظمات الأخرى بتشجيع نقل التكنولوجيا إلى الدول الفقيرة ، ودعت إلى توسيع دائرة التبادل المالى والتعليمى بين دول المجموعة .

وقبل عدة أشهر من انعقاد الاجتماع الوزارى لمنظمة التجارة العالمية فى سياتل كانت مجموعات مختلفة من الدول قد أعلنت مواقفها بشأن القضايا التى ستطرح على مؤتمر سياتل، فقد طالبت الدول الأفريقية ودول منطقة الكاريبى والمحيط الهادى فى اجتماع قمة ضم ٧١ من قادة هذه الدول بعدم المساس بالميزات التجارية الممنوحة لها باعتبارها من الدول الأكثر فقراً فى العالم وركزت على ضرورة منحها معاملة تجارية تفضيلية وإزالة جميع الحواجز التعريفية التى تفرضها الدول المتقدمة على صادراتها ، كما طالبت هذه الدول فى اجتماع فى سانت دومنجو باحترام المميزات المقررة لها فى التعامل مع دول الاتحاد الأوروبى بموجب معاهدة " لومى " وعدم إلغاء هذه المميزات بحجة تناقضها مع قواعد منظمة التجارة العالمية [2].

وليس هناك من شك فى أن الاجتماع الوزارى الثالث لمنظمة التجارة العالمية فى سياتل قد فشل فشلاً ذريعاً ومدوياً ، إذ فشل المؤتمر فى إصدار " بيان ختامى " ، يجدد أسلوب وأدوات عمل المنظمة مع بداية الألفية الثالثة ، كذلك فشل فى إطلاق جولة جديدة من مفاوضات تحرير التجارة كما كان مقرراً ، ولعل من أهم نتائج

---

(١) الأهرام " ووكالات الأنباء " ٢٠٠٠/٤/١٥

(٢) د. محمود عبد الفضيل " العولمة " وعالم ما بعد سياتل ، الأهرام ١٦ ديسمبر ١٩٩٩.

معركة سياتل كما أطلق عليها أن أية جولة جديدة من جولات التفاوض حول مزيد من تحرير التجارة الدولية لن تتم بالسهولة التى كانت تتصورها الولايات المتحدة . وجاء فشل مؤتمر سياتل أمر طبيعياً ، نظراً لعدم احترام التوازن فى المصالح بين الدول النامية والدول المتقدمة ، إذ أنه فى كل جولة تفاوضية يتم تحميل وإرهاق الدول النامية التى تمثل ٨٠٪ من عضوية المنظمة بمزيد من الالتزامات والاستحقاقات دون الاستفادة من تحرير التجارة بما يتوازى مع حجم تلك الالتزامات الثقيلة.

وفى طوكيو علقت الصحف اليابانية قائلة بأن فشل المؤتمر ألقى مياهاً باردة على الثقة المفرطة التى أبدتها الولايات المتحدة. وجاء فى صحيفة " أساهى مشيمون " أن المؤتمر كان فرصة للدول المتقدمة والنامية لكى تقول " لا " للولايات المتحدة التى اتصفت تصرفاتها بالأنانية والصلف والغرور لكونها القوة العظمى الوحيدة فى العالم.

ولعل الشعار الذى رفعه المتظاهرون ضد مؤتمر " سياتل " لا نريد تجارة حرة ، بل نريد تجارة عادلة ، يلخص جوهر المشكلة ، إذ أن الفرق بين تجارة حرة وتجارة عادلة يحمل العديد من المعانى والتداعيات ، فالحرية التى لا تعود إلى العدل والإنصاف ليست سوى شعار براق لا يحقق الاستقرار والتوازن على الصعيد العالمى .

العرب والدول النامية :

واجه العرب منذ بداية الكشوفات الجغرافية تحديات الاستعمار الأوروبى الذى بسط نفوذه على قارات العالم القديم ، وقام باكتشاف العالم الجديد واستعماره وتعرضت الأمة العربية لكل أشكال السلب والنهب والاضطهاد مثلها مثل بقية دول ما أصبح يعرف بالعالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية ، وكانت المنطقة العربية ساحة صراع بين الدول الاستعمارية الأوروبية والدولةالعثمانية أستمر مئات السنين حتى حسم هذا الصراع ، بانتصار دول الحلفاء على دول المحور فى الحرب العالمية الأولى التى جاءت نتيجة لدخول الدول الأوروبية الاستعمارية المرحلة الأولى فى التطور الإمبريالى الهادف إلى اقتسام العالم، فكان أن تقاسمت بريطانيا وفرنسا التركة العثمانية فى المنطقة العربية بعد أن نكثت بوعودها وخدعت [الشريف حسن]

الذى قدم لها كل المساعدات فى حربها مع تركيا مقابل استقلال المنطقة العربية، وقسمت سوريا إلى منطقتى انتداب فرنسية فى سوريا ولبنان وبريطانية فى فلسطين تحت إلحاح الأخيرة من أجل تنفيذ خططها الرامية إلى تهويد فلسطين ، بمقتضى وعد بلفور بإقامة وطن قومى لليهود فيها .

لذا فقد عين اليهودى الصهيونى " هربرت صمويل مندوباً سامياً على فلسطين بعد أن حصلت بريطانيا على اعتراف الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا بوعد بلفور فى معاهدة " سيفر "[(١)]، وكان أول اقتراح له على الحكومة البريطانية الإسراع فى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين [(٢)] التى قام بفتح أبوابها للهجرة اليهودية تحت حماية التاج البريطانى بعد أن كان الاهتمام الأول بالمسألة اليهودية فرنسياً بدأ مع حملة نابليون على مصر وإشهاره الورقة اليهودية أثناء حصار جيوشه لمدينة عكا فى فلسطين ، وبدعوته إلى عقد مجمع يهودى عام ١٨٠٧ وإصدار فرنسا نشرة "المسألة الشرقية الجديدة " عام ١٨٦٠ وتأسيس الاتحاد الإسرائيلى العالمى فى باريس ، وهو الاتحاد الذى أنشأ مدرسة " تكفة إيسرائيل الزراعية " قرب يافا عام ١٨٧٠ بهدف تدريب اليهود على الأعمال الزراعية وتوطينهم على نطاق واسع فى فلسطين[(٣)].

وبدخول الانتداب البريطانى مرحلة جديدة من الاستيطان قام صمويل وبمساعدة الصهيونية العالمية بالحث على شراء واغتصاب الأراضى من أصحابها الفلسطينيين وقمع الانتفاضات والثورات العربية ، وبناء المؤسسات الصهيونية والتى أصبحت نواة للدولة اليهودية دخل العرب مرحلة جديدة وفريدة من مراحل الصراع الذى لا مثيل له فى العالم ، فقد أصبحت الأمة العربية بين فكى كماشة الاستعمار الإمبريالى الفرنسى والبريطانى والاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى يزحف لاقتلاع الوجود العربى بمساعدة الأول وتشجيعه فهو يستهدف اقتلاع شعب وأمة

---

(١) داديانى : الصهيونية على حقيقتها: دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٩ ، ص ٢٢٧.

(٢) بيتر ما تستفيلد:تاريخ مصر الحديث والشرق الأوسط ، دار التقدم / موسكو ، ١٩٨٨ ص ٢٩٢.

(٣) عبد الوهاب الكيالى تاريخ فلسطين الحديث :مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت الطبعة الأولى ، بدون تاريخ ص ٣.

بكاملها من أرضها ليحل محلها ، ويحول نضال هذه الأمة من نضال ضد المحتل الأوروبى إلى صراع وجود مع الاحتلال الاستيطانى الصهيونى ومعهما معاً.

وبما أن الرجل الأوروبى الأبيض الذى أحتل الأمريكيتن وأستراليا وأباد أهلها وسكانها الأصليين ظل يبحث عن مصادر الثروة والاغتناء فى قارات العالم فقد أنشأ مستعمرات استيطانية فى أكثر الدول الأفريقية خصوبة وغناءً بمؤادها الأولية . مثل جنوب أفريقيا وزيمابوى وفى الوطن العربى مثل الجزائر إلا أنه يختلف عن الاستيطان الصهيونى : فى أن الأول لا يستند استيطانه إلى دعاوى تاريخية ودينية وبالتالى صاحب الأرض موجوداً ولو عبداً للعنصر الأبيض كما فى الجنوب الأفريقى وشبه عبداً يحاول إسناد الجزائر بحكم إدعاء فرنسا بأنها جزء منها ، بينما الثانى الصهيونى يسند مصادرته للأراضى الفلسطينية واستيطانه فيها إلى دعاوى دينية تلمودية وتاريخية وهذا هو ما يميز الوطن العربى عن العالم الثالث الذى يشترك معه فى كل ما تعرض له من ظلم وقهر لخمسة قرون مضت. فالقرن العشرين جعل العرب أكثر تعرضاً لظلم يستهدف وجوده ويعرضه للانقراض وتأتى المرحلة الثانية فى شراكة العالم العربى مع عالم الجنوب المضطهد بعد الحرب العالمية الثانية عندما أصبح الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية قوة تحسب لها الإمبريالية الاستعمارية الغربية ألف حساب، فبدأت مرحلة التحرر الوطنى فى القارات الثلاث : أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ومن ضمنها الوطن العربى بمساعدة القطب الاشتراكى الجديد الذى رفع شعار التحرر والاستقلال والعدالة والمساواة بين الشعوب ولكنه أى الاتحاد السوفيتى وقع فى تناقص صارخ بمشاركته مع الولايات المتحدة فى صياغة قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ رغم احتدام العداء بين الطرفين الذى أشتد مع بداية الحرب الباردة بينهما ، ثم الاعتراف بالكيان الصهيونى الوليد عام ١٩٤٨ الذى التقت حوله مصالح البروليتاريا مع مصالح الرأسمالية الإمبريالية فى إنشاء دولة استعمارية استيطانية فى الوطن العربى حيث وضعت كل من الدولتين فى استراتيجيتها أن تكون دولة إسرائيل ركيزة لها وجسر عبور إلى منطقة الشرق الأوسط والمنطقة العربية . فكان أن اعترفت الولايات المتحدة بالكيان الصهيونى بعد إعلانه بثلاث دقائق بينما انتظر الاتحاد السوفيتى عدة ساعات ليسجل ثانى دولة فى العالم اعترفت بالدولة الصهيونية المعلنة .

والمرحلة الثالثة مع بداية ملامح الانهيار السوفيتي التي بدأت تلوح في الأفق من خلال بروز الترهل الاقتصادي وانتشار الفساد على نطاق واسع في السنوات الأخيرة من قيادة بريجنيف .

ونظراً لأهمية منطقة الشرق الأوسط في الاستراتيجية الأمريكية ، ونظراً للمتغيرات التي استجدت بحدوث الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ والتي أظهرت عداءً شديداً لأمريكا بعد استيلاء الثورة الإسلامية على السلطة في إيران وحزب البعث في العراق ، وكلا الدولتين والنظامين يضمران العداء للولايات المتحدة ويتمتعان بقوة اقتصادية وعسكرية يحسب حسابها، لذا عمدت السياسة الأمريكية إلى توسيع الشروخ التي كانت قد بدأت تظهر على جدار العلاقات بين البلدين فأدخلتهما في أتون حرب طاحنة استمرت ثمان سنوات قضت على الأخضر واليابس وأعادت البلدين قرن كامل إلى الوراء ، وعندما لاحظت الولايات المتحدة أن الاتحاد السوفيتي بدأ يتهاوى بعد تصدع أركانه قررت أن تكون المنطقة العربية هي ساحة الاحتفال بتنصيب نفسها قائدة للنظام العالمي الجديد وعلى أنقاض النظامين الاشتراكي والعربي في وقت واحد، فاختلقت مشكلة بين العراق والكويت لا وجود لها أصلاً وظلت تغذيها حتى انتهت باحتياج الجيش العراقي لدولة الكويت الذي أعطى مبرراً لتدميره وتدمير البنية التحتية العراقية وأرجعت الشعب العراقي إلى حياة القرون الوسطى ، وبهذا تنفست إسرائيل الصعداء بعد أن أزيح كابوس النظام العربي كله فحققت أهدافها وأهداف الولايات المتحدة الاستراتيجية من الحرب على مستوى المنطقة والعالم ومن هذه الأهداف :

١- حماية المصالح الأمريكية والسيطرة على منابع النفط وتصديره وممارسة الضغوط على الدول المستوردة له .

٢- إبراز جبروتها وقدرتها في قيادة النظام العالمي الجديد من خلال حشد قوة أكثر من ٣٢ دولة ضمها التحالف الدولي ضد العراق .

٣- إجراء التجارب على أسلحتها الحديثة التي لم يسبق ظهورها من قبل وفي معركة حية أرادت بها إرهاب الدول القوية المشاركة لها في التحالف قبل غيرها.

٤- تدمير الجيش العراقى وإخراجه من حساب القوى العربية الشاملة تحقيقاً للأهداف الصهيونية التى كانت ترى فى وجوده بالقوة التى كان عليها قبل حرب الخليج الثانية خطراً يهدد طموحاتها التوسعية والاستيطانية فى المنطقة .

٥- ضرب النظام العربى وتكريس شرعية الكيان الصهيونى فى المنطقة من خلال النظام الإقليمى الشرق أوسطى الذى يعتبر نواة للعولمة الأمريكية الصهيونية تنفيذاً لخطط صهيونية صيغت فى بروتوكولات حكماء صهيون هدفها سيطرة الصهيونية على العالم اقتصادياً وثقافياً وسياسياً.

٦- إصدار شهادة الوفاة للنظام العربى من خلال دمجه ضمن دول معادية للعرب وموالية للولايات المتحدة حتى تضمن سيطرتها على المنطقة وإحكام قبضها على ثروتها النفطية والنقدية والتى وصلت إلى أكثر من ٨٠٠ مليار دولار فى البنوك الأمريكية .

٧- تحجيم دور المجموعة الأوروبية وجعلها دولاً تابعة وتقليص دور العملاقين الاقتصاديين الناشئين اليابان وألمانيا واللذين أصبحا يشكلان خطراً على الاقتصاد الأمريكي وينافسانه فى الأسواق العالمية ، خاصة وأن اليابان أصبحت منافساً قوياً للولايات المتحدة فى مجال تصنيع وتسويق التكنولوجيا الإلكترونية وتكنولوجيا ثورة المعلومات التى تعتبر قاعدة ارتكاز العولمة بعد أن كانت حكراً على أمريكا لعدة عقود مضت .

٨- التحكم فى الموقع الاستراتيجى الذى يتمتع به الوطن العربي والسيطرة على مداخل بحار ومحيطات العالم من خلال إحكام سيطرتها على مضيق باب المندب وقناة السويس .

ومن الأمور التى تستدعى الوقوف عندها طويلاً هو أن الغرب وحتى اللحظة الراهنة لا يزال ينظر إلى العرب وإلى دول الشرق الإسلامية بنفس نظرة هرتزل[١] الذى قال بأن إقامة دولة اليهود فى فلسطين ستشكل حاجزاً بين الغرب المتقدم والشرق الهمجى. وبعد قرن كامل تأتى تصريحات "كلينتون" لتؤكد مقولة هرتزل حيث قال بأن إسرائيل وأمن إسرائيل دعامة رئيسية فى سياسة الولايات

---

(١) Robin wright old ways falling but new order is still working, Los Angelos Times, June 26, 1991.

المتحدة وأنه سيحرص دائماً على أن تبقى إسرائيل متفوقة فى المنطقة اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً[(١)] فى الوقت الذى تتولى فيه الولايات المتحدة إدارة عملية سلام الشرق الأوسط دون السماح بإشراك غيرها ، بما فيها الجامعة العربية صاحبة الشأن الأول فى هذه العملية. [(٢)]

ولكى يكون جوهر تطابق الأهداف الصهيونية الأمريكية فى المنطقة أكثر وضوحاً لابد من المرور على بعض طروحات شيمون بيريز الذى طالما اعتبره بعض القادة العرب المنقذ للسلام والمخلص للمنطقة من صراع مرير طال نحو قرن من الزمان، وأنجر وراء هؤلاء البعض من القادة بعض المثقفين العرب الذين أطلقوا عليه "أو نعتوه" بقائد سرب الحمام في الدولة الصهيونية:هذا الصهيونى العنيد قائد سرب حمائم السلام استوحذ عليه الخوف من الأصولية الإسلامية كما سماها وسيطرت على مجمل أفكاره التى عبر عنها فى كتابه "الشرق الأوسط الجديد" وكرر الكتابة عن هذا الخطر المزعوم فى أكثر من دورية وصحيفة وفي خطاباته ولقاءاته فى أكثر من مناسبة ومتى أتيحت له فرصة التشهير بالإسلام ووصمه بالإرهاب وزعزعة الاستقرار ليس فقط فى الشرق الأوسط ولكن فى كل بقعة من بقاع المعمورة. ولم يفوت الفرصة أثناء انعقاد مؤتمر شرم الشيخ فى ١٣ مارس ١٩٩٦ بمبادرة أمريكية صرفة استهدفت جلب التعاطف العالمى مع إسرائيل بعد العمليات الجهادية الفلسطينية التى مثلت عمق انفصال الموقف الشعبى والفكرى عن المواقف الرسمية العربية، وبخاصة فى تلك البلدان العربية المتحالفة بالتبعية مع الولايات المتحدة. فقد أصر بيريز على أن ينعقد المؤتمر تحت مسمى "مؤتمر مكافحة الإرهاب الإسلامى" وأخيراً عقد المؤتمر لمقاومة الإرهاب العربي تحديداً بزعامة أمريكية قوية، فقد أثار مقتل ٦٣ صهيونياً [(٣)] الشعور فى الضمير الأمريكى والأوربي، بينما استشهاد الآلاف من العرب وقتل الأسرى ودفن البعض منهم أحياء وتكسير عظام الأطفال الفلسطينيين وتقنين التعذيب قضايا لا تستحق الالتفات إليها. وحتى لا نكون فى غفلة عن أسباب تدهور

---

(١) أحمد شاه : السلام الأمريكي إلى أين ؟مجلة الطريق،العدد الثانى ، بيروت، مارس - أبريل ١٩٩٦، ص ٣٣.

(٢) جريدة تشرين السورية ،دمشق ،١٢/١٢/١٩٩٥م.

(٣) د. عبد العاطى محمد قمة شرم الشيخ وآفاق السلام والأمن بالشرق الأوسط، السياسة الدولية ، العدد ٢٤، أبريل ١٩٩٦ ، ص ١٣٩.

حال الأمة العربية فإن ما أصدرته بعض الأنظمة العربية من بيانات رسمية تدين العمليات الاستشهادية وتصفها بالإرهابية قد أيقظ الضمير العربى وحول الغفوة إلى صحوة لسيما وأن الأوساط الشعبية والفكرية رأت فى العمليات الانتحارية الرد الفعال على الإرهاب الصهيونى، واعتبرته عملاً مشروعاً وبطولياً يجب مساندته .

وحتى لا ننسى ونحن العرب أصحاب ذاكرة ضعيفة بأن داعية السلام وحمامته شيمون بيريز هو الذى ارتكب مجزرة "قانا" اللبنانية وقتل ١٢٠ طفل وعجوز وامرأة حامل فى عقر دار الأمم المتحدة بعد أن لجأوا إلى قاعدة قوات حفظ السلام الدولية فى قرية قانا من قصف الطيران الإسرائيلي فأمر داعية السلام هذا وكان رئيس وزراء الكيان الصهيونى بإمطار القاعدة والملجأ بوابل من قذائف المدفعية التى دمرت الملجأ ودفنت نصف الشهداء أحياء تحت الأنقاض فى عملية تخجل من فعلها النازية. ومع ذلك ظل هذا الإرهابي الصهيونى حمامة سلام فى نظر بعض القادة العرب، بل وذهب البعض إلى ما هو أبعد من ذلك، حين حضروا افتتاح معهد بيريز لسلام الشرق الأوسط فى القدس المحتلة بعد ارتكابه المجزرة الآثمة. وقد تعود بيريز على الدوام وفى كل المناسبات والمنتديات والمحافل الدولية على تحقير العرب والتشكيك فى قدراتهم لمواكبة العصر والتركيز على تخلفهم وعدم قدرتهم على استغلال وإدارة ثرواتهم وإمكاناتهم فى الطريق الصحيح ، مؤكداً دائماً أن إسرائيل وحدها هى القادرة على إدارة المنطقة اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً(حضارياً) ..غير أنه ذهب فى خطابه أمام منتدى دافوس المنعقد فى ٣٠ يناير ٢٠٠٠م إلى ما هو أبعد من كل هذا، فقد كان له أن ينادى بالعالم العربي إلى قبول الصهيونية رائدة التقدم إذ قال " لا نريد أن نكون جزيرة ثراء وسط وحل من الفقر أو بلداً نقياً يغرق فى منطقة ملوثة ومحيط قذر، نعم والفقر والتلوث بطبيعة الأمر من سمات العالم العربي الذى تكره أن تراه"(١).

ورغم أن المؤتمر مكرس للجانب الاقتصادى فى المقام الأول فقد استمر شمعون بيريز بعنجهيته التقليدية واحتقاره العنصرى العميق للعرب وطالب بإدراج

---

(١) د.أنور عبد الملك : صحوة الأمم : نهضة الحضارات : الأهرام ٢٠٠٠/٢/٨م .

قضية التعليم والتربية على جدول أعمال المنتدى مما دفع وزير الخارجية المصرى عمرو موسى وهو الذى عودنا على مواقفه الوطنية الغيورة من "الدار البيضاء" إلى "دافوس" أن يقف فى مواجهة هذا الطلب الذى يستهدف فى المرتبة الأولى تكريس وتعميق التطبيع.

الإسلام وبيريز وفريدمان :

قلت وأقول دائماً وكما سبق وحذرت فى كتاباتى وبحوثى العلمية من أن العروبة والإسلام هما الهدفين الرئيسيين فى مخطط الاستراتيجية الأمريكية الصهيونية الرامية إلى القضاء عليهما أو الحد من نفوذهما وتأثيرهما على مستوى منطقة الشرق الأوسط والعالم. إنهما يشكلان هاجس خوف ورعب وجدار منيع يحولان دون تحقيق المخططات الصهيونية والإمبريالية العالمية : لذا فلا نستغرب أن يلتقى شمعون بيريز وتوماس فريدمان فى رءية واحدة حول الإسلام والذى أساسه العروبة وموقعهما منه، فإذا كان بيريز قد جعل شغله الشاغل معاداة الإسلام ومحاولة النيل منه بنعته بالإرهاب والتخلف ووصف العرب بنفس الأوصاف وأضاف إليها وصف القذارة كما سبق وذكرناه، فإن فريدمان وهو بوق من أبواق الصهيونية العالمية العنصريين الكارهين لكرامة الشعوب العربية والإسلامية وهو شخصية صحفية مرموقة ومؤثرة، وتأثيرات فريدمان لا ترجع فقط إلى تأثيرات مقالاته السياسية والثقافية داخل أمريكا وخارجها بحكم اتصاله الوثيق بدوائر صناعة القرار الإسرائيلى، خصوصاً جناح ما يسميه بعض القادة العرب بالحمائم، وكذلك بخبرته الشرق أوسطية وعلاقته بدوائر صنع القرار العربي. ومن الطبيعى حين يأتى فريدمان أو من فى مستواه إلى منطقتنا العربية تفتح أمامه الأبواب واسعة. ولكن مظاهر الاحتفاء فى زيارته الأخيرة فى مطلع عام ٢٠٠٠ فاق كل التصورات خاصة وأن العرب مصابون بعقدة الخواجة والخواجة الأمريكى على وجه الخصوص، أما إذا كانت أمريكية صهيونية فمدد وتكلم بلا حرج حسب تعبير سيدنا أبى حنيفة.

وقد جاءت مظاهرات الاحتفاء مصحوبة بخمس ندوات ارتبطت فى معظمها بصدور الترجمة العربية لكتابه السيارة ليكزس وشجرة الزيتون الذى يروج فيه للعولمة بحماس شديد وكما قلت إننا ننبهر بالقشور وتخدعنا العناوين، فقد انبهر المثقفون

والصحفيون العرب بعنوان هذا الكتاب دون أن يقرءوه أو يعرفوا محتواه. لقد جرفتهم السيارة "ليكزيس" وراءها وهى التى ترمز إلى العولمة التى تمشي بسرعة الضوء، ويرمز بشجرة الزيتون إلى العالم القديم :عالم ما قبل العولمة. لا يمكن تفسير الشئون العالمية اليوم إلا باعتبارها تفاعلاً متبادلاً بينما هو حديث جداً مثل الموقع على شبكة الانترنت وما هو قديم قدم شجرة الزيتون ذات العقد على ضفاف نهر الأردن.

لقد كانت مهمة فريدمان الأخيرة إلى العالم العربي هى الترويج للعولمة المتوحشة التى يدافع عنها بحماس يلقى من أجله النقد داخل أمريكا نفسها ولكن حماسه لإسداء النصح والتحقير للعرب على المضى فى السير بسرعة نحو العولمة عبر الخصخصة وفتح الأسواق العربية أمام الشركات الأجنبية وخاصة فى صناعة تجميع السيارات التى ستحول اتفاقية الجات بعض المصنعين أو كلهم إلى مستوردين لعدم قدرتهم على المنافسة (1) حسب ما جاء على لسان عبد المنعم خليفة أحد المسئولين الرئيسيين فى هيئة التصنيع العربية.

ومما أفصح عنه فريدمان وبكل وقاحة وصلف أثناء زيارته للقاهرة هو دعوته إلى أن تصبح مصر "تيوان" أخرى بعد انحسار دورها وانحسار رسالتها والتوهان المتفشي بين صفوفها والصفوف العربية الأخرى. ذلك أنه حسب رأيه، يجب أن يتم بمجرد أن يتم الصلح مع سوريا وتسوية المشكلة الفلسطينية حسب المخطط.

ويؤكد فريدمان إنه مع احتمالات قرب توقيع سوريا وإسرائيل اتفاق التسوية فإن النخبة السياسية فى مصر أصبحت تتساءل، هل هناك حياة لمصر بعد السلام ؟! ويضيف فى مقاله هذا الذى نشره فى صحيفة النيويورك تايمز يوم ٢٠٠٠/١/٢١ تحت عنوان " دور مصر فى الشرق الأوسط " إن مصر قادت العرب فى الحرب ضد إسرائيل ثم قادتهم للسلام مع إسرائيل وقد انتهى دورها بعد تحقق السلام فما الذى يمكن أن تقوم به إذن.

ويضيف فريدمان فى مقاله هذا بأن مصر لم تعد قادرة ولا تمتلك الإمكانات العصرية التى تكفل لها الاستمرار فى دورها القيادى فى ظل انفتاح إسرائيل على

(١)مقابلة مع عبد المنعم خليفة مدير عام هيئة التصنيع العربية أجرته الأهرام ونشرت فى ٥/٥/ ٢٠٠٠م.

العرب والعرب على إسرائيل "الدولة العصرية" السيارة "ليكزس" وفي ظل ضياع النفوذ المصرى السياسي والاقتصادى وانتهاءً بالتأثير الثقافى والإعلامى والسينمائي فإن على مصر أن تعيش مجرد العيش وليس القيادة فى العصر الجديد وخلاصتها الالتحاق سريعاً بقطار العولمة[1] الذى تقوده الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تصبح تيوان المنطقة وضرورة اكتفائها بدور التابع، وحول محاولته الإساءة للإسلام والعروبة ومصر يكشف عن حقيقة حقده على الثلاثي المذكور فى مقال نشرته جريدة نيويورك تايمز أيضاً يوم ٢٩/١/٢٠٠٠ تحت عنوان "الدفع بالعولمة فى أرض المصاعد التى تحركها الصلوات" يقول أنه ذهب لزيارة وزير الاقتصاد المصرى يوسف بطرس غالى خريج معهد ماسوسيتش للتكنولوجيا ويصف زيارته قائلاً "وعندما وصلت إلى المصعد رأيت عامل المصعد، وهو فلاح مصرى ينتظرنى أمام الباب وقد فتحه بمفتاح ..ولكنه قبل أن يستعمل المفتاح ليأخذنى إلى مكتب الوزير بالطابق العلوى راح يتلو الآية القرآنية "بسم الله الرحمن الرحيم". يتعجب هذا الصهيونى الفج كيف يمكن فى مبنى عصرى أن يتلوا عامل آية قرآنية أو كلام دينى وهو ينقل الضيف إلى الطابق الفوقى : ويضيف قائلاً هذا هو التناقض، هذا هو وزير الاقتصاد على أرفع مستوى من الإبداع ودفع عملية العولمة فى مصر وهذا عامل المصعد ينطق بصلاة قبل أن يقودنى إلى مكتبه".

إن فريدمان وغيره من الأمريكيين يصطدمون بإشكالية التراث والمعاصرة، الخصوصية والعالمية وهو وأساتذته بها على جهل وجهالة مذهلة، ويضيف قائلاً فى المجتمعات التقليدية تكون الجماعة أهم بكثير من الفرد، بحيث أن العولمة تعنى لهم ليس فقط أن يضطروا إلى أكل سندوتشات ماكدونالدز، وإنما أن يغيروا العلاقة بين الفرد من ناحية وجماعته من ناحية أخرى مما يدفع بمجتمعهم إلى التفتت، وكذا أدركت يقول فريدمان "إن أيديولوجياتهم السابقة ـ القومية العربية هى والاشتراكية والفاشية أو الشيوعية ـ كانت تمنحهم قوة هيامية افتقدوها فى التوجه الاقتصادى، إنك إذ تنادى أى مجتمع تقليدى بأن عليه أن يخفف من حجمه، ويخفض من مستواه، وقبل عالم الانترنت فإنك تقدم تحدياً لا يملك قوة الإحياء أو الإلهام. هذه مقالات فريدمان

(١) صلاح الدين حافظ :ترويج العولمة والترويج التيوانى لمصر : الأهرام ٢/٢/٢٠٠٠

وبعض التعليقات لمن قام بعرضها . أما صمويل هانتنجتون فيصر على أن الإسلام نفسه وليس المتطرفون الإسلاميون هم فقط الذين يشكلون خطراً على الحضارة الغربية، وتاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرناً يؤكد بأنه خطر على كل حضارة واجهها، خاصة المسيحية. وصحيح أن الهجوم على الغرب كثير وسط الأئمة والعلماء والإسلاميين المتطرفين لكن حتى من يسمون مسلمين معتدلين يهاجمون الغرب، ويبرز هانتنجتون تشنجه الشديد وعدم موضوعيته حين يستشهد بكتاب "الإسلام والديمقراطية" للكاتبة الجزائرية فاطمة مرتيسي: ويقول هذه تعتبر كاتبة ليبرالية وقد هاجمها بعض المسلمين لأنها انتقدت بعض الممارسات الإسلامية وتسائل : ماذا قالت عن الغرب ؟قالت إنه "مادى" و"انحلالى" و"عنجهى" و"عنيف". ويضيف قائلاً ما دام الإسلام سيبقى إسلاماً وليس هناك أدنى شك فى هذا، وما دام الغرب سيبقى غرباً، ولا يتوقع أحد أن يصبح الغرب شرقاً ـ سيظل الصراع قائماً بينهما كما ظل قائماً لأربعة عشر قرناً [(١)]

ويدعوا هانتنجتون إلى عدم الاكتفاء بمفهوم الصراع، بل لا بد من تحول هذا الصراع إلى مواجهة وذلك للأسباب الآتية:

أولاً : الزيادة المستمرة والهائلة فى عدد المسلمين فى كل أقطار العالم.

ثانياً : الصحوة الإسلامية والتمرد على السيطرة والثقافة القادمة من الغرب.

ثالثاً : زيادة النفوذ العسكرى والثقافى للدول الغربية.

رابعاً : سقوط الاتحاد السوفييتي ونهاية الشيوعية.

وخلافاً لما يراه البعض من الغربيين من أن الخلاف ليس مع الإسلام وإنما مع تطرف الجماعات الإسلامية، فإن هانتجتون وهو الصهيونى الذى ضمن غلاف كتابه صراع الحضارات الأكادميين الساسيين الصهاينة فقط من أمثال هنرى كيسنجر وزبينغو بريجينسكى يرى أن صراع اليوم ضارب فى القدم وأن الخطر ليس كما يعتقد البعض فى المتطرفين الإسلاميين وإنما فى الإسلام نفسه، ويضيف أن المسلمين

---

(١) من حديث مع د.صمويل هينتجتون أجراه فى واشنطن محمد على صالح: مجلة المجلة ، العدد ٨٩٦ من ١٣-١٩/٤/١٩٩٧.

مشغولون بالعنف وميالون لاعتماده حلاً للخلافات أكثر من غيرهم، ولذلك فإنهم يجدون صعوبة ليس فقط فى التعايش مع غيرهم وإنما أيضاً مع أنفسهم. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا بإلحاح هو: هل فهم العرب والمسلمون أنهم مستهدفون ؟ وهل لهم أن يتجنبوا مصير الهنود الحمر ويتوحدوا ضد الخطر المتربص بهم ؟ .

والحقيقة إننا نواجه واقع خطير وأعنى أنه فى حال تحقيق نبؤات هينتجتون وغيره فى تطبيق نظرية الأسوار العالية وفى حال استمرار التخلف العربي البائس فى الوقت الذى يركض فيه الآخرون بخطى حثيثة وقفزات هائلة على مدارج النمو والتقدم وامتلاك التكنولوجيا التى لا يملكها العرب ويعرفون أن الرجل الأبيض انتصر على الهندى الأحمر صاحب الأرض لأن الصراع كان بين تكنولوجيا متقدمة وحضارة بدائية مكنت البيض من استئصال الهنود وتحويلهم إلى فتات شعب بائد معزول فى تجمعات منقرضة[1].

والعرب الآن أمة عارية مكشوفة حضارياً مقتولة معنوياً لا تكاد تجد ما يستر عورتها ولا ما يرفع معنوياتها فى سباق التقدم العلمى التقنى والمعلوماتى حتى أن مفهوم الإبداع عند الأمة يظل محصوراً فى تفكيك الثوابت وهتك القيم والمقدسات . أما غايته فأن نقلد الغرب ونصبح نسخة منه، بينما هذا الموقف يجسد أزمة التقدم ومحنته، فحين ينطلق المرء من تقليد غيره فى الثقافة والفن والصناعة والسلوك وغيرها من مقومات الحضارة الإنسانية لن يتوفر له قوام حضارى خاص به .

(١) د. فوزى حماد : لكى نتجنب مصير الهنود الحمر /مجلة المصور ، عدد ١٩٩٩/٢/١٩ .

الفصل السادس

العرب وتحولات نهاية القرن العشرين

لكى لا نظل نحن العرب نعامة العولمة الجديدة : نغمر رؤوسنا فى التراب وتظل عوراتنا مكشوفة، لا بد من طرح سؤال هام، هل طلع العرب بدروس مستفادة من تفاعلات ومتغيرات العقد الأخير من القرن العشرين ؟

الجواب سهل وفى منتهى البساطة هو "لا" والسبب هو أن النظام العربي حتى يومنا هذا وبعد مضى عقد من الزمان غير قادر على مقاومة انهياره، فالقادة العرب أو بعضهم لم يستوعبوا بعد أن حرب الخليج الثانية المدمرة وتداعياتها على هذا النظام العربي جاءت فى سياق التحولات العاصفة التى انتهى بمقتضاها نظام دولى وحل محله نظام دولى جديد أصبح النظام العربي ضحيته.

لقد كان العرب ونظامهم الثمن المدفوع لإنجاح مسلسل المخططات الأمريكية والصهيونية. فكان على الأمة العربية أن تتلقى فى بداية تكوين هذا النظام ثلاث ضربات موجعة هي: (١)

أولاً : أن تستقبل مزيداً من المهجرين اليهود السوفيات للتوطين فى فلسطين على حساب أصحابها الشرعيين.

ثانياً : أن تقبل بتقديم رأس الشعب العراقى إلى مقصلة الامبريالية الأمريكية والأوربية وقرن كامل من عرق أبنائه.

ثالثاً : أن ترضى بالاحتلال الأمريكي المباشر لمنطقة الخليج والتحكم فى مصادر نفطه وتصديره ووضع التسعيرة على براميله.

وهكذا كان علينا نحن العرب ـ أن نقدم البراهين واحداً تلو الآخر حتى يجتاز الغرب محنته الذى نظمها لاعتصار ما تبقى من الاتحاد السوفييتى من مناعة ضد السقوط ، أو من عناصر جديدة لاستئناف المقاومة.

---

(١)عبد الإله بلقزيز :بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ..ما العمل ؟ المستقبل العربي ، العدد ١٥٤، ديسمبر ١٩٩١. ص ٥.

لقد قدمت هذه الضربات الثلاث ملامح الواقع الراهن للأمة العربية، فلقد تصدع النظام العربي لصالح النظام الشرق أوسطي والذى تزامن مع المحاولات المحمومة للتكتلات الاقتصادية فى مختلف بلاد العالم ، التى تتم كلها تحت إشراف ومشاركة أمريكية تمهيداً لفرض ما أطلق عليه أخيراً اسم " العولمة ".

والواقع أن إحياء النظام العربي وسيرورته تتوقف على ما تملكه وما تقدم له ولمؤسساته الأطراف الفاعلة فيه، من قدرة على التكيف الإيجابي، والإبداع والاجتهاد فى ابتكار الحلول المناسبة للمشكلات التى يتعرض لها والتى أدت إلى تصدعه.

ومن هذا المنظور يصبح التساؤل مشروعاً عن مصير الأمة العربية ونظامها الإقليمي القومى وعن قدرتها على مواصلة الحياة . والمحك الرئيسي لقياس هذه القدرة هو التغلب على أزماته والنمو والتطور، مع اكتسابه قدرات أفضل على التكيف الإيجابي من خلال عملية التغلب على الأزمات واكتساب مهارات البقاء التى أساسها التنمية البشرية واكتساب التقانة المتطورة والتعامل معها بثقافة علمية متطورة، وفى ظل ظروف يتحقق فيها الحد الأدنى على الأقل من الرفاه والديمقراطية وضمان حقوق الإنسان.

وإذا ما أردنا معرفة موقعنا نحن العرب من العالم والعولمة ومن الخطر الكامن فى النقيض الموجود فى عقر دارنا، هذا النقيض الذى ينافسنا فى كل شيء حتى فى وجودنا، فإن علينا استكشاف واقعنا من خلال المقارنة بين ما نملكه وما يملكه عدونا من وسائل العصر الكفيلة بجعل من يملكها الصدارة والسيطرة على الآخر .

العرب وإسرائيل : الإمكانات البشرية والتقنية :

يقول المثل القديم : إذا أردت أن تعرف الشيء، عليك أن تعرف نقيضه. والنقيض العربي هو نقيض من نوع خاص، إذ أن النقيض عادة ما يكون مكانه فى المواجهة أو على أحد الجانبين أو حتى فى الخلف، ولكن نقيض الأمة العربية موجود فى قلبها ويزحف فى كل الجوانب ليمتص دمها ويقطع شرايين حياتها. هذا النقيض الصهيونى الذى وضع الغرب استراتيجية إحلاله فى القلب العربي والإسلامى منذ هزيمته فى الحروب الصليبية.

إن تحـرك هذا السرطان ومحاولة انتشاره في الجسم العربي وتغلله في دم الأمة العربـية هو دلـيل عـلى أن بقـاء الجسـم حـياً مـع وجـود الـورم الخبيث في قلبه شيء من المسـتحيل أو أنـه المستحيل ذاتـه، فـالورم الخبيـث إمـا أن يستأصل وإما أن يترك ليمـتص الـدم ويـنهي خلايـا الجسـم فيصبح جثة هامدة تتغذى منها الكلاب والطيور الجارحـة. هذا هو حال الأمة العربية مع الكيان الصهيوني في فلسطين، والذي يفرض نفسـه عـلى الأمـة العربـية خـياران لا ثالـث لهما ، فإما الحياة بعد استئصال هذا الورم أو الاستسـلام والموت . وفـي اعـتقادي أن شـراذم القبـيلة اليهودية لم توقع اتفاقيات سـلام مـع الكنعانـيين ولا حتى مع الإمبراطور الروماني قبل أن يطردهم من فلسطين، وما أريد قوله هو أن ما حـدث ويحدث منذ أول اتفاقية سـلام مع الكيان الصهيوني يثبت بالدلائل القاطعة أن لا وجود للسلام ولا يمكن أن يكون أو يوجد في المستقبل ، ومـا جـرى ويجرى هو نوع من الخنوع والاستسلام في ظل ظروف فرضت على الأمة العربـية أو فرضـتها عـلى نفسـها. وإذا كـان الأمـر كذلـك فـلماذا لا يكـون الفعـل الصـهيوني قـدوة للعمـل العربي فتترك الأنظمة العربية عملية الحسم الكامل في قضية الصـراع العربي الصهيوني للمستقبل أي للأجيال القادمة حتى لو أصبحنا هنوداً حمراً : فالصـهاينة يسـندون وجودهـم فـي قلـب الأمـة العربـية إلى دعـاوى تاريخية أو دينية مزورة، أما الأجيال العربية القادمة فسندها هو الحق والأرض والدين واللغة والتاريخ مجتمعين مع لعنة الآباء ، إن لم يعملوا شيئاً لإثبات هذا الحق.

ونحسب أن سمات جوهرية يمكن أن يعمل عرب اليوم على تحقيقها كي تكون عـاملاً مسـاعداً للأجيال القادمة على حسم الصراع العربي الصهيوني، هذه السمات الـتي أصـبحت تشـكل الحقـبة التاريخية التي ترافق منابت العالمية أو العولمة، أي تداعي الحـدود بـين الـدول والمجتمعات والقومـيات وتعمـل عـلى التشـابك عـبر الأقطـار فـي كـيانات فـوق قطـرية وفـوق قومـية. في سياق حضاري غربي صهيوني، وسيادة العـلم والـتقانة الفائقـة الـتطور وفـي مقدمـتها المعلوماتـية والإيقـاع السـريع للـتطور والمنافسة الحادة.

وفـي تقديرنا أن العطاء البشري هو الفارق بين التقدم والتخلف خاصة إذا ما وضـع فـي سياق الـثورة المعرفية والتقانية التي تجتاح العالم. ولا يعتمد العطاء البشري عـلى الكـم وحـده، بل التنمية التي تحدد إمكانات المجتمع ويصبح الفيصل هو الكيف

البشـري. والفـارق فـى العطـاء البشـرى مـن مجتمع لآخـر هـو بلـورة الطاقة الكامنة فـى البشـر إلى مستويات راقية فى بعض المجتمعات وتوظيف هذه الطاقة لتحقيق عطاء فعـلى، وإعاقـة تـبلور هـذه الطاقـة وتبعثرها فـى الـبعض الآخر من المجتمعات، فيظهر العطـاء الفعـلى، وهـذه صـياغة أكـثر تحديـداً للفـارق بين التقدم والتخلف من منظور العطاء البشري نفسه .

ويوجـد تـرابط وثـيق بـين القـدرات البشـرية المتميزة (رأس المـال البشـري) وامـتلاك التقانة المتطورة، إذ لا يمكن قيام قدرة تقانية متطورة مـن دون توفر راس مال بشـري راق. ولكـن هـذا الشرط غير ممكن إلا بشروط مجتمعية مواتية تمتد إلى أعماق النسـيج المجـتمعى بوجـه عـام، وطبيعة البنية السياسية بوجه خاص، الأمر الذى يفرض بعداً مجتمعياً وسياسات، جوهرية على معالجة المواضيع المطروحة.

وفـى الحالة العربية يشكل مدى رقى التعاون العربي محدداً رئيسياً لقيام نهضة عربـية ومـن ثـم يمـتد الـبعد المجـتمعى والسياسـي مـنه، إلى مسـألة البشـر والـتقانة، إلى المستوى القومى الذى يشـمل العلاقات بين العرب، وعلاقاتهم بباقى العالم .

فـى هـذا المنظور القومى يظهر جلياً أن التحدى الصهيونى الذى هو تحد لكل العـرب، ولـيس تحـد للفلسـطينيين أو دول المواجهـة كمـا يتصور البعض، وهو تصور يحمـل بعـداً مأسـاوياً فـى حال تشرذم الأمة العربية الراهن. وذهنية التطبيع المنفرد مع العـدو الصـهيونى ومحاولـة الاندمـاج والتكامل مع الغرب الذى يرفض هذا الاندماج والـتكامل مـن مـنطلق الـرؤية الاحـتقارية لأصحاب هذه المحاولات. على حين تشكل إسـرائيل مـنذ بدايـة المشـروع الصـهيونى، كـياناً مـندمجاً عضـوياً فـى الغـرب. بل إن النجمـتان الحمـراء والـزرقاء تعانقـتا فى ظل القوة الغربية ، حيث تمكنت إسرائيل من اخـتراق سـور الصـين العظـيم بمـا تملك من تكنولوجيا متقدمة قادتها إلى صناعة حربية فائقـة الـتطور [1]، ولم تجـد الصـين الـتى يقطـنها أكـثر مـن سدس سكان العالم بدءً من الاعـتماد عـلى دولـة غايـة فـى الصغر والتقزم، لكى تستورد منها سلاحاً متقدماً رغم الاعـتراض الباهـت والخجـول للولايات المتحدة: وبصوت لا يكاد يسمع تمت صفقة طائرات التجسس الإسرائيلية بين الصين وإسرائيل.

---

(١) صلاح الدين حافظ : الأهرام ٢٠٠٠/٤/١٩ .

إذاً فالقضية ليست قضية كم في البشر أو مساحة أو موارد أو مواد خام، القضية تكمن في الكيف البشرى، فاليابان لا تملك مواد خام ولا ثروات طبيعية ولكنها ثاني دولة اقتصادية في العالم بينما أفريقيا قارة غنية في مواردها الطبيعية والبشرية ولكن يعيش أكثر من ٤٠٪ من سكانها تحت خط الفقر ، بل وتحصل بها مجاعات تبيد ملايين البشر من أبناء القارة ولا يتسع المجال للمقارنة فالأمثلة كثيرة وتشمل دولاً كثيرة في العالم، ولكن ما يهمنا هنا هو طرح مقارنة يمكن إعمالها للحكم على حال العالم العربي مع الكيان الصهيوني.

أولاً : السكان والأرض :

بلغ تعداد سكان الوطن العربى منتصف التسعينات ٢٥٠ مليون نسمة و ١٤ مليون كيلو متر مربع يتوزع عليها سكان الوطن العربى .

وبلغ سكان إسرائيل ٥,٥ مليون نسمة في منتصف التسعينات منهم نحو ٢٠٪ عرب ، ويتوزع سكان إسرائيل على نحو ٢٠ ألف كيلو متر مربع :

يظهر التفاوت في هذه المقارنة هائلاً لمصلحة العرب (قرابة خمسين ضعفاً في عدد البشر وأكثر من ستمائة وعشرة أضعاف في المساحة) ، غير أن كثيراً من النوعية تكيف هذه المقارنة البسيطة.

فعلى صعيد البشر: يوجد لكل طرف : العرب وإسرائيل امتداداً بشرياً خارجه . غير أن الكيف يتفاوت بين الشتاتين من حيث توظيف هذا الشتات لصالح إسرائيل ويختلف الشتات بين الطرفين من حيث العوامل المسببة له . فالشتات العربى نتج عن القهر الاستيطاني في فلسطين وتعدى إسرائيل على الأرض العربية على مراحل متتالية لعل أهمها تكون الشتات الفلسطيني بعد إعلان الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ ورفده بأجيال جديدة في كل حزب تاليه خاصة حرب ١٩٦٧[1].

وقد تشتت بعض العرب في بلدان العالم هرباً من القهر السياسي والظلم الاجتماعي خاصة منذ منتصف القرن العشرين إضافة إلى أن العقود الأخيرة من القرن

(١) سليمان الرياشي :قضية اللاجئين الفلسطينيين ، المستقبل العربى ، العدد ٢٥٢، ٢/٢٠٠٠ ، ص ٣٥ .

العشرين قد كونت شتاتاً بسبب اشتداد الضائقة الاقتصادية . غير أن الكفاءات العربية التي استقرت في الخارج بصرف النظر عن الأسباب . تمثل فصيلاً من الشتات العربي ذا أهمية واضحة لمسألة القدرات البشرية والتقنية .

أما الشتات الإسرائيلي فيعتبر الأشهر إذ أن يهود دول العالم خارج إسرائيل يمثلون رصيداً ضخماً للكيان الصهيوني تستفيد منه بالتمويل والضغط على مراكز صنع القرار في بلادهم . وبخاصة الولايات المتحدة وأوربا ـ والمشاركة في العمل التطوعي داخل إسرائيل بما في ذلك القتال المسلح عند الحاجة والمشاركة في بناء المؤسسات العلمية الإسرائيلية وانتهاءً بالنزوح للاستقرار في فلسطين : فكل يهودي حسب قانون العودة ، مواطن إسرائيلي .

وفي المضمار السياسي يعد تأثير اللوبي العربي غاية في الضآلة والتواضع خاصة في الولايات المتحدة التي وصل بها الأمر في الاستهانة بالعرب مؤخراً إلى حد تحذيرهم علناً من عدم شكوى إسرائيل في مجلس الأمن بسبب سعيها لتوسيع نطاق سيطرتها على القدس حتى لا تتكبد الولايات المتحدة عناء الفيتو .

وما يجب الإشارة إليه ، هو أن الشتات العربي وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية لا يجد له سنداً حتى يكون فعالاً ويتمكن من ممارسة نوع من الضغوط في مواجهة الشتات الصهيوني ، فهو يفتقر إلى الصلة بصناع القرار في الوطن العربي كما يفتقر إلى الدعم المادي المطلوب لبناء مؤسسات تخدم القضايا العربية ، بل الأدهى من ذلك أن الزعماء العرب يساهمون في قتل معنويات العرب المهاجرين والمتحمسين منهم لخدمة القضية العربية على وجه الخصوص عندما يتهافت بعضهم على الاجتماع باللوبي الصهيوني دون أن يلتفتوا إلى الجاليات العربية ، وهو ما يجعل الفاعلين في الجاليات العربية يشكون بمرارة (*).

وعلى عكس الشتات الإسرائيلي ، فهو يحظى بتواصل مستمر ، بل غالباً يقوم رئيس وزراء إسرائيل ورئيسها بزيارة خاصة إلى اللوبي الصهيوني للتشاور والتنسيق ولدعم الصلة بين صهاينة الخارج وقيادتهم في فلسطين.

(*)تكلم حول هذا الموضوع بمرارة المناضل والمواطن الأمريكي من أصل عربي جيمس زغبي في حوار مع قناة الجزيرة عام ١٩٩٩م .

ويشتهر العلماء اليهود بالتلاحم العضوى مع البنية المؤسسية للعلم والثقافة في إسرائيل حين يبقون خارجها ، وكذلك بتأسيس كثير من مبرزيهم لمؤسسات راقية في إسرائيل أو استقرارهم فيها .

كما توجد عوامل موضوعية تساعد على تفاقم المفارقة بين الشتاتين اليهودى والعربى منها التحيز السياسى الواضح لإسرائيل ، والتطور القديم والجديد المتسارع لبنية العلم والثقافة فى إسرائيل ، ويقابل ذلك فى الجانب العربى تخلف مؤسسة العلم وقيمته المجتمعية ، أى الأسباب التى دعت الكفاءات العربية إلى ترك الأوطان .

وفى هذا الصدد يقول فهمى هويدى ، " الكثير مما ذكره أحمد زويل على شاشات التليفزيون من أنه اختار أن ينسى السياسة (هل تقرأ فى ذلك هموم الوطن ؟) عند وصوله إلى أمريكا بعد نكسة ١٩٦٧ ، ولكنه رغم ذلك - سعى لمشاركة إسرائيليين فى مؤتمرات علمية فى مصر منذ الثمانينات الأولى ، ويعتز بأنه أصبح ثانى مصرى خاطب الكنيست الإسرائيلى بعد السادات ، ويعود الآن ليتحدث عن الدور الذى يمكن أن تقوم به مراكز العلم المتميزة فى مصر فى عملية التسوية والنظام الإقليمى فى الشرق الأوسط"(١).

لم يستقر مغزى أن إسرائيل فى النهاية ، كرمت الرجل قبل سنوات من أن يكرمه موطنه الأصلى على إنجازه فى أمريكا، ولا غرابة فاليهود هم أكثر العلماء نشاطاً وسطوة فى المحافل العلمية والعالمية - وفى الولايات المتحدة على وجه الخصوص ، والمؤسسة العلمية فى إسرائيل أشد التصاقاً بتطورات الأحدث فى العالم.

ويبرز ارتفاع توظيف القوى البشرية والقدرات البشرية ، فى التاريخ الاقتصادى حيث يفوق الناتج المحلى الإجمالى للفرد فى إسرائيل نظيره فى البلدان العربية مجتمعة وبمرور الزمن تزداد الشقة بين الجانبين فقد قدر الناتج المحلى فى إسرائيل أنه كان يزيد فى عام ١٩٧٠ على ثلاثة أمثاله فى البلدان العربية . وبعد مرور ربع قرن ، فى منتصف التسعينات ، وصل الفارق نحو سبعة أضعاف(٢).

---

(١) فهمى هويدى : جريدة الشعب ١٩٩٨/٧/٧.

(٢) UNDP Human Development Report, 1997 (New York UNDP, oxford University Press, 1997)

وبلغت نسبة الصادرات الإسرائيلية ١٨٪ من صادرات الشرق الأوسط عام ١٩٩٥ بما فيها صادرات المواد الأولية التي تمثل ٩٠٪ من الصادرات العربية بالرغم من أن سكان إسرائيل لا يزيد عن ٢٪ من سكان المنطقة.

وقد زادت صادرات إسرائيل من المنتجات الإلكترونية من حوالى مليار دولار فى عام ١٩٨٦ إلى قرابة الستة مليار دولار عام ١٩٩٩.

ثانياً: التعليم :

رغم ما حققته الدول العربية من إنجاز فى ميدان التعليم منذ منتصف القرن العشرين، إلا أن هذا الإنجاز ما زال متواضعاً ومتخلفاً على باقى العالم لو قسناه بالمعايير التقليدية، وفى بعض الأحوال حتى بالنسبة للبلدان النامية ناهيك عن إسرائيل فالأمية لا تزال صامدة بعناد رغم محاولة القضاء عليها .

لقد ظل مستوى التعليم الإجمالى منخفضاً بين السكان البالغين فى الوطن العربى ، إذ يقدر متوسط سنوات التعليم للفرد البالغ فى التسعينات بحوالى ٢,٨ سنة مقابل عشر سنوات فى إسرائيل .

وتقدر نسبة الأميين فى منتصف التسعينات فى الوطن العربى بحوالى من ٤٥ ـ ٥٠٪ بين البالغين فى مقابل ٤٪ فى إسرائيل [1]، بالإضافة إلى ذلك فإن عدد الأميين فى البلدان العربية يتزايد حتى أن البعض يقدر عدد الأميين فى عام ٢٠٠٠ بـ ٧٠ مليون أمى غالبيتهم من النساء.

ويبلغ نصيب الفرد فى سنة التعليم فى البلدان العربية فى التسعينات ٣٤٠ دولار تتفاوت بين ١٣٠٠ فى البلدان العربية النفطية وأقل من ٢٠٠ دولار فى باقى البلدان العربية ، مقابل ٢٥٠٠ دولار فى إسرائيل .

وتعتبر نوعية التعليم من حيث التوجهات والمعارف والقدرات المكتسبة هى المشكلة الأخطر ، ورغم قلة البحوث والدراسات حول هذا الموضوع فإن كل الدول

---

(١) نادر فرجانى عن التعليم والاقتصاد ، البلدان العربية فى سياق العالم ، المستقبل العربى، عدد ١٩٦، ١٩٩٥/٦م ، ص ص ٦٥ ـ ٧٥ .

العربـية تقريـباً تشكو من تردى نوعية التعليم بها وتؤكد الدراسات المتاحة غلبة ثلاث سمات أساسية على ناتج التعليم فى البلدان العربية وهى:

١ـ تدنى التحصيل المعرفى .

٢ـ ضعف القدرات التحليلية والإبتكارية .

٣ـ التزايد المستمر فى التدهور فى التحصيل المعرفى وفى القدرات التحليلية والابتكارية.

ويظهر من جراء ذلك خلل جوهرى بين سوق العمل وعملية التنمية من ناحية وبين ناتج التعليم من ناحية أخرى ، ينعكس على ضعف إنتاجية العمالة ، وضعف العائد الاقتصادى وأكبر دليل على ذلك تفشى البطالة بين المتعلمين وتدهور الأجور للغالبية العظمى منهم.

والفرق فى نوعية التعليم بين إسرائيل والدول العربية يمكن حصره فى المثال الآتى :

وضعت إسرائيل خطة عام ١٩٩٣ لتوفير حاسوب (جهاز كومبيوتر) لكل روضة أطفال (حوالى ٤٠٠٠ روضة) وجهاز طرفى لحاسوب لكل عشرة أطفال فى المدارس (عدد التلاميد ١,٢ مليون) .وفى خلال ٤ سنوات من بدء البرنامج تم توفير أكثر من ربع الكمية المطلوبة ٣٣,٤ ألف جهاز طرفى و ١١٦٠ حاسوباً وهذا يعنى أنه فى حالة استمرار تنفيذ البرنامج (الخطة) بهذا المعدل فإنها ستتم بحلول عام ٢٠٠٥[1].

وإذا ما أراد العرب تحقيق مثل هذا الهدف على مستوى المدارس فقط أى باستبعاد رياض الأطفال ، وبحلول عام ٢٠٠٥ وبموجب الالتحاق عام ١٩٩٨ الذى بلغ ٥٦ مليون تلميذ وضع ما يقارب الستة ملايين حاسوب بحلول عام ٢٠٠٥ . وقد تبدو هذه الأرقام ضخمة ولكنها فى واقع الأمر ليست كذلك فهى لا تتعدى مليار دولار على صعيد الوطن العربي فى السنة، بينما التكلفة السنوية لشراء السلاح تزيد

---

(١) نادر فرجانى :الإمكانات البشرية والتقانية العربية ، المستقبل العربى ، العدد ٢٥٢، فبراير ٢٠٠٠، ص ٧٠ .

على ٤٥ مليار دولار بأسعار ١٩٩٠ ويصل إنفاق السعودية بمفردها على شئون الجيش إلى حوالى ٢٥ مليار دولار سنوياً..(١)

إن المضاعف الإنتاجي والتقانى لمثل هذا البرنامج من الكبر والأهمية يجعلنا نوصي بتبنيه بقوة. وفي النهاية فإن المواقف من أمور كهذه هي التي تحدد مدى جدية العرب في إحداث نقلة جوهرية في التعليم وصولاً إلى موقع مقبول في ميدان العلم والتقانة. ولكن ليس إغراق الدارس بالحواسيب هو الذي سيحل مشكلة التعليم، ناهيك عن تأصيل العلم والثقافة في المجتمعات العربية. فالمطلوب هو أكثر من ذلك بكثير..وحتى عند توفير الحواسيب فالأهم هو كيف تستغل.

وفى حال البحث العلمي والتقنى :

تشير الإحصاءات المستخدمة في المقارنات الدولية في مجال البحث العلمى إلى أن العرب يشكلون حوالى ٤,٦٪ من سكان العالم في منتصف التسعينات وإن نصيبهم من الإنفاق على البحث العلمي بلغ عام ١٩٩٤ ٠,٤٪ أى أقل من عشر نصيبهم من سكان العالم،بينما يرتفع نصيب إسرائيل من الإنفاق على البحث العلمي إلى أكثر من ثلاثة أمثال نصيبها من سكان العالم وبالنسبة إلى الناتج الإجمالى يوازى إنفاق الدول العربية ٠,٢ ٪ أى سبع المتوسط العالمى الذى يبلغ ١,٤ ٪ . وبالمقابل يرتفع هذا المؤشر في إسرائيل عن المتوسط العالمى إلى أعلى من ٢٪ أى أكثر من عشرة أمثال إنفاق العرب في هذا المجال (٢) ولا يدخل في هذه النسبة الإنفاق على البحوث العلمية في المجالات العسكرية والتى قد تفوق ما ينفق على البحوث في المجالات المدنية. أما إذا وضعنا في الاعتبار عدد السكان وحجم الناتج المحلى سنوياً فإن الفجوة بين العرب وإسرائيل في الإنفاق على البحث العلمى سترتفع إلى نحو أربعين مثلاً.

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر من ٧٠ ٪ مما ينفق على البحث العلمى في الوطن العربي يصرف كمرتبات شهرية للعاملين في هذا المجال.

---

(١) محمد السيد سعيد استيعاب التكنولوجيا المتقدمة في مصر، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٧.

(٢) Baree and Remi (S&T Indicatrs a world view) in : Observatories des sciences et des techniques (Erance. 1998).

وتشير الإحصاءات إلى أن العاملين فى مجال البحث العلمى فى الوطن العربي فى منتصف التسعينات، بلغ خمسة أضعاف عددهم فى إسرائيل، غير أنه بلغ نسبة إلى عدد السكان فى البلدان العربية إلى نحو ٠,٣٥٪ فى الألف وهى تقل عن نصف المتوسط العالمى ٠,٨ ٪ فى الألف من السكان وعن عشر مستوى إسرائيل ٣,٨ فى الألف من السكان[1] ولا يدخل ضمن هذه النسبة العلماء الذين وفدوا من الاتحاد السوفييتى السابق وبلغ عددهم نحو ٥٠ ألفاً فى مختلف المجالات العلمية وقرابة ٣٠ ألفاً من الأطباء والممرضين والفنانين وما يقارب من خمسين ألفاً من المدرسين ، أما أعداد المهاجرين من الاتحاد السوفييتى السابق منذ بداية التسعينات فقد سجل يوم ٢٠٠٠/٥/٧ مليون شخص حيث وصل المهاجر رقم ١٠٠٠٠٠٠ على متن طائرة العال ضمن خمسين مهاجراً جديداً قادمين من موسكو[2]، والأهم أن الكثير من هؤلاء المهاجرين قد حمل معه جماع المعرفة وأسرارها المتراكمة فى كثير من فروع البحث العلمى والتقانى الأكثر تقدماً فى الاتحاد السوفييتى السابق.

وإذا ما أردنا إيضاحات أكثر فى المقارنة بين العرب وإسرائيل فى هذا المجال فللنظر إلى عدد وصلات (مواقع) شبكة الإنترنت التى وصلت إلى نصف مليون فى المنطقة فى عام ١٩٩٨ نصفهم فى إسرائيل : أى أن نسبة ما عند إسرائيل إذا ما قورن بعدد السكان(نسبة السكان) يصل إلى خمسين ضعفاً:

وفى أوائل ١٩٩٩ بلغ عدد الوصلات نحو ثلاثة أرباع مليون منهم ٧٠٪ فى إسرائيل.

إن المؤشرات السابقة تظهر مدى عمق الفجوة خاصة فى عدد العلميين وحجم الإنفاق، غير أن الفجوة الأكثر عمقاً تكمن فى تفاعل عوامل أخرى أهمها النوعية ومدى توافر البنية المجتمعية المواتية للبحث العلمى فى كل "مجالاته".

---

(١) Economist (25 April 1998).

(٢) وكالات الأنباء وإذاعة لندن باللغة العربية نقلاً عن إذاعة إسرائيل ٢٠٠٠/٥/٧

الإنتاج العلمى والتقانى المحكم:

تعتبر المجلات المحكمة معياراً على الإنتاج العلمى وخاصة فى المقارنات الدولية ووفقاً لدليل النشر العلمى يتدنى نصيب الدول العربية من النشر العلمى فى عام ١٩٩٥ إلى أقل من سدس نصيبهم من سكان العالم. وهنا يتعدى التفوق النسبي لإسرائيل على العرب مقارنة بعدد السكان لسبعين ضعفاً[١].

وتعتبر تسجيل براءات الاختراع والعلامات التجارية أكثر أهمية من النشر العلمى المحكم وعلى الناتج التقانى بالذات. ويعتبر مكتب العلاقات التجارية الأمريكي، وإن لم يكن الوحيد هو أهم مواقع التسجيل.

.وتبين إحصاءات المكتب عام ١٩٩٨ أن المقيمين فى البلدان العربية سجلوا ٢٤ علامة من سبع دول عربية: ١٤ من السعودية، وأربع من الأردن واثنتان الكويت وواحد فى كل من مصر والبحرين ولبنان وتونس بما يساوى أقل من عشر علامة لكل مليون نسمة من السكان تقريباً[٢]

وسجلت البحرين أعلى نسبة إلى عدد السكان لكل عشرة ملايين (١٧,٥) والكويت (١١,٩) والسعودية (٧,٤) والأردن (٧,٢) ولبنان (٣,٢) وتونس (١. ١) بينما كان أدنى المعدلات فى مصر أقل من (٠,٢) [٣]

وعلى الجانب الإسرائيلي سجل المقيمون بها ٥٧٧ علامة وهو رقم يتعدى بكثير ألف ضعف البلدان العربية.

الإخفاق العربي فى القدرات التقانية :

جرت محاولات طموحة نسبياً للعمل العربي المشترك فى ميدان التسلح عندما نشأت الهيئة العربية للتصنيع عام ١٩٧٥ كمشروع مشترك بين مصر والسعودية وقطر والكويت تنفيذاً لقرار رؤساء الأركان العرب لعام ١٩٧٣

---

(١) UNESCO, World Science Report .

(٢)أخذت البيانات من موقع مكتب العلاقات والبراءات الأمريكي على الإنترنت : الجامعة الأمريكية : القاهرة ١٩٩٩.

(٣)نادر الفرحاتى ، مصدر اسبق ص ٧٤.

وانسحبت الدول الخليجية الثلاث بعد ثلاث سنوات قبل أن تبدأ عملها تنفيذاً لقرار مقاطعة الدول العربية لمصر.

جرت محاولات لبعض الدول العربية منفردة أبرزها لعراق ومصر، ولاريب في أن العراق قد جسد مأساة القدرة التقانية العربية المنفردة . فقد نجح مرتين بتطوير قدرة نووية واقترب من صنع السلاح النووى، وقد أحيطت المحاولة الأولى بسرية يصعب الكتابة حولها. وتعد المحاولة الثانية التى نجح العراق بإبقائها سرية حتى بدأت فرق التفتيش عملها وأجهضت قبل شهور قليلة من الموعد المقرر لأول تفجير نووى أهم من الأولى. (١) غير أن القيادة العراقية أخفقت أيضاً مرتين في حماية الانجازين - فدمرت إسرائيل المفاعل النووى العراقى بتواطؤ أمريكي وعربي أيضاً فى عام١٩٨٢، ويشار إلى أن قبة المفاعل قد ضربت بعد ساعة واحدة من إتمام عملها، ودمرت الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين القدرة النووية للعراق فى المرة الثانية بمباركة العرب الذين تواطؤا فى ضرب المفاعل عام ١٩٨٢: فمنهم من كانت له المساهمة فى إشعال فتيل الفتنة، ومنهم من مد بساط الشرعية للتدخل الأمريكي والدولى المتحالف مع الأول الذى دمر الأمة العربية بمنجزاتها وقيمها .

وكان العراق قد نجح فى تطوير قدرات مهمة فى السلاح الكيماوى وفى الصواريخ المتقدمة الحاملة للأسلحة. وتم تدميرها على أيدي الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة.

وربما يكون العراق قد سلك نفس المسلك السوفييتى بتركيزه على الجانب العسكرى فى مجال التقانة وأهمل الجانب المدنى، غير أن ضرورة إعادة تأهيل البنية التحتية أثناء الحصار قد ساعدت على تطوير التقانة فى المجال المدنى.

ومما لاشك فيه أن وجود الآلاف من العلماء والتقنيين العراقيين يعتبر من أهم المكاسب التى تمخض عنها هذا الجهد . غير أن حرمان العراق والأمة العربية من هذه الثروة البشرية كان على رأس الأهداف الصهيونية والأمبريالية الأمريكية لنزع القدرة التقانية عن العرب من خلال عمليات التفتيش التى أعقبت تدمير الجيش العراقى

---

(١) محمد عبد السلام :فى ندوة مستقبل الاحتكار النووى الإسرائيلي : المستقبل العربي ، العدد ٢٠٨ يونية ١٩٩٦.

فـي حـرب عاصـفة الصـحراء. هـذه الحـرب الـتي خلفت شظف العيش لكي يضاف إلى القهـر والقمـع الداخـلي الـذى جعـل هذه الثروة البشرية تصدأ من عدم الممارسة في الداخل للبعض واللجوء إلى الهروب أو الجنون للبعض الآخر.

وفـي مصـر يضـم المركـز القومي للبحوث الآن ٦٢ قسماً في مجالات العلوم ذات الصـلة بالـزراعة والصـناعة والصـحة والبيئة إضـافة إلى المعاهد المستقلة. ويقدر عـدد العاملين في المركز في عام ١٩٩٥ بأكثر من ٢٢٠٠ من الباحثين منهم حوالى ١٠٠٠ مـن حملـة الدكـتوراه ويضـم حـوالى ٢٥٠٠ مـن الإداريـين والتخصصـات المسـاعدة، وهـذا العـدد يفوق أمثاله في معهد وايزمان في إسرائيل عشر مرات. لكن المرتـبات المتدنـية تسـتقطع نحو ٧٥٪ من مخصصات المركز العربي القومى، بينما يقل نصيب التجهيزات والمشروعات البحثية عن العشر[١]

وباختصـار شـديد فقـد تشـكلت لجنة الطاقة الذرية في مصر عام ١٩٥٥ وبعد ثـلاث سـنوات مـن إنشـاء إسـرائيل مفـاعل "ريشبون لينسيون" أمريكي، وبعد ثلاث سـنوات فقـط مـن تشكيل أول لجنة للطاقة النووية فى مصر تم تشغيل مفاعل أنشاص (مـن الاتحـاد السـوفييتي) ولكـن بعـد أن كانـت إسـرائيل قد أضافت مفاعلين أضخم كـثيراً "نحـال سـوريك" عـام ١٩٥٧م (أمـريكى) و(ديمونـا) (فرنسـي) ثم بنى روبين "الأمـريكي" عـام ١٩٦٥م[٢] وبالمقـابل فقـد توقفـت محـاولات مصـر التى بدأت في عام ١٩٦٤م وتعثرت محاولات في السبعينات والثمانينات.

وفـي عام ١٩٩٢م حسم الأمر الرئيس مبارك عندما أعلن عام ١٩٩٢ عدم نية مصر شراء أى مفاعل نووى تفادياً لإرهاق الميزانية وزيادة أعباء الديون.

وفى مجال الفضاء: أقامت إسرائيل اللجنة الوطنية لأبحاث الفضاء عام ١٩٥٩م على حـين لم يتشـكل مجلـس لأبحاث الفضاء فى مصر إلا عام ١٩٨٨م أى بعد قرابة أربعين عامـاً عـلى إنشـاء اللجـنة الوطـنية لأبحـاث الفضاء في إسرائيل التى أصبحت بموجبها

---

(١) نـادر الـريس ، العـلم والتكـنولوجـيا فـى :صـبري جـريس وأحمـد خليفة محرران دليل إسرائيل العام، بيروت، مؤسسة الدراسة الفلسطينية، ١٩٩٦.

(٢) محمـد مـنير مجـاهد :التكـنولوجـيا الـنووية، محمـد السـيد سـعيد محـرر ..مبـادرة التقدم: التكنولوجيا المتقدمة فى مصر ، ص ٣٧٢.

العضـو الـثانى فـى نـادى الفضـاء ولم يكـن قـد سبقها من الدول النامية إلا الصين عام ١٩٧٠م والهند بعدها بعشر سنوات.

وكانـت مصـر قد صممت طائرة نفاثة بالتعاون مع الهند بسرعة تفوق سرعة الصـوت وجرت التجربة فوق سماء القاهرة بقيادة طيار هندى فى مطلع عام ١٩٦٧م ولكن مشروع صناعة الطائرات والصواريخ أوقف فى نهاية العام نفسه.

وفـى المجـال الـزراعى تتقدم إسرائيل بمراحل شاسعة على البلدان العربية فهى تستخدم الـرى بالتنقـيط وزراعـة الصحراء بما فى ذلك استخدام الحاسوب فى ضبط العمليات الزراعية وتهجين السلالات وإنتاج الألبان والموالح والزهور .. إلخ .

أمـا فـى مجـال الطب والاتصالات والبورصة وشئون المال والأعمال فلا مجال للبحـث والمقارنـة، إذ أن عمـق الفجـوة فى هذه القطاعات يشبه إلى حد كبير الفجوة فى مجال الديمقراطية والحريات السياسية. وسأكتفى بذكر مثال على التفاعل والترابط العضـوى بـين العـلم والسياسـة ففـى مجـال الطـب وعـلى سبيل المثال تصدر إسرائيل معـدات الفحـص والتشـخيص التى تدخل فيها مساعدة الكومبيوتر والجراحة بالليزر منذ أوائل الثمانينات. وفى عام ١٩٩٢م طورت شركة الأنظمة الطبية معدات لعلاج سـرطان الجلـد والشـعر بالليـزر دون جـراحة ولا ننسـى فـى هـذا الصـدد أن الطـب الإسـرائيلي قد ساهم فى خدمة السياسة الإسرائيلية ولصالحها، فعندما أصيب الرئيس الإريـترى أسياسـي أفورقى بمرض خطير فى المخ كاد أن يودى بحياته أجريت له عملية جراحية مـتطورة فـى إسرائيل وشكلت هذه العملية انقلاباً فى السياسة الإريترية بعد الاستقلال صـبت عملها فى خدمة إسرائيل وكان احتلال إريتريا للجزر اليمنية جزءً مـن تكالـيف هـذه العملـية، ناهـيك عن امتناع إريتريا عن الانضمام إلى جامعة الدول العربية.

أمـا فـى مجـال الاتصـال والتقانة فنكتفى بذكر بعض الشركات الغربية المهمة العاملة فى إسرائيل:

١- شـركة "موتـورولا- إسـرائيل" وهـى شـركة أمريكـية أنشأت أول فرع لها خارج الولايات المتحدة فى إسرائيل عام ١٩٦٤ .

٢- شركة "آى بى إم IBM - إسرائيل " وانتل Intel إسرائيل" عام ١٩٧٤م ومايكروسوفت إسرائيل عام ١٩٨٩ و" بيوسينس إسرائيل الأمريكية عام ١٩٩٣م، وهذه الشركات تقوم بتصميم وإنتاج أدوات فى منتهى الدقة والصغر للحركة داخل الجسد لأغراض التشخيص والعلاج . وتضم القائمة "هولت باكارد " (HP) و"فيشاى" (Vishai) (موردة مكونات مركبات الفضاء والطائرات الحربية المتقدمة) .

وهذه كلها شركات أمريكية إضافة إلى وجود شركات ألمانية وغربية عالية التقنية فى إسرائيل. وقد ساهمت شركة "تاديران" (Tadiran) للألكترونيات التى أنشأت فى عام ١٩٧٦م وغيرها فى تمكين إسرائيل من إطلاق أول قمر صناعى للاتصالات وأغراض التجسس عام ١٩٩٦م يغطى الشرق الأوسط ووسط أوروبا.

وحقيقة الأمر أننا قد خدعنا كثيراً عندما قيل لنا أن أوراق اللعبة فى يد أمريكا أو تسعة وتسعين وتسعة من عشرة بالمائة فى المائة ولا زلنا مخدوعين فى أن أمريكاقادرة وبنواياها الطيبة على حل مشاكلنا، وظنينا أن إسرائيل قد أسقطت كورقة ضمن أوراق الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط بسبب انتفاء دورها بعد سقوط الاتحاد السوفييتى وأن الولايات المتحدة ستمارس ضغط على إسرائيل لكى تعيد الحقوق العربية إلى أهلها..الخ . واتضح أن هذه الفروض غير صحيحة وغير واقعية . فقد زاد اعتماد الولايات المتحدة على الدور الذى تقوم به إسرائيل فى المنطقة فعملت على إدماجها فى نسيج هذه المنطقة وساعدت على إقامة تحالفات إسرائيلية تركية بشراكة غير مباشرة مع بعض الأنظمة التابعة (العميلة بلغة ما قبل انتهاء الحرب الباردة). وأصبح يجمع الطرفين الصهيونى والأمريكي تحالف استراتيجى ودفاع مشترك منذ التوقيع عليه رغم أنه ينفذ على الطبيعة منذ الستينات. بل الأكثر من هذا الدعاية الإعلامية التى تنشرها وسائل الإعلام الأمريكية لصالح إسرائيل وعلى حساب الأخيرة والأمثلة على ذلك عديدة ومتوالية، فعندما تنشر الصحف الأمريكية أن حرس البيت الأبيض يستعمل مسدسات صناعة إسرائيلية لأنها أكفأ من الصناعة الأمريكية. وفى مرة ثانية تقول الصحف نفسها أن الطيارين الإسرائيليين تمكنوا من تزويد طائراتهم بالوقود والذخيرة فى وقت قياسي لم يسبقهم عليه أحد .. عندما ينشر ذلك وغيره داخل الولايات المتحدة فإن الأمر يبدو وكأنه "غسيل مخ" للشعب

الأمريكي. وعلى صعيد آخر عندما يقول الجنرال براون رئيس الأركان الأمريكي منذ عدة سنوات " إن هناك خطورة على الترسانة الحربية الأمريكية نتيجة لما تنتزعه إسرائيل من معدات حربية " تنهال على الرجل اللعنات واللطمات من جميع وسائل الإعلام الأمريكية ورغم اعتذار الجنرال عما قال، كان عليه أن يترك موقعه ترضية ليهود الولايات المتحدة . وعندما تفوه الممثل الكبيرمارلون براندو ببعض العبارات عن تحكم اليهود فى استديوهات هوليوود هاجمته وسائل الإعلام الأمريكية بشراسة وأتهم بأنه معتوه لا يفيق من الخمر واعتذر الرجل كثيراً ولكن هيهات فقد سقط اسمه من قائمة ممثلي هوليوود. وهكذا نجد أن اللوبى اليهودى داخل الولايات المتحدة من القوة والسطوة لا يمكن أن تفوته شاردة ضد اليهود، وليس مسموحاً بذلك على الإطلاق وليس ذلك جديداً. وللنظر إلى المرشحين للكونجرس الأمريكي ولرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية أو حتى عمد المدن الكبرى مثل نيويورك فإن أول استهلال يقال من قبل المرشحين على شاشة التليفزيون هو أمن إسرائيل وكيف نعاونها دائماً وأبداً فهى الحليف الأساسي لأمريكا بالمنطقة وهي نقطة الديمقراطية وسط بحر من أنظمة متخلفة. إن أى خبر عن إسرائيل ينشر دائماً مانشيت الصفحة الأولى فى كافة وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة لماذا ؟ المال اليهودى الأمريكي هو سيد الموقف - هو الذى يدفع فاتورة انتخاب المرشحين للكونجرس - هو الذى يمتلك الصحف ووسائل الإعلام الأخرى والبنوك وشركات التأمين واستديوهات السينما. والأغرب والمؤسف أن جزءاً كبيراً من هذا المال هو عربي من عائدات النفط الذى يختزن فى بنوك اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهل يمكن اختراق هذا الوضع؟ يقول بعض العرب الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية إن ذلك ممكن وقد تم اختراقه فعلاً ولكن على مفكرينا أن يساعدوهم بالإجابة على هذا التساؤل لعلنا نعيد التوازن فى العلاقات العربية الأمريكية الإسرائيلية. ورغم كل ما ذكرنا نجد البعض من القادة العرب لا يزال يؤمن بتسليم ٩٩,٩ ٪ من الشئون العربية إلى اليد الأمريكية .

والسؤال هو كيف وصلت إسرائيل إلى هذه التكنولوجيا المتقدمة؟ . هناك حقائق لا بد أن نعرفها عن إسرائيل ونقارن بين ما تملكه وما نملكه نحن العرب . فمساحة إسرائيل ٢٠٧٧٠ كم^{2} أى أقل من مساحة جيبوتى التى تبلغ ٢٢٠٠٠ كم^{2} ،

وتساوى ثلث مساحة سيناء ، بينما تبلغ مساحة الدول العربية الآسيوية ٣٩١٦٥٧٩ كم٢ والدول العربية الأفريقية ٩٥٧٧٤٠٣ كم٢ أى أن مساحة الدول العربية مجتمعة تعادل ٦٤١ مرة مساحة إسرائيل. وطول إسرائيل من أقصى شمالها حتى إيلات ٤٠٥ كم بينما يصل أقصى عرض لهاعند جنوب البحر الميت ٩٠كم وأقل عرض لها بين تل أبيب والضفة المحتلة هو ٣٠ كم .ولا تمتلك إسرائيل ثروة طبيعية تذكر، فغير بعض الأملاح التى تستخرج من البحر الميت وفوسفات ونحاس النقب وخامات صناعة الأسمنت، فإن إسرائيل فقيرة فى ثروتها الطبيعية. ويعمل ١٢ ٪ فقط من سكان إسرائيل بالزراعة، و١٢ ٪ فى التجارة والبنوك والتعليم والخدمات العامة والباقى وهو ٧٦ ٪ يعمل بالصناعة. وعلى الطرف الآخر فإن الدول العربية متخمة بثرواتها الطبيعية سواء منها البترولية أو المعدنية ـ وكذا الثروات الزراعية وإن لم تستغل كاملاً أو حتى بربع طاقاتها فى بلد كالسودان مثلاً وتنتج الدول العربية نحو ٢١,٦ مليون برميل يوميا من النفط بإحصائيات عام ١٩٩٨م ـ ويمثل ذلك نحو ٢٩ ٪ من إنتاج العالم وبحساب ١٥ دولار للبرميل ـ وإن كان عام ٩٩ ـ ٢٠٠٠ قد شهد ارتفاعاً قياسياً فى أسعار النفط حيث وصل سعر البرميل إلى ٣٣ دولاراً ولكن دعونا نحسب ١٥ دولاراً حيث ساد هذا السعر لمدة خمس سنوات سابقة تقريباً.ومن ثم فإن دخل الدول العربية من البترول سنوياً هو ١١٣ بليون دولار. بينما يصل الناتج القومى لإسرائيل وهى دولة غير بترولية إلى ٩٨ بليون دولار. ويضاف إلى إنتاج الدول العربية الثروات الأخرى : تعدينية، صناعية، زراعية، سياحية، والذى لا يزيد على٢٧٥ بليون دولار ـ أى أن الناتج العربى كله لا يتعدى ٣٨٨ بليون دولار أى أقل من أربعة أضعاف الناتج الإسرائيلي. ويصل عدد سكان الدول العربية إلى قرابة ٢٧٠ مليون نسمة أى نحو ٥٤ ضعف سكان إسرائيل.

والآن ما ذا تنتج إسرائيل ؟ ـفأرض فلسطين كما تقول التوراة هى "أرض القمح والشعير والعنب والتين أرض الزيتون والعسل" وأصبحت تنتج الآن بجانب ذلك الموالح والزهور وتغذى أسواق أوروبا من النرويج شمالاً حتى إيطاليا جنوباً، وأخيراً زرعت إسرائيل القطن لتغذية مصانع النسيج، ولكن إسرائيل لا تنتج كل طعامها بل تستورد الكثير منه. وفى الصناعة تقوم إسرائيل بتعليب المنتجات الزراعية

وقطـع وصـقل الألمـاس المسـتورد ـ وإنـتاج الكـيماويات والنسـيج والأسمنـت والسيراميك. ولكـن الصـناعة الإسـرائيلية الأولى هـى الصـناعات الإلكترونية والتى طورت بها صناعتها الحربية ـ وفاقت بذلك كثيراً من دول العالم الغربي ـ ولكن أيعطى هـذا الإنـتاج مـا قيمـته ٢٠ ألـف دولار/ للفـرد الواحد فى السنة وهو رقم أعلى من دخـل لأى من دول العالم . فالكويت تعتبر من أغنى دول العالم حيث يصل دخل الفرد من الناتج القومى إلى نحو عشرة آلاف دولار / سنة وربما أكبر من ذلك قليلاً. صحيح أن هـناك مغالطـة كـبيرة فى الناتج القومي الإسرائيلي ـ فحجم المعونات الأجنبية التى تـنهال عـلى إسـرائيل مـن كـل حـدب وصـوب ولأسـباب غريـبة وشـاذة ابـتداءً من الهولوكوسـت المـبالغ فـيه جـداً إلى ذهـب الـيهود وإيداعاتهم فى البنوك السويسرية ـ إلى ثمـن عمـل الـيهود فـي أوروبـا خـلال العقـود الـتى سـبقت الحرب العالمية الثانية ـ إلى تـبرعات الـيهود بالولايـات المـتحدة وغيرهـا.. كل ذلك يضاف إلى الناتج القومى الإسـرائيلي . فقد بلغ ما حصل عليه يهود إسرائيل منذ إنشائها عام ١٩٤٨ حتى عام ٢٠٠٠م قرابة الـ ٣٠٠٠ بليون دولار ـ أى أن إسرائيل حصلت سنوياً خلال عمرها الـذى تعـدى الخمسة عقود بسنتين على ٦٠ بليون دولار سنوياً دون وجه حق ودون عـرق سـاكنيها. وبالـتالى فإن الإنتاجية الحقيقية للعمل الإسرائيلي داخل إسرائيل يقل كـثيراً عـن الـناتج القومـى الكـلى المعلن، ولكنه يفوق الناتج القومى العربى بعشرات الأضعاف إذا ما أخذنا فى الاعتبار نسبته إلى نسبة عدد السكان .

ولكـن كـيف وصـلت إسـرائيل إلى ذلك ؟ لا يشك أى فرد مخلص لوطنه العربي أن السـبب فـى ذلك هو التقدم العلمى المذهل والتقنية العالية التى وصلت إليها نتيجة تعليمها الراقى لأبنائها. فلو عرفنا أن نصيب المواطن العربي من الإنفاق الحكومى على البحـث العـلمى لا يـزيد عـلى دولاريـن فـى السـنة ـ بينما يصل فى إسرائيل والدول المتقدمة إلى نحـو ١١٠ دولارات سـنوياً ـ ولـو عرفـنا أن كل ميزانيات الوطن العربي للبحث العلمى لا تساوى نصف ميزانية جامعة واحدة فى الولايات المتحدة ـ لأدركنا مـدى نظرتـنا المتدنـية لأهمـية البحـث العـلمى الـذى هـو أسـاس الـتقدم والـتطور التكنولوجى . إذاً أيـن نحـن من التكنولوجيا المتقدمة ؟ هل يستطيع العرب أن ينافسوا بكوادرهم العلمية زملاء لهم فى الجامعات الغربية والإسرائيلية ؟

الجواب بالطبع " لا " ودليلنا على ذلك هو الفرق بين ما ينشر علمياً هنا وهناك. إن أول طريق الإصلاح أن نعرف أين نقف؟ وأين نحن؟ وكيف نرفع كفاءة الباحثين والأساتذة؟ ولن يتأتى ذلك إلا بربط الترقيات بإنتاج الباحثين ـ شريطة أن نوفر لهم الإمكانات المعملية والمكتبات الحديثة وأن ننظر إلى التعليم ككل. إن بداية التطور العلمي والتكنولوجي تبدأ من المدرسة الابتدائية وما يتلوها من تعليم حتى الجامعة. ولن نتقدم أبداً دون أن يكون مستوى خريجي الجامعات العربية هو المستوى نفسه لخريجي الجامعات الأوربية والأمريكية. لقد غزا الشباب الصيني والهندى دور البحث العلمي في أمريكا لتفوقهم في العلوم الرياضية حتى على زملائهم الأمريكيين ـ والسبب هو الاهتمام بدراسة العلوم الأساسية من رياضة وفيزياء وكيمياء في بلادهم الأصلية. إن القول بأن إسرائيل هي البوتقة التي جمعت يهود الشتات المتعلم من بلاد العالم قول حقيقي ولكن استمرارية نقل الخبرة من الجيل القديم إلى الأجيال الأصغر هي التي دفعت النهضة العلمية في هذه الدولة الصغيرة التي وصلت إلى ذلك في غفوة منا ـ بالعلم الذى أوصل أبنائها إلى الارتقاء بصناعتهم الحربية إلى المستوى الذى يجعل رئيس الصين يطلب ودهم من أجل الحصول على التكنولوجيا العسكرية الإسرائيلية المتطورة . هذه الصناعات تشكل مصدراً أساسياً لدخلهم القومي. إنهم لا يفصحون عن قيمة هذا الدخل ـ ولكن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير لنعلم أنه المصدر الأساسي لهم ـ فهم يبيعون أسلحتهم وصناعاتهم الدقيقة والطبية والالكترونية حتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

في أثناء حكم القيصر بيتر ـ العظيم لروسيا ـ كانت السويد تهزم روسيا دائماً في الحروب التي نشبت بين الدولتين ـ فقال بيتر كلمته الخالدة :دعهم يهزموننا مرة ومرات حتى يعلموننا كيف نهزمهم . لعلنا نتعلم.

الفصل السابع

العرب والعولمة الثقافية والإعلامية

أولاً : العرب والعولمة الثقافية :

من بين التعاريف التي ينطوى فيها مفهوم الثقافة التراث المشترك الفكرى والروحى والأخلاقى فضلاً عن أنماط القيم والاتجاهات والأعراف ، التى تعبر كلها نمط سلوك وطريقة حياة ومنهج عمل . أما الحضارة فهى غالباً ما تنصرف نحو المحددات المادية للثقافة كالعمران والمدنية وما تنطوى عليها . فالكون الذى نعيش فيه يضم بين جنباته عدة ثقافات وحضارات ، فيها المتشابه والمتباين ، وهذا التشابه والتباين فيما بينها يزيدها خصوبة وثراء.

وفى ثقافتنا العربية نجد أحياناً بعض اللبس والخلط بين الاستعمار العسكرى وبين ثقافته ، وبينما يمكن الاستفادة منه وبينما يجب تركه ونبذه فى الثقافة الغربية ، فيخرج البعض بأحكام قاطعة ، أنه لا يليق بالثقافة العربية الأصيلة أن تنهل من الثقافة الغربية المادية، لأنها من جهة استعمرت بلادنا ونهبت خيراتنا ، ومن جهة أخرى لأنها تختلف عنا بالقيم الروحية والخصائص الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، غير أنه ومع تقديرنا لكل الحريصين على النماء الثقافى العربى ولكل الآراء والأفكار مهما تباينت وتعددت إلا أن الثقافة الأصيلة والعريقة لا يمكن أن تحصر نفسها فيما هو أصولى وأصالى بارتكانها إلى الجمود والانغلاق عن الحركة والنماء والتطور المتلاصق فى كل زمان ومكان .

ورغم ما يقال عن الاستعمار أنه عادة ما يركز على جانب نشر ثقافته والترويج لها ومحاولة إلحاق وإلصاق الناس فى المجتمعات التى نعيش فى مستعمراته وتحت سيطرته بثقافته أى بثقافة المستعمر فهذا صحيح ولكن ليس الإلحاق أو التبعية الثقافية فى المطلق ، فالمستعمر يركز على نشر الثقافة الترفيهية والسلعية وجوانب الإبهار فى نمط الحياة الغربية السلوكية التى تتنافى مع معايير الدين والقيم والأعراف والعادات التى هى من سمات هذه المجتمعات ، ومرتكزات أساسية لهويتها . أما ما

يملكه المستعمر فى ثقافته من مقومات القوة والإبداع جانبها المادى كالعلم والتكنولوجيا والصناعة [1] ، والمعنوى كالديموقراطية والحوار وحقوق الإنسان فقد ظل محصوراً على الداخل الغربى يمنع تصديره ، ويصدر نقيضه . ومن هنا أقول إن الانفتاح على الثقافة الغربية فى جوانبها النافعة فرض واجب على كل عربى ومسلم ، لأن فى اقتنائها واستلهامها وتطويرها حماية للعروبة والإسلام . فالثقافة العربية والإسلامية ما كان لها أن تصل إلى أوج ازدهارها لو لم تأخذ وتقتبس عن الثقافات الفارسية والإغريقية والهندية وغيرها حتى أن الثقافة الغربية الحاضرة ما هى فى الحقيقة إلا مجموع عدة حضارات وثقافات ، أهمها ما ساهمت به الثقافة والحضارة العربية الإسلامية فى كافة مجالات العلوم والفنون والفلسفة والأدب وسواها فى الحضارة الغربية الحالية ، إذاً فلا محيص الآن فى عصر ثورة المعلومات ووسائل الاتصال والإعلام من تبادل الخبرات والتجارب والعلوم وضرورة بذل الجهود فى اللحاق بالعلوم التكنولوجية والعمل على الحصول عليها وتوطينها عربياً لتقوم بالدور المناط بها فى خدمة التنمية فى جميع مجالاتها وتتيح للأمة فرص التخلص من قيود التبعية للغرب التى ترسخت فى الواقع الاقتصادى والثقافى [2] وإنقاذ الأمة العربية والأجيال الصاعدة مما تتعرض له من مسح ومسخ للذاكرة القومية والهوية القيمية التى لا نزال نحتمى تحت ظلالها، وهى تختلف عن تلك الهوية التى تنصبها العولمة لنا كفخ نبقى بمقتضاها تابعين ومسيرين لا مخيرين .

الذاكرة والهوية :

أولاً : الذاكرة ومفهومها :

يتحدد تناول الذاكرة بالصورة التى تبرزها العلوم الإنسانية وتحديداً التاريخ ، والأنثروبولوجيا . والأخيرة هذه تهتم بالذاكرة الجماعية أكثر من اهتمامها بالذاكرة الفردية، والأولى هى التى تشغل اهتمامنا فى الوقت الراهن الذى أصبحت فيه

---

(١) د. مصطفى عدوى أزمة الثقافة العربية والحوار فى ظل العولمة وثورة المعلومات ، مجلة الكلمة، العدد ٢٥ ، خريف ١٩٩٩ ، ص١٠١ .

(٢) نبيل عبد الكريم : التابع والمتبوع قراءة فى العلاقات الاقتصادية بين دول الشمال ودول الجنوب، مجلة منبر الحوار ، العدد ٢٥ صيف ١٩٩٢ ، ص٧٩ .

الشركات متعددة الجنسيات وثورة المعلومات تكتسح الحدود وتغزو العقول محطمة كل الحواجز التى كانت قائمة خاصة تلك التى لا تمتلك وسائل الدفاع القوية كما هو حال الأمة العربية ونطاقها القومى . فالذاكرة هى خاصية حفظ المعلومات أو بعضها ، وهى تحيل إلى جملة من الوظائف النفسية يستطيع الإنسان بفضلها استرجاع وإحياء انطباعات أو معلومات انقضت ومن ثم يتمثلها كما هى وما تعيشه الأمة العربية فى ظروف العولمة والنظام العالمى الجديد، وبالذات منذ أوائل عقد التسعينات للقرن الماضى هو محاولة إفراغ قسرى لمخزون ذاكرة هذه الأمة ووجود فقدان فردى لها تؤدى إلى اضطراب فى الشخصية وتنسحب أيضاً على الذاكرة الجمعية . فغياب أو فقدان الذاكرة الجمعية عند الأمم والشعوب طوعاً أم قسراً من الممكن أن يقود إلى اضطرابات خطيرة وحادة فى الهوية الجمعية ولأن تاريخ الذاكرة قد اعتمد فى مراحله الأولى على التناقل الشفاهى المؤسس على الأساطير وتحديداً أساطير الأصل أو البدء ؛ وظهور الكتابة يرتبط بتحول عميق فى الذاكرة الجمعية عندما أخذت شكل التدوين عبر النقوش وما تبعها والتى احتفظت بجزء مهم فى الذاكرة التاريخية تمثلت فى الحضارات القديمة فى المنطقة العربية.. الفراعنة فى مصر والسبأيين والحميريين فى اليمن والآشورين والبابليين ببابل فى العراق والكنعانيين فى بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) وكلها حضارات نعتبرها منبع افتخارنا دون أن نجعل منها المكون المؤسس لانطلاق تقدمنا وازدهار حضاراتنا المعاصرة ، لقد أصبحت الذاكرة عندنا ركناً أساسياً من أركان الخطابة الأساسية التى يستعملها الحكام وبعض حُثالات المثقفين فى إشعال جذوة الحماس الوطنى عند البسطاء من عامة الشعب لينسوا جوع بطونهم وجراح أجسادهم التى أنكتها صياد هؤلاء الخطباء العظام من زعماء القومية العربية وحماة الإسلام وهم يرددون " يا أبناء سبأ وحمير ، يا أبناء بابل وكنعان ، ويا أحفاد الفراعنة العظام .. الخ " دون أن تعرف هذه الجماهير منهم هؤلاء الأجداد وماذا صنعوا فى التاريخ حتى يكونوا نبراساً وقدوة لانطلاقة جديدة يقوم بها الأحفاد فى بناء حضارة معاصرة تأخذ مكانتها بين الأمم على وجه هذه الأراضى التى يعيشون على سطحها، وحتى لا تتعرض للمسخ والمس عن طريق ما تبثه وسائط الإعلام والاتصال من برامج ذات مضامين دعائية إعلانية متطورة تجعل الإنسان العربى يعيش

حالـة ذهـول وانفصام بين الخطاب الحماسي والقمع المنظم فى الداخل والموروث منذ عـدة قرون، وبين ما يأتيه من الخارج عبر الأقمار الصناعية ووسائل الإعلام والاتصال المختلفة.

والغريـب والمريـب .. هـو أمـر أصـحاب هـذا الخطـاب الذين يصرون على أن يتمسـكون بأسـاليب سـلطوية فـى كـل ظـروف أصـبح فـيها التشبث بطـوق النجاة الوهمـى غـير ذى جـدوى، هذه الظروف التى أصبحت تخضع لتطور عالم معاصر يقع تحـت ضـغط التاريخ المباشر ، وهو فى الجزء منه يصنع فورياً بواسطة وسائل الإعلام ، ويـنحو نحو الإنتاج المتعاظم للذاكرة الجمعية . وبات التاريخ يكتب أكثر من أى وقت مضى تحت ضغط هذه الذاكرة الجمعية .

الهوية والخصوصية :

أرى أن الغـرب الاسـتعمارى مـنذ بـزوغ الدولـة القومـية هو الذى يعمل على تعزيـز وتعمـيق التصـنيفات النهائية للثقافات والحضارات ، فهو حريص أن يبقى على فكـر الآخـر غـير الأوروبـى والأمـريكى الشـمالى محصور فى الإناء القديم فقط باسم الحفـاظ عـلى الخصوصـية والهوية الثقافية. وفى حالة العرب والمسلمين مهم جداً حماية الهويـة الثقافـية والخصوصـية العقائديـة وغيرهـا مـن الخصوصـيات الـتى ظلـت سمات الإنسـان العـربى والمسـلم لفـترة تاريخية طويلـة مـثل الـتكافل والتراحـم ومثل نصرة المظلـوم والوقـوف في وجه الظالم، وهى نادرة الحدوث الآن ، وأيضاً الكرم والشهامة والصدق الذى أوصى به الدين الإسلامى فى التعامل وفى القول والفعل والذى لم يعد لـه وجـود فـى عصرنا الحاضر إضافة إلى الحفاظ على التراث الثقافى والأدبى والثقافى بكـل إنجازاتـه وبكـل معطـياته حـتى يكـون مرجعية وحافـزاً يمـد الأمـة بعـزيمة البـناء والـتجديد والأخـذ بـأدوات التطور والإبداع الذى يقوى شكـيمة الإسلام والعروبة ، حتى تجعلها فى مقدمة الأمم لا أن تكون تابعة أو مستكينة لحثالات الأمم .٪

إن الشـواهد والوقـائع فـيما يتعلق بممارستنا لخصوصيتنا وعالميتنا إنها تقع على طـرفى نقيض فعرب يحرضون ويُحرضون عل قتل بعضهم البعض وبلدان عربية تخضع وحدهـا لحصـار غـربى ظالم بمساعدة عربية ومسلمون يقتتلون فى أفغانستان والجزائر ودول عربـية تعـيش وتمـوت منذ عقد من الزمن بدون حكومة (الصومال) وبلد عربى

تدمر الآلة الصهيونية العسكرية بنية التحقيق كل شهر مرة ونحن نفتخر كلما أعدنا جزءاً مما دمرته وأنظمة عربية ترسل بالتهاني المعلنة والخفية وتبعث مندوبين لتقديم التهاني للقادة الإسرائيليين وللسفارات الصهيونية بمناسبة العيد القومي (والعيد القومي هذا هو ذكرى إعلان الدولة الصهيونية) . والتي شردت وقتلت الملايين من أبناء فلسطين ثم خربت وقتلت عشرات الآلاف من العرب في مصر وسوريا ولبنان والأردن . هذه الخصوصية هي التي يحرص الغرب العولمي على تعزيزها لكي يستبعد من دائرة التقدم والحداثة والعقلانية كل الثقافات التي تقع خارج المساحة الغربية ، والخطاب الغربي حول الخصوصيات الثقافية خطاب مخادع يريد للآخرين وفي مقدمتهم العرب والمسلمين أن يبقوا أسرى تاريخهم ورهن هويتهم الضيقة أو انتماءاتهم التقليدية الهامشية .

إذن فخطاب الهوية سيف ذو حدين ، قد تكون له دلالته على القوة والحضور والازدهار ، وقد يكون على العكس دلالة على الضعف والهوان ورضوخاً لمنطق السيطرة ، فأن يحتفظ العرب والمسلمين بهويتهم التي يريدها الغرب يعني أن يبقوا حيث هم من العجز والهامشية وانعدام الفاعلية ، من هنا أقول أن الحفاظ على الخصوصية.والهوية لا يعني أن نتناوله على نحو سلبي بوصفه تقوقعاً على الذات وتمترساً داخل قلاع باتت مخترقة ومكشوفة .

إنما نريد الحفاظ عليه هو الجانب الإيجابي من الهوية الذى أمد أطفال الأربيجي وحزب الله في لبنان وأطفال الحجارة ومجاهدى حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين بخصوصية الجهاد والاستشهاد في سبيل الدين والأمة وفي سبيل الأرض والكرامة، وحتى لا نتعرض للعنات أمهاتنا : هاجر وبلقيس ومريم القبطية علينا أن نستعيد ذاكرتنا ونراجع هويتنا ونقيم جوانب السلب والإيجاب فيهما حتى نخرج بخصوصية جديدة تخدم مصلحة الأمة وتحافظ على كيانها من خلال إعادة بناء القوة البشرية والتي هي أساس التقدم في كل مجالات الحياة والقادرة على صون مقدسات الأمة وتراثها وهويتها وخصوصيتها .

إن التعامل مع الأصول والنصوص والتقاليد لا يجوز أن تكون قيداً يكبل حركة الحياة المتجددة ، فلا يعني أن يكون حبي للغة العربية سداً مانعاً يقف أمام تعلمي اللغة الإنجليزية والإلمام بمعارفها لا سيما وهي تستحوذ على ٨٥٪ من مادة

شبكة الإنترنت ، وإلا أكون بهذا قد خالفت تعاليم ديننا الحنيف حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : " من تعلم لغة قوم أمن مكرهم " .

الحقيقة أن ثمة نصوص عربية وإسلامية فريدة وفذة تستحوذ علينا من فرط روعتها وجمالها ، وهناك علوم تشكل خبرة معرفية يجب أن نحسن قراءتها والاستفادة منها والحفاظ عليها ، ولهذا فإننا يجب أن نتعامل مع اللغة والنصوص والتراث كمواد أو كمعطيات ننطلق منها ونشتغل عليها على نحو يمنحنا المزيد من المعرفة والقدرة بحيث يتيح لنا أن ننتج ونبتكر وأن نكون في سبق دائم على أنفسنا كي نحضر في هذا العالم الذى لا يرحم الضعيف الحضور الفعال والمؤثر واللائق[1].

ومن المؤسف إن ما نتشبث به من الموروث هو المسيء والمضر مثل توريث الحكم الذى أقره معاوية بن أبى سفيان وهو ليس من التراث الذى يجب التمسك به أو الحفاظ عليه ، ولا نرى أن ترنح وانحطاط الخلافة العباسية بين سلطان الموالى الفرس والأتراك هى هوية يجب الذود عنها ، ولا ، ولا ... الخ .

إن الالتباس يتحول إلى أزمة عندما يتراكم الإحساس بالمهانة كنتيجة مباشرة للسيطرة التى أسسها الهجوم الاستعمارى الغربى على المنطقة فيغذى هذا الالتباس أفكار الرفض ويؤدى للتعسف فى استعمال مسألة الهوية .

وتشغلنا إشكالية الثنائية المستعصية بين القبول الذى يجد تعبيراته فى الإيماءة بالحداثة ، وبين الرفض الذى يُنصّبُ الهوية درعاً لاتقاء الخارج ودفع بلائه .

وفى هذا الصدد فإن شيئاً واحد يمكن الاتفاق عليه وهو أن الفكر العربى عجز عن تقديم إجابة شافية بما يحصر الهوية ولم يستطع أن يرد على النداء الذى أطلقه فرانز فانون إلى مثقفى ومناضلى العالم الثالث قبل وفاته حيث قال هيا أيها الرفاق لقد انتهت اللعبة الأوروبية فلنبحث عن شيء مغاير " [2].

كان فانون يعتقد كما نحن نعتقد إن الاستعمار وحده المسئول عن تخلف هذا العالم ، لكن الاستعمار ولى والدول المستعمرة نالت استقلالها واستقرت السلطات

---

(١) مجلة الفكر العربى : العدد ٧٤ خريف ١٩٩٣ ص٧٣ .

(٢) فهيمة شرف الدين : الفكر الاستراتيجى الغربى ، العدد ٩١ ، شتاء ١٩٩٨ ، ص٨٨ .

الوطنية فى إدارة حكم البلاد ولم يندحر التخلف بل ازدادت الفجوة بيننا وبين العالم الأول ومن المؤكد أن العرب مقارنة بغيرهم من الشعوب فى ظل القرن الواحد والعشرين أضعف مما كانوا حين دخلوا القرن العشرين [١] ، ربما ذلك لأن مفكروا القرن التاسع عشر لم ينشغلوا بهويتهم بل إن الأولوية فى ترتيب المسائل الفكرية أعطت لفهم كنه التقدم وآلياته ، وقد تجلى ذلك فى كتاباتهم وفى مواقفهم من الوافد الجديد.

يقول الدكتور محمد عمارة فى مقدمة التحقيق الذى أنجزه لمؤلفات رفاعة الطهطاوى ، " وكان الطهطاوى أول عين عربية تأملت فى وعى عميق ، ومن موقع المحب ، حضارة الغرب الحديثة ممثلة فى حضارة الفرنسيين [٢] .

لقد كان الطهطاوى مطلعاً على الحضارة الإسلامية متشبعاً بها يعرف لحظات انتصارها ولحظات صمودها ، كان يعلم أن التفاعل مع الغير أتاح للعصور العباسية أن تكون عصور علم ومعرفة ، وأن الانغلاق على الذات داخل سياج الدولة العثمانية أنتج عصور الانحطاط ، ولم تكن دولة محمد على ومسارات التحديث التى أرست قواعد هذه الدولة سوى ثمرة لهذه النظرة الإيجابية إلى الآخر ونتيجة ترتيب الأولويات فى المسائل التى شغلت الفكر العربى آنذاك .

لم يلمح على هؤلاء المفكرين سؤال الهوية ، ربما لأنهم كانوا لا يزالون ممثلين بها ، وكانت الأفكار المتولدة فى إشاعات الثورة الفرنسية لا تزال فى أوج انتصارها ، ولم تبلغ العدوانية الغربية مداها بعد .

لكن هذه الآمال تبخرت مع أول صدام للدولة مع الآخر عندما أوقفت الدول الغربية مجتمعة الهجوم الذى قاده إبراهيم باشا لاستعادة المشرق العربى من الدولة العثمانية على أبواب عكا .

---

(١) سمير أمين : L,Afrigue et le mond apabe , ed Tharmatta 1996.

(٢) د. محمد عمارة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بطاقة حياة.

بداية تكوين الهوية العربية :

كانت هزيمة أحمد عرابي إيذاناً بالتحول إلى مناقشة مسألة الهوية بالتكوين ، من نحن؟ وكيف ندير مسائل التقدم ؟ ولماذا تخلف العرب والمسلمون وتقدم غيرهم؟

ظهر سؤال الهوية في تلك المرحلة مرتبكاً فلقد ظل التقدم شرطاً لامتلاك الهوية موازياً لها ، وكان النشاط الفكرى الذى قاده محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا ثم الكواكبى ينصب على المواءمة بين التقدم والهزيمة وعندما نتحدث عن المحيط الثقافي الاجتماعي لابد أن نضع الفكر في قلب التاريخ . والتاريخ العربى ليس ساكناً ، فقد عرف الانتصارات والانكسارات التى كان يعبر عنها الفكر العربى عبر ترتيبات أولية ففى فترات الانتصار كانت لغة التقدم هى التى تنتصر أما في فترات الانكسار والتراجع ، فإن التعبيرات الفكرية تتلعثم أمام العوائق فتظهر دفعة واحدة مسائل الهوية والخصوصية بما فيها من تاريخ وثقافة وعقيدة ، وهذا يعنى أن الناتج الفكرى ذاته ، هو نتيجة الاحتكاك مع المحيط الذى يتعامل معه أى المحيط الثقافى الاجتماعى خاصة [1].

وعندما نتحدث عن الفكر العربى فى مواجهة العولمة ، فإننا نتحدث عن رؤية جديدة للعالم تعيد تشكيل التحديات القديمة عبر منظومة من الأفكار والقيم والسلوك تجد صداها الإيجابى فى جميع أنحاء العالم . فحقوق الإنسان والديموقراطية وتحسين ظروف المعيشة كلها قيماً جاذبة فى ظل مناخات الاستبداد والظلم والفقر التى تسيطر على مجتمعات العالم الثالث والعالم العربى فى قلبه .

وصحيح أن هذه الدعاوى تخضع لشروط موضوعية لازالت تعمق الفجوة بين العالم المتقدم والعالم المتخلف، ولكن إهمال المتغيرات التى هزت النظم السياسية والمنظومات الفكرية والقيمة التى تؤدى إلى فهم خاطئ للواقع العربى وطموحاته ، خاصة وأن الوطن العربى كان هو مركز الزلزال بل إنه يفقد إمكانية التجاوز لأن الانغلاق على الذات وممارسة الرفض بحجة صيانة الشخصية العربية لا تمنع الاختراق

---

(١) د. محمد عابد الجابرى : تكوين العقل العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩١ ص١٢.

المنظم لبنائنا الفني والثقافي ، هذا الاختراق المدعوم بشروط التقدم العلمي والتقني الهائل في وسائل الاتصال والإعلام (الأقمار الصناعية ، الحواسيب ، الإنترنت وغيرها) . كما أن القبول غير المشروط لآليات العولمة والتماهي غير المشروط أيضاً مع القوى أو الغالب لا يؤدى فى شروط الغابة الحالية إلاّ إلى مزيد من تهميش الذات وتهجين المسارات الإنمائية والثقافية والسياسية خاصة وأن المرجعية وحدانية فى الوقت الراهن وغير قابلة للتعديل [١] . فالهيمنة كما توحي بها المؤشرات الفعلية هي أمريكية الطابع تظهر بقوة فى جميع المستويات :

فى المستوى العسكرى : حيث يتخذ التدخل العسكرى الأمريكي شكلاً سافراً تحت علم الأمم المتحدة . ولا نستطيع قراءة النتائج السياسية لحرب الخليج الثانية إلا فى علاقاتها بالاتجاه نحو تأكيد وحدانية المرجعية العسكرية.

وفى المستوى الاقتصادى : تبدو مسائل المساعدات الخارجية والديون وأمركة أو دولرة الاقتصاد العالمي التى تجعل من مفهوم التصحيح الهيكلى المفضى إلى تخطى الدولة دورها فى رعاية المجتمع وإلى تكريس آليات السوق على المستوى الاقتصادى أساساً نظرياً لتحديد المسافة بين الازدهار والتقدم فى ظل غياب النموذج الآخر الاشتراكى ، ولا يمكن أن يتأكد دور هذه المستويات وأهميتها إذا لم تتوج جميعها بوحدانية النمط الثقافى وتستخدم من أجل ذلك كل الوسائل التى أنتجتها ثورة الاتصال حيث يعمم بواسطة الأقمار الصناعية (البث التلفزيونى عبر الأقمار الصناعية) نمط الحياة الأمريكية الرغيدة فى ظل التنافس على السلطة والمال ، حيث يشرع مفهوم الاستغلال ويصبح متكافئاً مع النجاح ، أما نمط العلاقات الاجتماعية ودرجة العدوانية التى تنشأ بين الأطراف المتنازعة والمتناحرة على الدوام فتبرزها مفاهيم النجاح والفشل فى ثنائية أبدية ترتكز على مفهوم الاصطفاء الطبيعى والمميزات الشخصية، وهذا يعنى عودة إلى التمايز على أساس العرق أو المولد الذى عدلت عن علوائه فسلفة عصر الأنوار والتراث الإنسانى النهوضى[٢] .

---

(١) مستقبل الأمة العربية :مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ .

(٢) الفكر العربى : مصدر سابق ص٩٥ .

الخصوصية وأصالة السيف :

السؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل نحافظ على كل ما هو موروث ونعتبره خصوصية عربية وهوية إسلامية ؟ أم فقط ننتقى ما هو منافى لأبسط حقوق الإنسان ؟ وهل خطاب السيف وضرب الأعناق بحده يدخل ضمن أصالتنا الإسلامية أم أنه خطاب إسلامى ظهر مع ظهور الصراع على السلطة ؟.

يبدو أن فهم الظاهرة العنيفة الإسلامية هذه بدءاً من دراسة خطابها خطاب السيف الذى له آلياته وظروف تشكله وعوامل تطوره لا تختلف عن مفاهيم مماثلة موجودة لدى الشعوب الأخرى من حيث وجود نزعة العنف سواء الناتج عن فعل الخيال الدينى أو بفعل الأنظمة الحاكمة ، فالعنف هو الحالة الطبيعية للمجتمعات بحسب هوبس Hobbes وحرب الجميع ضد الجميع ، فهناك ثلاثة مقترحات توضح المفهوم الهوبسى هى :

١ـ أن يتحرك الناس بواسطة الرغبات نفسها .

٢ـ أن تكون هذه الرغبة مستبدة دون رحمة إما لأنها البديل الذاتى للحاجات البيولوجية الجامعة وإما لأن إشباعها يشكل بحد ذاته سبباً كافياً للسعى إلى تجديدها .

٣ـ أن يشتق من تركيب الرغبة والثورة تنافس بين الناس يعرضهم إلى مخاطر التآكل العالمى [١] .

إن ارتباط العنف بالجماعات الإسلامية الاجتماعية عرفه تاريخنا العربى الإسلامى من خلال فرق إسلامية تبنت خطاب السيف وهو خطاب منشط سيكولوجى له قوة روحية خاصة يتحول إلى قوة مادية ، خطاب انتعش فى فترات الصراع السياسى وأحياناً استخدم كمبشر بالأمل وملء الأراضى عدلاً ويعتمد منهجية خاصة فى التأويل فى قراءته للنصوص القرآنية الكريمة : وهذا التأويل رآه بعض المفسرين والفقهاء فاسداً ولا يتقيد بشروط التأويل اللغوية والتاريخية لكن رغم ذلك بقى هذا التاريخ منشطاً ثقافياً وسيكولوجياً بسبب غياب العدالة وحضور

---

(١) ر. بودون وف بوريكو :المعجم النقدى لعلم الاجتماع .ترجمة سليم حداد ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

الاستبداد والظلم . لقد وجد مبررات غلوه من الواقع مستغلاً الخصوصية المجازية اللغوية للنص الديني وعندما نقول مجازية : فهذا يعنى نفى النص الدينى الصريح ، إذ لا يوجد فى القرآن الكريم نص يشير إلى ضرب الأعناق بالسيف. وحتى لو سلمنا بأن السيف وحده هو أصالتنا العربية ، وهو سلاح استخدم فى الصراعات المختلفة ، وسواء كانت صراعات على السلطة أو غزوات أو فتوحات أو صراعات حدودية قبلية ومراعية ونستخدمه الآن (يستخدم فى بعض الدول العربية فى ضرب الأعناق حيثما تنفذ أحكام الإعدام) كتقليد دينى أو اعتبار شرعى ، ونعتبر استخدامه جزء من الأصالة الإسلامية وانتصار لها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلما تنفق هذه الدولة عشرات المليارات فى شراء الأسلحة الأمريكية والأوروبية وغيرها وهى أسلحة إليكترونية متطورة ليزرية وإشعاعية... الخ بذريعة حماية النفس أو حماية الحدود أو الأمن القومى للدولة وإذا كان الأمر يتعلق بصرامة المورروث الأصالى فإن كل ما يتم استخدامه والتعامل معه فى هذه الدولة أو تلك مناقض للأصول والشرع ، ابتداء من جهاز الترانزستور إلى الصاروخ ، فهى كلها أدوات وآلات إنتاج الحضارة الغربية ولا علاقة لها بالإسلام وأصالته ولا بذاكرة الأمة العربية وهويتها ، والغريب فى الأمر هو الإصرار على التمسك بأدوات الإرهاب وآلياته وحدها، وإلا لماذا تسلم مفاتيح الاختراق لوسائل الإعلام الغربية والأمريكية لتدخل وتحضر كل مناحى حياتنا : ثم هل استدعاء الأجنبى واحتلاله للأراضى العربية الإسلامية والتحكم فى الإنسان العربى المسلم وفى مصادر رزقه وخيرات أرضه وقتل أطفال الأمة العربية وتشويه الأجيال القادمة هى أصالة وخصوصية : أم أنها أصبحت هويتنا الجديدة .

خطاب السيف أصالة إمامية :

بدأ استخدام السيف فى تاريخنا ضد بعضنا عندما بدأ الخلاف السياسى حول الإمامة . يقول أبو الحسن الأشعرى فى كتابه مقالات الإسلاميين "وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم فى الإمامة " (1) .

(1) أبو الحسن بن إسماعيل الأشعرى ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصيلى ط٣ ، بيروت ، دار الحداثة ١٩٨٥ ، ص٣٩ .

وقد أدرك على أبى طالب كرم الله وجهه ، خطورة تأويل النصوص محذراً من استخدامها فى إسالة الدماء ، وعندما كان يقاتل جيش معاوية بن أبى سفيان فى معركة صفين كان يردد :

نحن ضربناكم على تزويله فاليوم نضربكم على تأويله
حرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

إنما كان يهم النحل الإسلامية هو تثبيت آرائها الإيديولوجية ولو على حساب طبيعة النص ، عكس البلاغيين والفقهاء الذين تقيدوا بقواعد فى أصولها اللسانية ـ فى قراءات للنص القرآنى .

يقول الأشعرى : اختلف الناس فى السيف على أربعة أقاويل :

قال المعتزلة والزيدية والخوارج وكثير من المرجئة ذلك واجب إذا أمكننا أن نزيل بالسيف أهل البغى ونقيم الحق ، واستشهدوا بقول الله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ وبقوله : ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ (١) .

إذن السيف كان آلة الحرب الرئيسية القديمة واستخدامه فى الوقت الراهن مخالفاً لكل القواعد النصية والخصوصية ويتعارض مع ما نسميه " الهوية " إنه هوية إرهابية استعبادية منافية لكل ما هو حق إنسانى .

قصدت بإيراد مثال السيف واستخدامه كمنبع أصولى إسلامى عربى كما يدعى البعض للدلالة على إنما يطرحه بعض المفكرين العرب حول الخصوصية ـ والذاكرة ـ الأصالة ـ والهوية ليست الخصائص الحقيقية والجوهرية فى أصالتنا وخصوصيتنا الإسلامية والعربية : إنها القشور وليست الأصول ، وإنما يجب الحفاظ عليه ليس ما يتمسح به الحكام المستبدون والأنظمة الظالمة : إنما نريده هو الحفاظ على تراثنا الإسلامى والعربى الحقيقى وهويتنا القومية النضالية ضد الظلم ولا مانع من عولمة الأنظمة العربية التى كرست كل جهودها لقمع الإنسان العربى بدلاً من تنميته .

(١) القرآن الكريم : سورة المائدة ، الآية ٢ .
نفس المصدر : سورة الحجرات الآية ٩ .

نريد عولمة الحكومات حتى تصبح أجهزة فى خدمة ما هو من نتاج الأمة وفى صالحها، ذلك لأن الأمة وليست الحكومة هى التى تملك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التى يمتاز بها الشعب ، وكل ما يجب أن تعمله الحكومة هو صيانة هذه الخصائص لا الإدعاء بتملكها .

إن الخطر الشديد يكمن فى اغتصاب السلطة ثقافة الأمة وهويتها والتفريط بأصالتها وحقوقها وذاكرتها التاريخية .

إن ما نريده هو أن تظل ثقافة الشعوب فوق الحكومات ، وهى حقاً كذلك وستظل كذلك رغم محاولة بعض الأنظمة والسلطات تكييف هذه الثقافة على هواها فتشوهها وتحرف معناها .. أحياناً بثقافة السلام وأحياناً أخرى بالواقعية ثم نبذ الصراع من أجل أكذوبة التنمية ولو على حساب الحقوق والكرامة والدين .

إن ثقافة الشعوب هى وليدة التجارب مع صور الحياة ومع حسن الأرض والسماء، ومع قيم الشهامة والرفعة ، ومع نداء الضمير ومع الشوق اللامتناهى لتحقيق أهداف الأمة ورغباتها .

إن ثقافة الشعوب العربية وهويتها ستظل مصونة رغم محاولة المفسدين إفسادها ستظل مع الصراع فى أمر تجربة تاريخية حتى تحسم هذا الصراع باسترجاع حقوقها : إنها تجربة الحق والإيمان (١) بالله والوطن العربى من محيطه إلى خليجه ، إنها تجربة الوطنية مع ظلم العولمة والنظام العالمى الجديد .

ومع هذا فلابد من إيجاد نقاط الالتقاء بين الإسلام وبين الجديد الوافد من الغرب .

إن محنة الأمة العربية بالأمس واليوم هو اغتصاب السلطة ثقافتها وسيطرتها على حياة الشعوب وكتم أنفاس الناس وحريتهم فى أن يختلفوا بمعتقداتهم وآرائهم وطرق تفكيرهم وأساليب حياتهم، ذلك إن دار الإنسان هى دار معتقداته ، والجماعة هى الميدان الذى يمارس فيه المواطن معتقداته ويدافع عن أية قضية يؤمن بها أو أرض يذود عنها ولو خالف بها ساكنى الدار المغتصبين (٢) .

---

(١) روبرت ام ـ ماكيفر: تكوين الدولة : ترجمة حسن صعب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ص٥٢٤.

(٢) غسان سلامة:نحو عقد اجتماعى عربى جديد ، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ١٩٨٧ ، ص٢٥ .

علـى ضوء التحديد يميز ايستون بين الشرعية الفردية من حيث لا يذوب الفرد فى الجماعة وإنما يذيبها ويتقمصها ، يميز ذلك من شرعية الأصول ، الشرعية العقلانية والتى لا تعنى التحديد الواضح والدقيق والمفصل للحقوق والواجبات .

إن الحفـاظ عـلى الهويـة والأصالة والخصوصية ... الخ تعنى أولاً وقبل كل شيء فكـاك الأنظمـة العربيـة أو بعضها عن التبعية والاطمئنان إلى شعوبها التواقة إلى الحرية واستقلالية الفرار إلى أن ترى حكامها يلتزمون بما يطلقونه من شعارات دينية كانت أم قومية ووطنية .

إنـنا أمـام وقـائع نضـالية وجهادية حديثة ناجحة تقوم بها مجموعات أو جماهير ضـد المحتل فتجـبره على التراجع والانسحابات والمراجعة، ولكن هذا بالفعل تأتى لها فـى غياب سـلطة عربيـة أو فـى جودهـا ضعيفة : الأولى حالة انتفاضة أطفال الحجارة الـتى كانـت سبباً فى استدعاء السلطة التى تولت إخماد جذوتها ، والثانية حال حزب الله فـى لبـنان الـذى أشـبعناه قدحاً وذماً ونعتـناه بأبسـع النعوت عندما حولنا مفهوم الاستشهاد والجهاد إلى إرهاب والوطنية إلى عمالة وفتحنا أبواب الحوارات والندوات والمؤتمـرات بمصـراعيها وأحـياناً القنوات الفضائية لإدانة هذا النوع من الإرهاب ، بل عقدنـا لـه مؤتمـرات دولـية كـان أهمهـا مؤتمر شرم الشيخ الذى كرس لإدانة ومحاربة الإرهـاب الإسلامى العربى حتى تصبح الحرب ضد العرب والمسلمين مُشرّعة دولياً ، ويصـبح الدفـا ع عـن الحضارة الغربية ضد الخطر الإسلامى والإرهاب العربى ضرورة لا يجب الـنهاون حـيالها حسـب كـتابات المفكـرين الاستراتيجيين الأمريكيين الذين لم يتورعوا عن استخدامها على أساس كونها مفهوماً يقتضى التركيز عليه . وقد عبر عن هذا الاتجاه و.س.ليند الكاتب الإستراتيجى الأمريكى فى مقالته المنشورة عام ١٩٩١ فـى مجلـة السياسية الخارجية الأمريكـية عدد (٨٤) تحت عنوان الدفا ع عن الحضارة الغربـية إذ تنبأ هـذا الكاتـب بـأن حـرب الخلـيج الثانـية سـتكون هـى الحلقـة الأولى فـى سلسـلة الحـروب الثقافـية المقبلة والتى ستتوجه بعد انهيار الشيوعيـة فى الصراع مـع الحضـارة الإسلامية [١] .

(١) السيد ياسين (مقالة منشورة فى جريدة الاتحاد الصادرة فى ١٩٩٤/٢/٢١) .

وإذا كانت هذه المقالة تلفت الانتباه ، فهناك مقالة عالم السياسة الأمريكى المشهور صامويل هنتجتون والصدام بين الحضارات . التى نشرت فى مجلة فورين أفير ، إذ لاقت تجاوباً ملحوظاً بسبب أهمية وسعة انتشارها وبسبب الردود الكثيرة التى تلقتها هذه المجلة والتى تؤيد رأى هنتجتون وشجعته على نشر كتابه الشهير صراع الحضارات .

ولم يقتصر الأمر هذا على السياسة وحدها ، بل إن الفلسفة هى الأخرى قد أدلت بدلوها فى هذا الشأن ، وهذا يتضح من كتاب نهاية التاريخ لـ(فوكوياما) .

وخلاصة هذا الكتاب إن التاريخ وليد الصراع ، ويعتبر هذا التاريخ منتهياً بالانتصار على الشيوعية الذى ترك الساحة مفتوحة أمام النموذج الحضارى الأمريكى الذى سيعم العالم .

وفى هذا الكتاب تعرض " فوكوياما " للمسلمين ونواتهم العرب فوصفهم بالعطالة الفكرية والحضارية ، الأمر الذى يحول دون تكوينهم كتلة تاريخية فاعلة تستطيع الوقوف فى وجه النموذج الرأسمالى المنتصر .

إن أمر الثقافة والهوية والخصوصيات العربية والحفاظ عليها مرهون بنا وبحكامنا الذين عليهم أن يضعوا حدوداً ومناطق محرمة لا تخضع للتبعية ولا تستكين لأساليب التخويف بهز الكراسى وإنما تخضع لشيء واحد فقط هى الإرادة الشعبية والإرادة الذاتية التى لا تخضع إلاّ لوخزات الضمير ، وبالتالى فإن الحكام العرب والشعوب العربية سيتمكنون وبقوة من اتخاذ مواقف الرفض حتى لو كانت الأمة فى حالة الجلد .

إن تلاحم الأمة مع حكامها وتبادلها الحب المرغوب هو السبيل إلى خلاص الأمة من محنتها وهو أمضى سلاح النصر على أعدائها بل وهو الضمان الوحيد لثبات كراسى الحكم واستمراريتها .

وإذا ما عرف حكامنا بأن الحب المفروض نفاق ، والزواج القسرى زناء ، والتجارة الملزمة استغلال ، فإن الابتعاد عن هذه الخطايا والتخلص منها تتطلب التوبة والاقتراب من الجماهير والعودة إليها فى كل قضية من قضاياها المصيرية بدلاً من

التهافت على الدمج مع الكيان الصهيوني والاستجابة لمؤسسات التطبيع الصهيونية الأمريكية الخطيرة التي لم تتوقف عند الكبار بل طالبت الصغار في برنامج تحدى المغامرة وحركة " بذور السلام " التي أسسها الصحفي الأمريكي جون والاس في عام ١٩٩٣ مباشرة عقب اتفاق إعلان المبادئ الذى وقعه عرفات ورابين في واشنطن بحضور الرئيس الأمريكي بيل كلينتون . وهدف هذه الحركة التي تمولها المؤسسات الصهيونية في الولايات المتحدة الجمع بين الأجيال الجديدة من العرب والإسرائيليين وتنقية وجدانهم من بذور الخوف والتوحش والكراهية(١) . في بدايتها نجحت حركة بذور السلام هذه في جمع ٥٠ فتاً وفتاة من ثلاث دول شرق أوسطية إسرائيل ودولتين أخرى عربية ، وبمضي الوقت نجحت في جذب سبع دول عربية إلى جانب إسرائيل هي الأردن ـ فلسطين ـ مصر ـ المغرب ـ تونس ـ قطر ـ اليمن ووصل عدد المشاركين في المعسكر الصيفي الذى أقيم عام ١٩٩٩ إلى ٤٠٠ فتى وفتاة من تلك الدول وهؤلاء تم انتقائهم من بين ثلاثة آلاف فتى وفتاة تقدموا للالتحاق بالمعسكر ويقول أصحاب مشروع بذور السلام أن مشروعهم لقى حفاوه من مختلف الجهات المعنية بمستقبل الشرق الأوسط كما أن عدد من زعماء العالم لم يتردد في مساندته ، وقد ذكروا من أولئك الزعماء إيهود باراك رئيس وزراء الكيان الصهيوني والرئيس الفلسطيني ياسرعرفات وكوفى عنان السكرتير العام للأمم المتحدة والملك حسين ملك الأردن الراحاأل وزوجته وشيمون بيريز ، كما أنه في كل صيف ينظم لقاء في ختام المعسكر لبذور السلام مع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ونائبه ال.جور ووزير خارجيته مادلين أولبرايت ويدعون إلى الإفطار أو الغداء مع أعضاء الكونجرس الديموقراطيين والجمهوريين ، وتتم تلك الأخيرة التي يقصدونها كل عام بعد انتهاء مهمتهم في معسكر ولاية " مير " ، لاحظ أن الحفاوة إسرائيلية وأمريكية بالدرجة الأولى ، وأنه من بين القادة العرب لم يؤيد المشروع سوى الملك حسين والرئيس عرفات. والسؤال هو ماذا يفعلون في معسكرهم الكبير في مير؟ البراءة التي عرضت بها مقاصد المشروع قدمت بها وسائله فأولئك المتفانون في خدمة السلام استجلبوا نفراً من نظرائهم المؤمنين بقضية السلام والمتخصصين في علم النفس والاجتماع

(١) أمين هويدى ، لنقص أيدينا في هذه اللعبة ، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام ٩/٥/٢٠٠٠ .

وحل الصراعات مهمتهم تنحصر فى إعادة تشكيل مدارك الصبيان والصبايا بحيث يتطهرون من إدارة المرارة والبغض ، وبعد أن يصبحوا أكثر بياضاً حيث تسوى تربيتهم النفسية وتنتزع منها الأشواك وكل مدبب وغير مرغوب فى الذاكرة تغرس البذور المعدة سلفاً على جرعات تحقق المراد فى نهاية المطاف .

أما البرامج اليومية فى المعسكر فتشمل اجتماعات يومية بحضور الأخصائيين فى علم النفس والاجتماع ويتبادل الصبايا والصبيات من طرفى هذا النزاع بإشراف الخبراء ما يجول بخواطرهم فى شأن مختلف القضايا العامة وبوجه أخص يتحدثون عن تصوراتهم للآخر وعن أحلامهم وتطلعاتهم ، والخدمات الدينية ثمة حرص على أداء كل طرف شعائره أمام الآخر حتى يتعرف على تلك الشعائر عن قرب . فالمسلمون يؤدون صلاة الجمعة عند ظهور شمس يوم الجمعة فى ساحة ملعب المعسكر على مراء من الجميع كما يؤدى الصبيان اليهود شعائرهم فى وقت آخر بعده وفى نفس اليوم ، وهناك عروض ثقافية كل مجموعة تعرض فيها من تراثها وأغانيها ورقصاتها للتعرف على ثقافة الآخر ، وهناك برنامج باسم تحدى المغامرة - يرتب مجموعة من الفتيان والفتيات تقوم بأعمال مشتركة فى الرياضة والبناء ، تسمح لها بالتفاعل واقتراب كل طرف من الآخر بعد غسيل المخ وتنظيفه وإعادة ترتيب الذاكرة يعود الفتية إلى بلادهم باعتبارهم رسل سلام ووئام ومحبة ، وحتى يحقق البرنامج غرضه فإن منظموه حرصوا على أن يتم الاتصال بينهم باستمرار عبر شبكة إلكترونية مغلقة على أعضائها وهو ما يبعث على التساؤل والارتياب ، لأن الأمر إذا كان مقصوراً على حمل رسالة السلام بين الناس ، فما موجب السرية فيه.

إن الامتلاك العسكرى أو الاستعمار التقليدى يقوم على الاحتلال أى على القوة . أما هذا الدمج الجديد المزيف فيحتاج من حيث النتيجة إلى الثقافة وهكذا فمشكلتنا الأساسية مع التطبيع المزعوم هى المسخ وغسيل أمخاخ شبابنا ومحو ذاكرتهم الذى يدخل ضمن المشروع الثقافى التطبيعى الخطير الذى يضخه وسيستمر فى ضخه المشروع الإمبريالى الصهيونى لمخاطرة أمتنا وإقصائها وطمس ثقافتها وهويتها ، وهزيمتها نفسياً وروحياً ، لأن التحالف الصهيونى الأمريكى بهذه الهزيمة يدك أخر معقل من معاقل وجودنا[1] .

---

(١) برهان زريق :التطبيع والتطويع والتغريب والتفريق ، الفكر العربى ، خريف ١٩٩٦ ، ص٦٨.

ثانيًا : الإعلام والعولمة والغزو الثقافي:

تكامل الثقافي مع الإعلامي:

ثمة من يفصل بين ما هو ثقافي وما هو إعلامي ونجد أخطاراً كثيرة في عالمنا العربي تفصل بينهما بإنشاء وزاريتي الأولى للإعلام والثانية للثقافة: وقد يكون هذا الفصل تبريرا لإيجاد وظيفة لوزير أو لشخص مرغوب فيه. أو أن هذا الفصل يتم لغرض تخفيف الإجراءات الإدارية أو الاهتمام بالجوانب الشكلية.

ورغم تفرع التعريفات وتعددها للثقافة والسياسة والإعلام فلا أرى شيئا يفصل بين الثلاثة، ذلك أن الإعلام هو إعلامي سياسي وثقافي واجتماعي واقتصادى، إذ أنه مرآة عاكسة لديناميكية الحياة الاجتماعية بكل تفرعاتها، والإعلام والسياسة والثقافة عناصرها الرئيسية.

وحتى لا نتوه في محيط التعريفات، فإن هناك اتفاق أو شبه اتفاق على وجود تكامل بين الإعلام والثقافة من حيث المعرفة والإبداع والقيم والسلوك(١).

فالثقافة تعتبر منظومة متكاملة، تضم في إطارها المعارف والمعلومات المتوارثة أو المنقولة التي لها صلة بشئون حياة الإنسان وتفسيراتها ووسائل نشر الإبداع والمعارف والمعلومات إلى جانب الإبداع الفني والأدبي والعقائدى والقيمي وأنماط السلوك وعلاقاتها بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية. والثقافة ترسم تراث الأمة المادى والروحي الذي يشكل خصائصها، وقيمها وصورتها الحضارية، كما يشكل سلوكها الحياتي وإبداعها المتصل المتطور، ومثلها العليا، وطموحاتها المستقبلية وما ترسمه لنفسها من أهداف وتطلعات.

إن الثقافة في جوهرها تعبير عن النشاط الإنساني ، والإعلام هو أداة التفسير والتطوير والنشر، فوسائل الاتصال والإعلام هي الأداة الناقلة للثقافة من حيث أنها تساعد على دعم المواقف الثقافية والتأثير فيها وحفر الأنماط السلوكية وتعزيزها وطرح مفاهيمها على الجمهور من خلال البث والنشر والشرح المستفيض لما يمكن

---

(١) سعد لبيب: السياسة الثقافية العربية في ضوء تطوير التقنيات الحالية والمستقبلية في مجال الاتصال ١٩٩٤، ص١٤٨.

اعتباره فعل ثقافي عضوى. ولا ينحصر دور وسائل الإعلام والاتصال فى عملية النقل والنشر فحسب، بل تحقق فى تعاضدها مع الثقافة نوع من التكامل الاجتماعى. ويجعلها تلعب دورا أساسيا فى بلورة الثقافة وإزالة ما لصق بها من بعض التشوهات التى حدثت فى الماضى هنا وهناك وتضفى عليها طابع ديموقراطى[1].

والأمة العربية بكل أقطارها وتفرعاتها المصطنعة تشكل اتفاقاً خصائصيا، من حيث القيم والعادات والتقاليد والتاريخ واللغة والدين: أى أنها تمثل نموذجاً فريداً يجعل من السهل عليها واليسير أن تقيم سياسة ثقافية إعلامية تقيم بعض الحواجز ضد الاختراقات الإمبريالية الغربية والصهيونية التى تستهدف كيان الأمة وخصائصها القيمة والثقافية، ومحاولة طمس الهوية والذاكرة التاريخية لأمة الضاد، وتحصنها ولو جزئيا من أنماط وسلوكيات الحياة الغربية والأمريكية التى أصبحت جوهر العولمة وعنوانها الواضح. إن العولمة الأمريكية الصهيونية تسعى جاهدة ودون أى تهاون إلى اختراق الأمة العربية مستخدمة كل الوسائل التكتيكية من إعلامية وثقافية وسياسية وتربوية .. الخ.

ثورة تكنولوجيا الاتصال واختراق الثقافة العربية:

حدثت تطورات واسعة فى استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال على مستوى العالم وعلى المستوى الإقليمى العربى الذى أخذ يقفز بمعدلات كبيرة منذ أواخر الثمانينات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين، حيث حدثت قفزات هائلة فى مجال اقتناء واستخدام الكومبيوتر مكن التواصل بين الأطراف، ومع مراكز المعلومات فى الداخل والخارج، وظهرت شبكات المعلومات عن طريق التليفزيون، وحصل تسابق محموم على اقتناء الهوائيات المستقبلة للأقمار الصناعية وتهافت على استئجار القنوات القمرية، والكم الهائل من القنوات التليفزيونية الفضائية العربية وغير العربية والتى ستزيد مع استخدام نظام (الحزم) التليفزيونية التى تجمع بين بعض القنوات العربية وعدد من القنوات الفضائية الأجنبية بحيث يجرى استقبالها معا،

---

(١) منظمة اليونسكو أصوات متعددة وعالم واحد، تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص٨٣.

باستخدام جهاز خاص لفك الشفرة لبعض المشتركين فى (الحزمة) مقابل اشتراك سنوى، وشهرى، وهو نظام بدأ العمل به فى المنطقة العربية، ويتم البث من خارج المنطقة لأسباب فنية.

الاختراق الثقافى عن طريق البث الوافد:

أظهرت بعض الدراسات أن أكثر القيم السلبية بروزا فى المسلسلات الأجنبية التى تعرض على شاشات التلفزيون العربية هى: الفردية والقسوة والعنف والتعصب والعدوانية والخيانة والسرقة والخداع. وأن هذه المسلسلات الأجنبية -لا سيما الأمريكية منها- تروج باستمرار الجوانب الانحلالية، كإقامة علاقات جنسية غير مشروعة بين شباب الجنسين .. كما أنها تعكس ضعف الروابط الأسرية والاجتماعية على حد سواء . وأن معظم الموضوعات المقدمة فى المسلسلات الأجنبية لا تتناسب مع خطط التنمية ومستوى التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى الدول العربية(١).

مؤثرات البث الوافد:

لسنا نحن العرب وحدنا ولا دول العالم الثالث المتخلفة مثلنا الذين نخاف الاختراق الثقافى، فقد أصبح ظاهرة عالمية تشكو منه دول أوروبية متقدمة، الأمر الذى دفع أحد وزراء الثقافة الأوروبية إلى المناداة بحرب مقدسة ضد هذه الإمبريالية الفكرية التى تغزو العقول، وتمتلك أنماط التفكير وأساليب الحياة.

ومنذ بداية التسعينيات صدرت كتب عديدة فى الدول الأوروبية تحذر من سطوة الثقافة الأمريكية على ثقافات هذه الدول الوطنية: ففى فرنسا على سبيل المثال كتاب "هنرى جوبار" "الحرب الثقافية" و الآخر "لجاك تيبو" بعنوان "فرنسا المستعمرة" والكتابان يحذران من مخاطر الاختراق الثقافى لفرنسا والدول الأوروبية الأخرى، وتهديده لهويتها الثقافية.

---

(١) دراسة فى مجال الاختراق الإعلامى للوطن العربى، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد ٢١، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٩٣، ص١١٥.

وإذا كانت أوروبا وفرنسا على وجه التحديد تخاف الاختراق الأمريكى وتشكو منه، فكيف سيكون حالنا نحن العرب ونحن لا نملك الوسائل ولا الأدوات التى تملكها أوروبا من حيث امتلاك قوة التكنولوجيا المتطورة والوسائط الإعلامية أو من حيث الإنتاج العلمى والأدبى سواء على مستوى البث الدرامى أو نقل المحتوى الثقافى والسياسى الإخبارى عن طريق وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة.

إذن ما نخافه هو المسخ المنظم والتدريجى للمواطن العربى ليصبح عاشقاً ومقلداً لنموذج الحياة الأمريكى ومستسلما له. والملاحظ أن هذا المسخ قد بدأ فى التدرج منذ عقد الستينيات، وبدأ الاستسلام أمام طريقة الحياة الأمريكية بشكل يبعث على الخوف والريبة منذ مطلع التسعينيات يتجلى أسلوب الاستهلاك فى معظم عواصم ومدن الدول العربية فى وسائل اللهو وفى التقليد فى الملبس وفى انتشار مطاعم الماكدونالد والكنتاكى والهومبرجر والبيتزاهت .. الخ. وحتى مظاهر الطلاب فى الجامعات أصبح نمط أمريكى، ولكن غبى.

ورغم أن العولمة الأمريكية عامة والثقافية بشكل خاص تهدف إلى جر العالم وراء أسلوب ونمط الحياة الأمريكية، إلا أن هجمات خاصة بآليات مختلفة تختص بها الأمة العربية من منطلق إنفرادها بالصراع العربى الصهيونى من ناحية ولكونها نواة الأمة الإسلامية من ناحية أخرى، فقد أصبحت إشارات الحرب الكاشفة ضدها تنطلق من وقت لآخر ومن مكان إلى مكان آخر فى الولايات المتحدة وضمن الإطار الأطلنطى[1]، ومن أهم آليات هذه الحرب، الفنون والإعلام وأنماط التفكير وأساليب التصرف، إضافة إلى القيم والمثل والتعليم وكل ما يكون التراث والتكوين الفكرى والروحى للشعب العربى وسلوكه وتقاليده وطراز حياته، أى ما يسمى بالشخصية الثقافية الوطنية والقومية أو الهوية الذاتية الثقافية[2]، كل ذلك لسلب العرب عن عروبتهم وطمس قوميتهم وفرض الشعور بالغربة واقتلاع الأصول والجذور.

---

(١)من كتاب نهاية التاريخ لفوكو ياما وصراع الحضارات لـ هنتجتون وتصريحات ويلى كلاوس أمين عام حلف الأطلسى فى شتاء عام ١٩٩٤.

(٢) عزيز الحاج: الغزو الثقافى ومقاومته:المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤، ص١٢.

الإمبريالية ونظرية الاتصال:

توجد رابطة قوية ما بين تدفق المعلومات والنظرية الإمبريالية أو نظرية التبعية. وهي النظرية التي عبر عنها الكاتب الأمريكي "هربرت شيللر" وتلخص هذه النظرية في أن القوى المتعددة الجنسيات تقوم باختراق العالم الثالث وإخضاع شعوبها لأنماط المعيشة الغربية. فمن خلال المواد الإعلامية مثل الأخبار والأفلام والبرامج التليفزيونية يجرى التأثير على عقول أبناء العالم الثالث وصبها في قالب الفكر الغربي . ومع تحقيق هذا الهدف يسهل على الشركات المتعددة الجنسيات زيادة مبيعاتها. وتقول النظرية بأن تحالف الولايات المتحدة والشركات متعددة الجنسيات تسعى إلى تقسيم العالم إلى جزئين: الأول المركز أو القلب والثاني ويتألف من الأطراف أو التخوم . والمركز الأول بطبيعة الحال هو الجزء المسيطر والذى يحكم سيطرته على الأطراف . وكما يقول شيللر فإن قطاع الاتصالات للنظام العالمي يتطور تبعا لمقتضيات النظام العام وأن تدفق المعلومات في منطقة القلب إلى الأطراف يمثل حقيقة أوضاع القوة، وهو ما تمثله حقيقة بزوغ لغة بمفردها كلغة عالمية ألا وهى اللغة الإنجليزية.

إن التطور السريع والشامل لتكنولوجيا الاتصال وخاصة الأقمار الصناعية وأجهزة الكمبيوتر واستخدامها على نطاق واسع يظهر بجلاء استجابة للبنية الأساسية للنظام العالمي لمتطلبات العناصر المسيطرة في قلب النظام[(١)].

وفضلا عن الجانب التكنولوجي في مجالات الاتصال هناك جوانب أخرى تعمل على تكريس التبعية للدول المتقدمة وإذا كانت التكنولوجيا تمثل العتاد، فإن البرمجيات تتألف من الأخبار وبرامج الترفيه وغيرها من البرامج التليفزيونية وهى إضافة إلى الإعلانات والمجلات والفيديو تمثل اليوم أدوات السيطرة على الثقافة والتعليم من الخارج حيث تبث الرسائل الإعلامية إلى الدول النامية بهدف تشويه ثقافتها والحط من قيمتها والإضرار بأهدافها وجهودها التنموية[(٢)]. ومن نفس المنطلق نجد أن صناعة السياحة تعتبر إحدى الأشكال التى تستهدف إبعاد دول العالم الثالث ونحن جزء منه

---

(١) هربرت أ شيللر المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، ١٠٦ الكويت ١٩٨٦ ص ص ١١-١٨.

(٢) د. مصطفى المحمودى:النظام الإعلامي الجديد سلسلة عالم المعرفة عدد ٩٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥، ص١٤١.

عـن الانخـراط فى نشاط إنتاجى حقيقى وضمان تبعيتها المستمرة لمنطقة القلب. ويعتبر التدريـب لونـا أخـر مـن ألـوان صياغة عقـول القيادات الشابة فى الدول النامية، من ضـمنها تعمـيق الفجوة وتركيز التبعية للتدفق الإعلامى الذى مصدره القلب (المركز) والـذى تكمـن خطورتـه فـى الطـابع الاحتكارى الذى تمارسه وكالات الأنباء الغربية الكـبرى الشـهيرة: وهـى الاسوشيتدبرس، واليونيتدبرس الأمريكيتين، ووكالة الأنباء الفرنسـية ورويـتر الـبريطانية حيـث تقـوم بـتزويد معظم الصحف ومحطات الإذاعات والتلـيفزيون فـى الـبلدان النامية بالأخبار العالمية[1] بعد تشويهها وإعادة إنتاجها وهى التى يتم الاعتماد عليها كمصادر أساسية ذات شهرة عالمية ومصداقية مزعومة.

لقـد فرضـت هـذه الوكـالات نفسـها عـلى الإعـلام العربى مستفيدة من تطور التقنـيات وتوفـر الإمكانـات الفنـية الـتى تسـاعدها عـلى شمولـية التغطـية للأحـداث فـى العـالم وكـتابة النصـوص التى توحى بالموضوعية والتجرد وسرعة توصيل الخبر ثم تأمين التسهيلات التقنية لتلقى الخبر.

لقـد أصبح الإعلام صناعة ضخمة وهامة تحتاج إلى إمكانات مادية وتقنية عالية. ومتقدمة، الأمر الذى أدى إلى تزايد ظاهرة امتلاك الشركات المتعددة الجنسية لوسائل الإعـلام خـلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وجعل تلك الظاهرة تثير مخاوف العديـد من الكتاب والمثقفين والقائمين على الأداء الإعلامى ودفعتهم إلى التحذير من مخاطر تلك الظاهرة على الاستقلال الثقافى والفكرى فى الدول العربية والنامية[2].

المخاوف الأوروبية من الأمركة الإعلامية:

فـى إطـار مفهـوم أوروبـا الموحـدة تسـعى الجموعـة الأوروبـية إلى بلـورة ثقافة أوروبـية واحدة تعمق الانتماء الثقافى والإرث التاريخى الذى يدعم مساعى الاندماج الـثقافى لـيكون هويـة أوروبية موحدة. وقد راءت دول المجموعة أن يكون التلفاز هو الأداة الرئيـسية لتعمـيق الشـعور بالانـتماء الأوروبـى الواحـد . لذلك عملت أوروبا

---

(١) جـون مـارتن، وجروفـر سـودرى:نظـم الإعـلام المقارنـة تـرجمة عـلى درويـش: الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩١، ص٨٨.

(٢)سليمان صالح، الإعلام الدولى وسيطرة الشركات متعددة الجنسية: مجلة الدراسات الإعلامية، العدد ٦٧، أبريل - يونيو ١٩٩٢، ص١١.

الموحدة ولا تزال تعمل على أن تنشأ فى أوروبا أكثر من ٢٠٠ قناة تليفزيونية تغطى أوروبا كاملة من خلال تطوير التكنولوجيا فى هذا المجال بحيث تكون قادرة على إقامة سوق تليفزيونية أوروبية واحدة. وإنتاج برامج تليفزيونية متعددة الجنسيات واللغات وتوفير محطات تليفزيونية بالأقمار الصناعية يكون فيها البث المباشر بلغات مختلفة.

وقد زادت مخاوف أوروبا من سيطرة الإعلام الأمريكى بعد الانجاز التقنى والإعلامى الأمريكى الذى فاجئت به العالم محطة التليفزيون الأخبارية (CNN) أثناء حرب الخليج الثانية باحتكارها مختلف المعلومات المتعلقة بالحرب. فقد أصبحت مصدر المعلومات لمعظم وسائل الإعلام العالمية وفى مقدمتها الأوروبية التى اعتمدت وسائل إعلامها على الصور والأشرطة والمشاهد التى قدمتها المحطة الأمريكية لمتابعة حرب الخليج. وقد شعرت أوروبا بحالة من خيبة الأمل والإحباط بعد أن تبين لها أنها أصبحت تابعة للولايات المتحدة ليس فقط سياسياً وعسكرياً، بل وإعلامياً أيضاً .

وفى هذا الصدد علقت محطة الإذاعة البريطانية (BBC) على سر تفوق المحطات الأمريكية وخاصة (CNN) فى جذب المشاهدين إليها أثناء هذه الحرب بقولها: إن الامتياز الذى حصلت عليه المحطة من البنتاجون بإذاعة الأشرطة الحربية والمصورة فى منطقة الخليج تفوق هذا التفوق .

إذ لم تكن المنطقة العربية حقل تجارب لتكنولوجيا الأسلحة الأمريكية الحديثة فحسب ، بل ولتكنولوجيا الإعلام والاتصال أيضاً.

وفى سعيه لمواجهة الوضع الجديد أعلن اتحاد البث الأوروبى الذى يضم ٣٢ دولة أوروبية ويغطى بثه من أيرلندا وحتى تركيا ومن فنلندا حتى المغرب، عن ضرورة اتجاه مشروع المحطة الإخبارية من يورونيوز فى أسرع وقت ممكن وإدخال التعديلات التكتيكية والفنية اللازمة إلى رفعه إلى مستوى المواجهة مع مستحدثات تكنولوجيا الاتصال والإعلام الجديدة ووضع الأعضاء فى اتحاد البث الأوروبى إمكانيات مالية ضخمة تحت تصرف "يورونيوز".

لقد استفادت أوروبا وغير أوروبا من دروس حرب الخليج التى أحدثت ردود فعل وطنية وحفزت المؤسسات الإعلامية على إنشاء محطات إخبارية شبيهة بالمحطة

(CNN) وغيرها من المحطات التليفزيونية. كما سارعت أوروبا ومناطق إقليمية أخرى إلى اتخاذ خطوات ناجحة في التكتل الاقتصادي والتعاون العلمي والثقافي .. الخ.

لقد حصل في أوروبا نوع من الاستنفار الوطني فسعت إنجلترا على سبيل المثال لتوسيع القناة المسماة (CKY CHAEL) وهي قناة أخبارية بالكامل، في تغطيتها لتشمل قارة أوروبا بأكملها وأنشأت محطة (BBC) الإنجليزية شبكة عالمية جديدة[1] تحت مسمى الخدمة العالمية.

وفي ألمانيا اتجهت مجموعة الشركات الإعلامية الكبيرة "بر تلمسات" إلى إنشاء محطة إخبارية ناطقة بالألمانية.

وفي فرنسا ارتفعت الأصوات منددة بالسيطرة الإعلامية الأمريكية ودعت إلى إيجاد محطة فرنسية لمواجهة (CNN) الأمريكية. وشرعت فرنسا بالفعل في تطوير محطتها (TV5) وأصبحت شبكة إعلامية فرنسية تبث إرسالها عبر الأقمار الصناعية.

فماذا عملنا نحن العرب؟ وما هي الدروس المستفادة التي خرجنا بها من حرب الخليج التي نحن لا نزال وقودها وحقل تجاربها حتى الآن ؟

للرئيس الفرنسي المتوفي فرانسوا ميتران مقولة مشهورة حول العولمة الثقافية وحقوق الملكية الفكرية: "إن أمريكا عن طريق الجات تريد أن تحقق ما فشلت فيه الشيوعية، وهو إيجاد ثقافة واحدة " .ومن هذا المنطلق أدخلت فرنسا في اتفاقية ما أطلق عليه بالاستثناء الثقافي.

صورة العربي وعنصرية التلفزة الأمريكية :

يوصف الجمهور الأمريكي بأنه كتلة بشر متبلدة يشبه الإنسان الآلي في أول مراحله ، تحركه الشاشة في الاتجاه التي تريد له أن يسير فيه، فهو رهين هذا الصندوق الذي يقضي معظم وقت فراغه أمامه فيتولى صناعة أفكاره وميوله وآرائه ومعتقداته القيمية والسلوكية والسياسية على وجه الخصوص .

---

(١) د. اللافي إدريس عبد القادر:رؤية جديدة للمرئية في عهد أقمار البث المباشر: البحوث الإعلامية ، العدد ١٤، ١٩٩٨ ص ص ٩٢-٩٣ .

إن الجمهور الأمريكي يعتقد بقناعة أن وسائل الإعلام المرئية وحدها هي مصدر الأخبار الرئيسي وهي وسيلة الاتصال الجديرة بالتصديق والثقة(١). وتأسيسا على هذا تقوم المؤسسات الإعلامية المرئية في تنفيذ خططها لتشويه الحقائق والتقليل من شأن التحولات في الدول النامية أو قلب صورة تلك المتغيرات لخدمة استراتيجيته الإمبريالية الأمريكية تجاه الأقطار النامية والأقطار العربية خاصة فتعمد برامج التليفزة الأمريكية تقديم المجتمع العربي بأنه يتكون من الشخصيات الآتية:

الشخصية الأولى : يمثلها واحد من شيوخ الصحراء الغنية بالنفط مالكاً للجمال وسيارات الكاديلاك الفخمة إضافة إلى حاشية، وهذا الشيخ ذو ثراء فاحش متخلف ومجنون في أمور الجنس وله ميول سياسية غربية، غير مفهومة وغير مستقرة.

والثانية : هي شخصية الإرهابي العربي أو المخطط للإرهاب، أو تصور زعيم عربي من دول النفط وهو يبرك كالجمل لتوضع امرأة بريطانية على صدره الصليب ، أو تكرار إعادة بث مشاهد من فيلم " موت أميرة " .

كل هذه أمور وقضايا مسلم بها وهي حقائق يفترض أن نستوعبها كعبرة لتخطي سلبياتنا ، أما بعض الإيجابيات والتحولات المتواضعة في الاتجاه إلى الأحسن فلا تظهر على شاشة التلفزة الأمريكية على الإطلاق كما هي غائبة تماماً. أو في السينما . ولعل فيلم طريقة الاشتباك التي أنتجته سينما هوليود عن اليمن وهو فيلم مشين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد أثار عرض هذا ردود فعل كبيرة لدى الجالية العربية والإسلامية في الولايات المتحدة وأوروبا، وتزامن هذا العرض مع الزيارة التي قام بها الرئيس علي عبد الله صالح للولايات المتحدة أوائل أبريل من عام ٢٠٠٠، والأدهى من ذلك أن البرامج المرئية العنصرية الأمريكية التي تشوه صورة العربي لا يحصر عرضها في الولايات المتحدة فقط، بل تصدر إلى الخارج بهدف تشويه صورة الإنسان العربي في كل أنحاء العالم(٢). وتلعب المسلسلات في التلفزيون الأمريكية دورا كبيرا في تحويل الرأي العام وغسيل دماغ المواطن الأمريكي من خلال

---

(١) جورج كومستوك:التليفزيون والمشاهدون من وجهة نظر العلوم الاجتماعية: ترجمة إبراهيم مصعب الدليمي، مجلة التوثيق الإعلامي، المجلد الرابع، العدد الثاني ١٩٨٥.

(٢) جاك شاهين: في الإعلام الأمريكي: ترجمة جاسم محمد جيس، ١٩٨٣، ص٣٠.

تـزيين وتـرويق وجـه الأمـريكى الأبـيض ممـثل فى أبطال المسلسلات من البيض الذين يظهـرون فـى مظهـر النـبل والإنسـانية؛ يساعدون الغير ويخلصون الآخرين من المآزق بسـهولة ويـتحلون بالشـهامة والـبطولة والعمـل الدؤوب الناجح، فى حين إنها تحاول إلصـاق كـل الـرذائل كالجبن والخيانة والسرقة والغدر والاحتيال بالزنوج والمهاجرين العرب.

إن هـذه الوسـائط الإعلامـية وهـى فـى أغلـبها صـهيونية لا تتناول فى عروضها مشـاكل المجـتمع الأمـريكى المستعصية مـثل العنصـرية والفقر والعنف الذى يتميز به الـرجل الأبـيض مـنذ أن أبحر كولومبس إلى العالم الجديد عام ١٤٩٢ حيث كان هناك أكـثر مـن ١٥ ملـيون مواطـن أصـلى فـى شمـال القارة الأمريكية عند اكتشافها. وفى الوقـت الذى رسمت فيه الحدود القارية للولايات المتحدة بقى ٢٠٠٠٠٠ مائتين ألف فقـط . وهـذا أوضـح مـثال عـلى عـنف الـرجل الأبـيض الغـازى ونزعـته الإجرامـية العنصرية والإبادية.

مقارنة لحال أصحاب الأرض فى فلسطين وفى أمريكا:

كـل ما أخشاه ويخافه غيرى هو أن يصبح مصير الأمة العربية كلها كما آل إليه مصـير الهـنود الحمـر فـى أمـريكا والفلسـطينيين فـى إسرائيل، والضفة الغربية وقطاع غـزة. فالولايـات المتحدة الأمزيكية الموجودة الآن قامت على أنقاض وجود المواطنين الأصـليين الذيـن انتزعوا من أرضهم الأم وتم تجويع من تبقى منهم وتعريضهم المقصود للأمـراض القاتلـة، وأخـيراً تركوا فى أراضى مخصصة لا تفى بمتطلبات البقاء على قيد الحياة.

وإسـرائيل قامـت عـن طـريق دعـم المستعمرين الأوروبيين للصهاينة أيضا على حسـاب المواطـنين الفلسـطينيين أصـحاب الأرض الأصليين الذين انتزعوا من أرضهم وتم ويـتم تشـريدهم وتعريضـهم لـلجوع والإبادة وللأمراض الفتاكة ثم أنهم يحاولون ترك من تبقى منهم على الأرض الفلسطينية فى كانتونات متقطعة وعلى أراضى قاحلة لا تلـبى الحـد الأدنى من البقاء على قيد الحياة. وهذا يمثل أحد أبرز القواسم المشتركة بين النازية الأمريكية والفاشية الصهيونية الإسرائيلية فى الوقت الحاضر.

وقد قدم الباحث الطبى توماس بروور أحد مؤشرات هذه النتائج، وهى عن الحالة الصحية للهنود الحمر قائلا[1] إن الحالة الصحية للهندى الأمريكى عار علنى مريع. فى بعض المناطق يعانى ثلث أطفال الهنود من الرمد وهو مرض جرثومى قابل للوقاية والعلاج ويسبب العمى، ومرض الرمد هذا الذى أصبحت الوقاية منه ميسورة حتى فى دول العالم المتخلف وأصبح نادرا فى العالم الغربى، يعمى الآلاف فى أمريكا.ويعتبر من تبقى من الهنود الحمر مرضى عقليا بشهادة الأجهزة الصحية الأكثر تطوراً التى تتعامل معهم. ومتوسط عمر الهندى الأمريكى ٤٣ سنة فقط. يعيش حوالى ٩٠٪ من الهنود الأمريكيين فى بيوت غير ملائمة لسكن البشر. ينقل ٦٦٪ منهم المياه من مصادر ملوثة وبأدوات غير نظيفة، ومن مسافة تبعد أكثر من ميل عن منازلهم. ولو لاحظنا بالمقارنة سنجد أن كل هذه الأمور وهذا العسف والإبادة المنظمة تنطبق على الفلسطينيين العرب ، والفرق بين الاثنين هو أن الفلسطينيين لا زالوا يقاومون الظلم ، بينما أصبح الهنود الحمر فى أمريكا مستسلمون .

إذن فالمسألة بالنسبة لنا نحن العرب لم تعد عملية صراع من أجل الحفاظ على الهوية أو الخصوصية الثقافية أو أن نكون أو أصوليون حداثيين"، القضية العربية فى صراعها مع الصهيونية والإمبريالية صراع وجود: أكون على هذه الأرض أو لا أكون.

العرب وتكنولوجيا الهيمنة الثقافية:

يتعجب المرء عندما يسمع كلام يتردد هنا وهناك، وفى كثير من المناسبات الاحتفالية والخطابية بمناسبة أو غير مناسبة فى وطننا العربى عن ضرورة اللحاق بالعالم المتقدم انطلاقا من استيعاب وتوطين التكنولوجيا وتطويرها بحيث تكون مواكبة لما وصل إليه هذا العالم المتقدم من طفرة فى ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال. وكنت أتمنى لو أن الأمر اقتصر أو يقتصر على هذه الاحتفاليات وخطابات القادة ومسئولين المشاريع الوهمية، ولكن ما يؤسف له هو أن يتردد أكثر فى الندوات وحلقات المداخلات والمؤتمرات التى تتبنى انعقادها بعض مراكز البحث فى المعاهد

(١) The Statistics about American Indians are from Thomas M. Brown (ed.). The Social Responsibility of the Scientist, New York: Free Press, 1971, pp. 152-3.

والجامعات العربية، ويكون مصدرها رجال ثقافة وفكر تشمل مختلف التخصصات، وكلها تحصر في الإطار الاستعراضي ولا تخرج عن الروتين المألوف ، أو مستوى اللياقة التي لا تنطق بكلمة حق تجعل الحاضرين في حالة تفاعل مع الموضوع المطروح فيشبعونه نقاشا وطرحا متباينا يوصل موضوع البحث أو مادة الموضوع إلى الهدف الذي بنيت عليه فكرته.

وما أريد الإشارة إليه هو أن تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات لم تكن بنت العقد الأخير في القرن العشرين كما يروج لها مفكري صدى الصوت أو رجع الصوت في العالم العربي . فالتكنولوجيا قديمة والاحتكار في تدفق المعلومات قديم أيضا، وما حدث لا يعدو أن يكون طفرة سريعة في تطور هذه التكنولوجيا التي أثارت مخاوف من يملكونها مثل أوروبا واليابان والصين ولكنها أقل من المستوى الأمريكي ومن لا يملكونها مثل حالتنا في العالم العربي ومعنا رفاقنا في بعض دول العالم الثالث. وانتقال مبدأ التدفق الحر الذي لم يبدأ في مناقشته إلا في عقد التسعينيات بعد أكثر من ثلاثين عاما من قبوله من جانب واحد وعلى نحو تام في مجال السياسة الدولية باستثناء الكتلة الشرقية والاشتراكية سابقا، ويمكن تفسير وثيقة هلسنكي لمؤتمر الأمن التعاون الأوروبي لأعوام ١٩٧٣-١٩٧٥ وتناقضاتها مع التصريحات الأمريكية الرسمية، بوصفها قيدا نهائيا على مفهوم التدفق الحر[1]. أما مؤتمر اليونسكو الذي عقد عام ١٩٧٤ فقد وافق على خطة متوسطة الأجل للفترة ١٩٧٥-١٩٨٢ تدعو إلى تدفق أكثر توازناً وموضوعية سواء بين البلدان أو داخل المناطق أو فيما بينها.

وفي خطاب ألقاه مدير وكالة المعلومات الأمريكية عام ١٩٧٤ قال فيه "لا يمكن أن تنهض استراتيجيات على نظام وسائل الاتصال الراهن .. والبث المباشر عبر التوابع الصناعية سيكون ممكنا وستوجد مع ذلك شبكات إلكترونية عالمية يعمل بعضها بالفعل وسوف يطرح وجودها مشكلات واقعية بصدد تدفق المعلومات والتكامل الثقافي وسوف تنقل هذه الشبكات كميات ضخمة من المعلومات عن طريق دوائر كهربائية بالغة السرعة تخترق الحدود الوطنية دون رقابة، وأن التوسع العالمي في نقل البريد إلكترونيا وشبكات المعلومات ونظم استرجاع البيانات عن

---

(١) Kaarle Nordensterng Herbert I, Sceller. (Helsinki): (the New equation) Journal of communication 1986, 26, p 34.

طريق المعلومات سوف يؤثر تأثيرا هائلا فى السنوات المقبلة على الثقافات بدرجة أكبر من تأثير أى نظام للبث المباشر، ويتعين على إستراتيجيتنا أن تضع فى اعتبارها كل هذا[1].

إذا فالتكنولوجيا فى حد ذاتها تعبير عن التكوينات الرأسمالية والجهود التى انبثقت منها .

والتطور التكنولوجى يعتمد كليا على موافقة مراكز القوة الاقتصادية وتشجيعها، فالتكنولوجيا الحديثة لم يتم اختراعها فى مجال مستقل ومن ثم تخلق مجتمعات جديدة أو أوضاعا أساسية جديدة . فتاريخ نظم وسائل الاتصال (التلفزيون) مثلا والتطورات الإلكترونية المتصلة به لا يمكن أن يتمثل لنا بأى حال من الأحوال فى أنها تخلق مجتمعا جديدا أو أوضاعا اجتماعية جديدة، أى أن استخدامنا لهذه التكنولوجيا مثل التلفزيون وأدواتها المصاحبة المستوردة لا يمكن أن تحدث تغيرا إيجابيا فى المجتمع العربى، بل عكس ذلك فهى تخلق عادات وأنماط وسلوكيات غاية فى السلبية. ذلك لأن التعبيرات الاجتماعية والثقافية والتطورات التقنية الموجودة فى الغرب قد خلقها التحول الحاسم والمبكر للإنتاج الصناعى، وتحت أشكاله الاجتماعية عبر تاريخ طويل من التراكم الرأسمالى.

ويظهر فى بعض الأحيان أن معارك محدودة تلوح على الحدود الفاصلة المألوفة لعلاقات القوى القائمة بين الدول المتقدمة والدول النامية، بين الأغنياء والفقراء، ولكنها معارك غير متكافئة يتم حسمها لصالح الدول المتقدمة ولصالح الأغنياء حتى لو بدا لنا إن النظام الاستعمارى توارى عن الأعين بشكله التقليدى فإنه يعيش ويترعرع داخل نسيج متشابك فى ضروب التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ومن الحقائق المقررة الآن أن أنشطة الإمبريالية الغربية والأمريكية بشكل خاص لا تقتصر على المجالات السياسية والاقتصادية وإنما تشمل أيضا المجالات الاجتماعية والسياسية حيث تفرض أيديولوجية أجنبية وصهيونية على شعوب العالم الثالث والشعوب العربية، ويخصون الأخيرة بأساليب وطرق مضافة تتناسب مع محاولة إخماد

---

(١) ليونورد ماركس:الصراع الدولى والتدفق الحر للمعلومات . الولايات المتحدة، واشنطن ١٩٧٤، ص٦٦.

جـذوة صـراعها المضـاف المنفرد مع الصهيونية العالمية وصنيعتها إسرائيل . وأهم هذه الأسـاليب إنشاء المعسكرات والمؤتمرات الشبابية التى تضم عربا وصهاينة كان أبرزها قمـة شـباب الشرق الأوسط الذى عقد فى سويسرا فى يوليو عام ١٩٩٨ وضم ٧٥ فـتى وفتاة من الواعدين الذى انتظموا فى معسكرات أنشأت لهذا الغرض وجاءوا من إسـرائيل وفلسـطين ومصـر والأردن والولايـات المتحدة وكشـف ذلك المؤتمر الوجه الغـارق فـى السياسـة المعبرة عـن الموقـف السياسى الإسرائيلى . فقد أصدر المؤتمر[١] ثمـانى وثـائق فـى ٤٤ صـفحة ـن القطـع الكـبير تضـمنت خطابا افتتاحيا مثل إعلان مـبادئ ومشـروع اتفاقيات أعدتهـا واقترعـت عليها لجان تخص الأمن وقيم السيادة والـتعاون الاقتصـادى والقـدس والأراضى واللاجئين. ويؤكد إعلان المبادئ فى **بنده الأول** عـلى ضـرورة تجـاوز الماضـى ونسـيانه، أي مطلـوب نسـيان كل الجرائم مع إن إسـرائيل تبـنى وجودهـا عـلى دعـاوى توارثية كاذبة منذ ٢٠٠٠ عام، ويدعو إلى نبذ العـنف بمعـنى وقف المقاومة واستمرار العنف الإسرائيلى بكل أشكاله، **والبند الثانى** دعوة إلى التفاهم انطلاقا من أن للطرفين أخطاء فى الماضى وفى هذا مساواة بين القاتل والقتـيل، **والبـند الثالث** بتغيير البرامج التربوية والتعليمية والإعلامية" وهذه مطالب إسـرائيلية مكررة وكررها بيريز فى دافوس وتستهدف إخفاء معالم الجريمة فى فلسطين والـدول العربية المجاورة ومحو اسم صلاح الدين محرر القدس من الذاكرة والعمل على إيجـاد أشـكال فـى التبـادل الـثقافى تخـدم مشـروع السـلام. **والبند الرابع والخامس** متعلقا بالتعايش بين مختلف الأديان والتعاون الاقتصادى أما أخطر وثائق المؤتمر فكانت تلك التى تناولـت موضوع اللاجئين التى أشار إليها الوثيقة على أن هناك مشكلة اسمها مشـكلة اللاجـئين ويجـب حلها، والملاحظ أن موقف الفتيان العرب بدا أكثر تخلفا فى تناولـه للقضـية مـن بعـض شـرائح المثقفين الإسرائيليين، ومنهم المؤرخون الجدد الذين رغـم احتفاظهم بصهيونيتهم فهم يقرون بالإثم الذى اقترفه الإسرائيليون عام ١٩٤٨ وبالعلاقـة العضـوية بـين الموقـف الصـهيونى وسياسـات تهجـير الفلسـطينيين مـن بلادهم[٢].

---

(١) رضوى عاشور: مجلة وجهات نظر عدد ديسمبر ١٩٩٩.

(٢) الأهرام ٩/٥/٢٠٠٠.

وتتحمل الصحافة الأمريكية ـ الصهيونية الجزء الأكبر في عملية تشويه الحقائق والافتراء على التاريخ بقصد التصدى لكل الجوانب المضيئة فى التاريخ العربى الإسلامى . فقد اختارت مجلة التايم الأمريكية من ضمن آخرين في العدد الخاص فى ليلة الألفية الثالثة ١٩٩٩/١٢/٣١ ألبرت إينشتاين كشخصية للقرن العشرين والناصر صلاح الدين كشخصية للقرن الثانى عشر وبأسلوب اصطناع الموضوعية مع قصد الإساءة التى هى استراتيجية يمارسها كثيرا الإعلام الغربى فى كثير من التفاعلات والأحداث خصوصا فيما يتعلق برموز الحضارة العربية الإسلامية ، فعلى الجانب الإيجابى وصفت القائد صلاح الدين بأنه قائد ناجح وكان على قدر كبير من التسامح، وأنه قد سمح للحجاج المسيحيين بالحج إلى القدس، وأن المسيحيين يقدرون خلق صلاح الدين فى التعايش مع الآخرين، حتى أن طبيبه الخاص كان الحكيم اليهودى ابن ميمون، "وأنه فارس أسطورى، ورغم موضوعية ما سبق ذكره إلا أن المجلة أدخلت أسلوب تفتيتي في نفس الموضوع وهو بيت القصيد، فقد أطلقت على الجيش العربى الإسلامى أنه "جنود صلاح الدين المحتلين للقدس وليسو المحررين لها " .

أما عنوان التحقيق فقد جاء كما يلى "صلاح الدين ذلك المغامر الكردى" الذى أثبت للصليبيين بأن الله قد يقف إلى جانب كافر" والعنوان لا يحتاج إلى الوقوف طويلاً لاكتشاف أسلوب الإعلام الأمريكى الصهيونى التفتيتى للأمة العربية والإسلامية، فهو يريد **أولا** : تجريد صلاح الدين من عروبته وإسلامه، فهو فى نظرنا عربى لآن معظم الجيش الذى استرد به القدس من العرب المسلمين والمسيحيين **وثانيا** : وصفه بأنه مغامر كردى وبوصفه هذا يريد أن يقول بأنه إرهابى كما يطلق على المجاهدين الآن **وثالثاً** : هو كردى مغامر ويعنى بهذا أن الأكراد مغامرين وإرهابيين ويدخل هذا ضمن استراتيجية أمريكية لمواجهة حركات التحرر فى المنطقة وممالئة لتركيا التى تقمع الثوار الأكراد بعنف وشدة وترفض الاعتراف بحقهم الشرعى والإنسانى فى التعليم وممارسة عاداتهم وتقاليدهم والاحتفاظ والاعتزاز بلغتهم والاعتزاز بقوميتهم وبتراثهم الثقافى والدينى والتاريخى .

إن الصحافة والإعلام الصهيونى الأمريكى يسعى دائما إلى محو الذاكرة العربية والإسلامية، التى يصعب عليه مسخها وإلغائها من الذاكرة التاريخية ، حينها يلجأ هذا

الإعـلام إلى تشـويه الـزعامات الكارازمـية والأحـداث التاريخـية والإسـاءة إلـيها والتشكيك فى مصداقيتها ودورها الفعال فى التاريخ العربى الإسلامى .

ولا غـرابة أن تدفع إسرائيل وأمريكا ببعض ضعاف النفوس والمرتزقة من المثقفين المغموريـن الذيـن يحبون أن يظهـروا مـن خـلال جمعيات السـلام وبعض المراكز التى تسـخرها المؤسسـات الصـهيونية فـى الدعوة إلى التطبيع والتعايش المذل، وإلى تشويه النضـال العـربى ضـد المحتلين الصـهائنة فـى الوقـت الذى تتزايد فيه أساليب العسف والعـنف والقـتل ضـد المواطـنين الفلسـطينيين وتصـادر أراضـيهم وتتسـارع حـركة الاسـتيطان والـتهام الأراضـى الفلسـطينية خاصة فيما بعد مرحلة أوسلو ، ناهيك عن الـتدمير المـتكـرر للبنـيـة التحتيـة وضـرب الأبريـاء بالقنابل الممنوعة دوليا فى جنوب لبنان وبيروت ومناطق متفرقة منها، ثم احتقار بعض الزعامات العربية من خلال عدم الالتزام بما يتم الاتفاق حوله معها والذى يتكرر أكثر من مرة حول موضوع واحد.

لقـد ثبـت بتأكـيد مجرى الأحداث منذ كامب ديفيد حتى يومنا هذا ، أن نظرية السـلام الأمريكـية ليسـت أكـثر مـن استسـلام من جانب واحد وأن حسن النوايا مع عـدو مغتصـب ليسـت أكـثر مـن سـذاجة وأن مـا خططت له الإستراتيجية الأمريكية الصـهيونية قـد تحقـق منه الكثير، وإن ما كنا نعتبره فى كتابات بن جوريون وأبا ايبان وبـيجين تلاميذ الجيل الأول من الصهاينة أمثال جابوتينسكى وغيره محض خيال أصبح حقـيقة بعـد اتفاق كامب ديفيد ومعاهدة السلام عام ١٩٧٩ والتى أخرجت إسرائيل من العزلة الدولية حيث فتحت الباب أمام دول القارة الإفريقية ودول أخرى فى العالم أن تعـيد علاقاتهـا مـع إسـرائيل الـتى كانـت قـد قطعـتها بعـد حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ تضـامنا مـع الأمـة العربـية وحقوقهـا ونضـالها المشـروع. وإذا كانـت اتفاقية السـلام المصرية الإسرائيلية فقد أزالت الحرج عن دول كثيرة ناصبت إسرائيل العداء تضـامنا مـع الـدول العربـية، فـإن مؤتمـر مدريـد واتفاق أوسلو ووادى عربة قد وضـع بعـض الـدول ومـنها دول أوروبـية فـى موقـف حرج مثل اليونان وأسبانيا اللتان ظلتا تقاومـان الضـغوط الأمريكـية الصـهيونية وأصـرتا عـلى عـدم إقامـة علاقة مع الكيان الصـهيونى إلا بعـد الاعـتراف بـالحقوق العربية والانسـحاب مـن كـل الأراضى التى

احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. ولكنها اضطرت إلى الاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات كاملة معها بعد أن أصبح أصحاب القضية هم أول المطبعين .

ومن الغريب والمريب بل ومن العار على الأمة العربية أن تظل دولاً كثيرة صامدة في وجه الضغوط الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تمارس ضدها من أجل تطويعها وإجبارها على التعاون مع الكيان الصهيوني وتطبيع العلاقة معه، بينما تهرول وتتهاوى بعض الأنظمة العربية تحت بعض هذه الضغوط. فلم أكن أعرف أن دولة مثل سيريلانكا لم تعيد علاقته الدبلوماسية مع إسرائيل رغم أن لا هي عربية ولا هي إسلامية . فهذه الدولة ظلت تقاوم حتى خارت قواها بعد أن شددت حركة متمردي نمور التاميل من ضرباتها وأصبحت تهدد كيان الدولة ووجودها فاضطرت الحكومة إلى طلب العون والمساعدة العسكرية من إسرائيل وقدمت مقابل هذه المساعدة "استئناف العلاقات الدبلوماسية معها كدفعة أولى من ثمن هذه المساعدات بعد أن عجزت عن الحصول على أي دعم عسكري أو مادي لشراء أسلحة أكثر تطورا لمواجهة متمردي نمور التاميل بعد أن رفضت الهند التدخل العسكري ولاضطرارها لدفع أكثر من ٨٠٠ مليون دولار لشراء أسلحة جديدة . وقد صرح وزير خارجية سيريلانكا ـ أنه لا توجد أية منح ولا مساعدات وأن حكومته ستضطر إلى دفع هذه المبالغ كاملة[١].

فماذا لو قدمت الدول العربية القادرة هذا المبلغ إلى حكومة سيريلانكا على سبيل القرض هل كانت ستعيد علاقاتها بإسرائيل ؟ الجواب في اعتقادنا سيكون "لا" لأن نية التطبيع مع إسرائيل غير متوفرة لدى الحكومة السيرالنكية .

نستنتج مما سبق أن مصائبنا ومشاكلنا هي من صنع أيدينا فنحن نقوم بعملية جلد الذات قبل أن يقوم بجلدنا غيرنا. فهل هذه هي هويتنا وثقافتنا؟ وهل الاستسلام والخضوع والتبعية هي شيمة وشهامة وأصالة عربية؟ يقولون لنا أن هذا هو واقعنا في ظل العولمة والنظام العالمي الجديد الذي يفرض فيه القوي إرادته على الضعيف. ولكن هناك شواهد تؤكد زيف هذا الادعاء، فصمود كوبا وإيران وكوريا الشمالية

---

(١) صحيفة صنداي تايمز اللندنية ٢٠٠٠/٥/١٤.

يدحض هذه الادعاءات المتخاذلة . ولو تعرضنا لموضوع الثقافة والهوية الثقافية التى نحن بصدده والتى تعتبر كوبا أسطع مثال للثبات ومقاومة الإمبريالية الأمريكية فى عقر دارها، فهذه الجزيرة الصغيرة التى لا تمتلك من الموارد سوى السكر والتبغ الذى فقد الكثير من أسواقه بعد انهيار الاتحاد السوفييتى والمنظومة الاشتراكية، هذه الجزيرة الفقيرة التى تتعرض للحصار الإمبريالى منذ أكثر من أربعين عاما وتتعرض لكل أنواع الضغوط والاستفزازات والمؤامرات التى تستهدف نظامها التقدمى وتستهدف هويتها الوطنية والثقافية وهى على أبواب إمبريالية الشر بما تملكه من قوة عسكرية واقتصادية وسطوة إعلامية وثقافية فسنجد أن كل المؤامرات قد فشلت وتفتتت أمام الصمود الأسطورى لهذه الجزيرة بقيادة كاسترو كل عناصر العمالة والانحلال الوطنى .

إذن لماذا فشلنا حيث نجحت كوبا التى أسقطت كل خيارات الإمبريالية الأمريكية ومؤامراتها من قانون داماتو إلى إسقاط طائرتين أمريكيتين إلى مسألة الطفل إليان إلى النجاح الباهر والرائع الذى استضافته هافانا أثناء انعقاد مؤتمر الـ ٧٧ الذى ضاعف من معنويات الكوبيين فى مواصلة النضال ضد الإمبريالية الأمريكية. هل الشعب الكوبى أكثر وطنية وقوة شكيمة من الشعوب العربية ؟ أم أن القيادة هى المختلفة ؟ أترك الجواب للقارئ. ولشاعر العرب الكبير عبد الله البردونى الذى قال :

عجيب كل ما يجرى وأعجب منه أن تدرى

وكلنا يدرى أن الصهيونية الإمبريالية لا تلين فى تحقيق أطماعها ولا تغير من استراتيجياتها نحو الأمة العربية، بل أنها لن تتردد فى وضع استراتيجية تدميرية جديدة فى ظل العولمة وليدة النظام العالمى الجديد بعدما أصبحت هى الموجهة والمتحكمة فى صيرورته. ولكنى أقول أنه وفى نفس الوقت الذى يستوعب فيه هذا النظام المنطقة أو الأمة ويطويها تحت جناحيه كلية فإنها تضطر مع بعض الحرية فى التصرف فى الأوضاع الوطنية المتعلقة بالدفاع عن الذات القومية والهوية الإسلامية والعربية وطوبى طوبى لكل "إرهابى" من أطفال الحجارة ومن مجاهدى أو إرهابى حزب الله وحماس الذين يذودون عن كرامة الأمة ويدافعون عن الدين والحق والعرض والأرض، طوبى لهم جميعاً وتبت يد كل ظالم عميل يريد أن يخذل الأمة فى نضالها وكفاحها ضد

البنية الاستعمارية التى وجدت منذ مئات السنين وأقررت إسرائيل فى المائة سنة الأخيرة . إن ما يجرى الآن هو تحول طراء على هذا النظام الاستعمارى فيما يتعلق بإعادة تنسيق مراكز القوى ومصادر الاستغلال المتغيرة والأنماط الحديثة للسيطرة المسماة بالعولمة.

إن مفهوم العولمة الثقافية تعنى الإمبريالية الثقافية والاقتصادية، فى حدود هذا المعنى يصف اليوم خير وصف، جميع العمليات التى تستخدم لإدخال مجتمع ما إلى النظام العولمى الجديد، وكيف تتم استمالة الطبقة المهيمنة فيه والضغط عليها وإجبارها أو رشوتها أحياناً كى تشكل المؤسسات الاجتماعية فى اتساق مع قيم المركز المهيمن فى النظام وبناءه، أو حتى الترويج لنظام العولمة الجديد .

وتحتل وسائل الإعلام مركز الصدارة فى المشروعات العاملة التى تستخدم فى عملية التغلغل. ومن أجل تحقيق درجة كبيرة من هذا التغلغل فلابد من أن تستحوذ القوة المهيمنة المتغلغلة على وسائل الإعلام ذاتها.

الفصل الثامن

العرب فى مواجهة تحديات العولمة

لم يشهد التاريخ عبر مراحله ورحلاته الطويلة تحولات مفرطة فى التسارع كما شهده القرن العشرين والعقد الأخير منه على وجه الخصوص.

لقد دلف القرن العشرين وهو يشكل تحدياً كبيراً للقرن الواحد والعشرين الجديد الذى تسلم منه راية التقدم البشرى، ولكن هل سيستفيد العرب من هذا التقدم؟ وهل ستوضع هذه التحديات حدوداً لتبعية الأنظمة العربية للغرب ولقمع الشعوب وتجويعها وتجهيلها وشل حركتها وتفاعلها مع ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال التى تشكل الأساس للعولمة بعناصرها الرئيسية: الاقتصادية والسياسية والثقافية ؟

وقد لا يكون من المستغرب أن يعترى الفتور والاسترخاء أمة من الأمم فتتخلف عن ركب الحضارة وتفوتها عناصر التقدم ومعطياته حيناً. لكن ما نراه فى حال الأمة العربية هو إصابتها بكبوة طال تعثرها من شدة وقعها وغور جرحها ومساهمة طبابة بعض الأنظمة فى تعميق هذه الجراح. وكم كنت أتمناها كبوة تنهض الأمة بعد وقوعها. لقد كشفت ملابسات حرب الخليج الثانية تباشير نظام عالمى جديد تحكم العلاقات الدولية فيه كما فى أى نظام دولى جديد فى مراحل سابقة دول العمالقة الاقتصاديون والعسكريون. والولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة العظمى الوحيدة التى تنفرد بامتلاك القوتين العسكرية والاقتصادية الآن، وهى بالتالى وحدها ستظل تتحكم بدقة فى السياسة الدولية فى جميع مجالاتها ما لم تتبلور مراكز قوى متعددة وفاعلة، وما لم توجه لها ضربات تاريخية تحد من سيطرتها وسيطرت مجتمعها الصناعى الإمبريالى على العالم.

انعكاس تحولات أخر القرن العشرين على النظام العربى:

١- فاقت أضرار هذه التحولات على الوطن العربى أى مجتمع أو نظام فى العالم. إذ أنها ضيقت الهامش النسبى للمناورة الذى كانت تتمتع به الدول العربية

فى علاقاتها الدولية وخصوصا تلك الدول المعنية بالصراع العربى الصهيونى، فقد فقدت الدول العربية الرئيسية حليفا استراتيجيا قويا، وزاده تبعية الأنظمة التى كانت فى الأساس تابعة بحكم ما كانت تراه ضرورة لحمايتها وحماية عروشها، وأصبحت المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط تحت الهيمنة المباشرة للإمبريالية الأمريكية، مما يجعل هامش الاستقلالية فى بناء العلاقات الدولية بجميع فروعها محدوداً إن لم يكن معدوماً فى ظل هيمنة القطب الواحد لمرحلة انتقالية قد تطول ريثما تتبلور الأقطاب الاقتصادية والعسكرية الصاعدة.

٢- تدمير معظم الإمكانات الاقتصادية والعسكرية والعلمية، ناهيك عن الخسائر البشرية التى تتكبدها الأمة العربية منذ العدوان الإمبريالى الغاشم عليها وتدمير العراق بكل مقوماته الوطنية مستغلة أخطاء ومغامرات القيادة العراقية والحسابات الإقليمية الضيقة لبعض الأنظمة العربية لينفذ الضربة الموجهة إلى الأمة العربية كلها عبر تحطيم القدرات العراقية والتهيئة لتحجيم القدرات العربية الأخرى الموجودة والمحتملة والسيطرة على الثروات العربية واحتلال منابعها.

إن تنفيذ هذا العدوان المميت والمعد سلفا وإخراج فصوله المختلفة ابتداء من اللعب على الخلافات العراقية - الكويتية وتصعيدها وتشجيع القيادة العراقية بشكل شبه مباشر على المغامرة العسكرية مروراً بحشد الحلف الدولى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ لشن حرب عدوانية استخدمت فيها ورقة تحرير الكويت استخداما ماكراً، لم يكن من الممكن تنفيذ هذا العدوان وبالصورة التى تم بها ونتائجه الكارثية على الأمة العربية كلها ، لولا التغير الحاسم فى ميزان القوى على الصعيد الدولى وفى أساس هذا التغير الانكفاء السوفييتى المتسارع وسقوطه فى النهاية.

لقد كنا نظن أن سقوط الاتحاد السوفييتى سيسقط الذرائع والمبررات التى اختبأت خلفها النظم الاستبدادية الملكية التقليدية بالمثل أو تلك التى ارتدت رداء الاشتراكية والقومية الوطنية ، غير أن ما حدث هو أن هذه الأنظمة بعد أن تسببت فى دمار الأمة وكيانها التفتت لتزيد من استبدادها وبيروقراطيتها تحت ذرائع الحفاظ على النظام المعادى للإمبريالية، ولم تكتفى بالاستمتاع والتلذذ بتعذيب الشعوب وقمعها وامتهانها، بل أدخلت الأمة فى متاهات توريث الحكم فى الأنظمة الجمهورية وهو ما لم يكن أحد يتوقع حدوثه.

لقد أكدت التحولات على أهمية العامل الذاتي في مواجهة عالم اليوم الذى يزداد تعقيداً وتزداد فيه الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة، ويتقاسمه الأقوياء بحصص متفاوتة تبعا للقوة الاقتصادية والعسكرية والمعلوماتية والتكنولوجية العلمية ويحكمون بالتهميش وربما بالانقراض على الشعوب المتأخرة والضعيفة، ويفترض أن تكون هذه الأنظمة أكثر إدراكاً لهذه التحولات، إذ لم يعد الاتكاء على الحليف الاستراتيجي السابق ممكنا لإنجاز التحرر والتقدم كما لم يعد الاكتفاء باستيراد النماذج الفكرية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية ممكنا أيضاً في عالم تتضاعف فيه المعلومات كل سنة أكثر من مرة وتتآكل فيه الأيديولوجيات بسرعة تفوق بكثير سرعة تشكلها.

إن عصر الاكتفاء بالانغلاق السلبي على ثقافة العصر تحت أقنعة الشعارات الزائفة قد ولى ولم يعد من السهل الحفاظ على لمعانها وتقبل الناس لها في ظل عصر ثورة المعلومات وتزاحم أقمار البث التليفزيوني في سماء المعمورة، ثم إن هذه الشعارات أسرع ما يتكشف زيفها بمجرد اختناق هذه الأنظمة اقتصاديا نتيجة عبثها بالمال العام والذى في الغالب ما تستغله الصهيونية والإمبريالية الأمريكية لتركيع هذه الأنظمة وإجبارها على اتخاذ مواقف تخدم مصالحها وتصبح بالضرورة معادية للأمة العربية في مستواها القطرى والقومي ، ومتناقضة تماما مع تلك الشعارات التى كانت تخدع بها شعوبها، فتسقط في براثن التطبيع الكامل مع العدو الصهيوني أو التطبيع من نوع فتح مكاتب اقتصادية أو ممثل تجارى أو استقبال سواح يهود بحجة زيارة أقاربهم ومدنهم وقراهم السابقة أو مسقط رؤوس الأباء والأجداد. حسب زعم تلك السلطات . إن مثل هذه الأفعال لا تعدو أن تكون أكثر من انتحار في ظل ظروف باتت كل القضايا تجد طريقها إلى الرأى العام العربي الشعبي، وبتلمس نجد أن المعادلة أصبحت واضحة كل الوضوح إذ أن هذه الشعوب المقهورة والمقموعة في عيشها وثقافتها وإبداعها وأدائها المادى والمعنوى باتت مدركة للتحديات الداخلية والخارجية التى تهدد حاضرها ومستقبلها ، وهى بالضرورة وحتمية التاريخ ستتعامل مع هذه التحديات بالطرق والأساليب التى تمليها عليها تطورات العصر . ومن أهم هذه التحديات الآتى :

١- أولا التحدى الصهيونى الإمبريالى: الذى لا يزال يتقدم على حساب تراجع المشروع القومى الوحدوى الديموقراطى العربى. وهو يستعد لتحقيق قفزات جديدة وخطيرة على المستقبل العربى والوجود العربى برمته إذا لم تتم مواجهته باستراتيجية عربية تعتمد على إعادة النظام الأمنى العربى بعد أن اهتز بقوة خلال حرب الخليج وما أعقبها من تنازلات فى مؤتمر مدريد ووادى عربه وأوسلو. وإعادة بناء الجبهة العربية لمواجهة تحديات الحرب والسلام التى سيظل زمامها منفلتاً من أيدينا ما لم تطرأ تغيرات جوهرية على النظام العربى أو الأنظمة العربية الراهنة.

٢- التحدى الوحدوى(١): إن التحديات التى تحدث فى عالم اليوم، عالم التكتلات الاقتصادية والسياسية الكبرى يضع أمام العرب تحدى الوحدة أو التكامل كحد أدنى لتحقيق طموحات الجماهير المطالبة بالوحدة الشاملة الكاملة، التى لم تعد مجرد شعار يرفع، بل أصبحت ضرورة راهنة كأحد خيارين: الوحدة أو العبودية، إذن فالوحدة أصبحت ضرورة راهنة بوصفها استراتيجية وصيرورة تشكل فيها عملية الانتقال التدريجى أو الراديكالى، الجهوى الإقليمى، أو الشامل محتوى ديناميكى. إذ لم يعد الاكتفاء بشتم الحدود الإقليمية وصانعيها، وعدم الاعتراف بالدول القطرية شعوريا ووجدانيا كافيا، بل لابد من الاعتراف بضرورة الانتقال من واقع الدولة القطرية نحو التكامل والتنسيق، أو الاندماج الفيدرالى أو الكونفدرالى حسب تطور المسيرة الوحدوية وحسب درجة تطور المشاركة الشعبية فى صنع القرار السياسى، ولا أقول أن تتم الوحدة بصورة فجائية وسحرية، بل يجب التنسيق ووضع البرامج والخطط الكفيلة بتحقيق طموحات الجماهير العربية المناضلة فى سبيل تحقيقها على مختلف الجبهات(٢).

ربما أصبح مثل هذا الطرح فى واقعنا الراهن يمثل نوع من الرومانسية الحالمة أو ضرب من أحلام اليقظة كما يروجها أصحاب المصالح الضيقة أو أولئك الذين تخضع أدمغتهم لغسيل مخ الحضارة الغربية والعولمة الجديدة وهم لا يرون بقائهم

---

(١) د. أحمد طربين: التجربة العربية -كيف تحققت، مركز دراسة الوحدة العربية سلسلة الثقافة القومية، عدد ١٣، بيروت، ديسمبر ١٩٨٧، ص ص ٧ - ٢٤ .

(٢) مجلة الوحدة: العدد ٩٠ - مارس ١٩٩٢، ص٣٢ .

وحياتهم إلا من خلال مرآة عاكسة للنموذج الأوروبى والأمريكى فى نمط الحياة والسلوك ، ولكن تحت ستار الإسلام وعباءة الأصالة. والأمر الذي جعل كل شيء مرهون بتبعية الأنظمة لأمريكا وخضوعها لإرادتها السياسية، وإلا لماذا لا تنجح على الأقل التكتلات الإقليمية العربية. ابتداء بمجلس التعاون الخليجى الذى تأسس عام ١٩٨١[١]، وضم دولا خليجية منسجمة وتصل إلى درجة التطابق من حيث أنظمة الحكم السياسية السائدة بها ومن حيث البنية الاقتصادية ونوعها الريعى ومن حيث البنية الاجتماعية والديمغرافية والطفرة النفطية ... الخ. ورغم عوامل الانسجام هذه لم يتحقق بعد مرور أكثر من عقدين من الزمان الحد الأدنى من التنسيق والتكامل بل لم يتم الاتفاق حتى يومنا هذا على إقرار التعريفة الجمركية وحرية انتقال رؤوس الأموال بين الدول الست العربية الخليجية .

إذا كان هذا هو حال التنظيم الإقليمى العربى لمجلس التعاون الخليجى[٢] بمنظوماته ومؤسساته المنسجمة والمتقاربة إلى حد التطابق، فما كان ينتظر أن يتحقق من وراء مجلس التعاون العربى الذى قام فى مطلع عام ١٩٨٩ وجمع فى وقت واحد كل التناقضات العربية ، ما لبث هذا الكوكتيل المتنافر أن تسبب فى صداع مزمن تعانى منه الأمة العربية وستستمر تعانى منه لفترة طويلة.

وبعد يوم واحد من قيام مجلس التعاون العربى أعلن الاتحاد المغاربى العربى الذى لم يحقق أى خطوة تنسيقية أو تكاملية فى أى مجال من مجالات الاقتصاد أو السياسة أو حتى السياحة التى تعتبر أهم عوامل التنسيق وأسهلها بين هذه الدول فهذه الدول تجمعها الفرنكفونية وتفرقها العروبة.

---

(١) مجدى حماد:المنظمات الإقليمية ومسألة الوحدة، المستقبل العربى، العدد ١١١، مارس ١٩٨٩، ص ص ٩٥ - ٩٨ .

(٢)مازال مجلس التعاون الخليجى قائما منذ تأسيسه عام ١٩٨١م ولكنه لم يتخذ أي قرار لصالح دوله فى الوقت الذى نجح فى استدعاء الدول الأجنبية لاحتلال المنطقة والنكوص والتراجع على ما كان قد اتفق عليه فى إعلان دمشق، ثم البيانات الختامية لكل مؤتمر لدول المجلس بما يخص الدعوة إلى إبقاء العقوبات على العراق وضربه وتدمير قواتهالبشرية وبنيته التحتية ومثله فى هذا مثل الجامعة العربية التى لم تقر أي اتفاقية مشتركة من إنشائها عام ١٩٤٥م باستثناء القرار الخاص بمكافحة الإرهاب الذى يعد إقراراً واعترافاً بما تروجه الدعاية الصهيونية والأمريكية بأن المنطقة العربية تعج بالإرهاب وعلى العالم مكافحته .

هكـذا أرادت الإمبريالية والصهيونية أن تكون العروبة أداة فرقة تفكك العرب بدلا من أن توحدهم.

ولـو قارنـا الخطـاب الوحـدوى للسـتينيات والسبعينيات الذى يوصف الآن بأنه رومانسي ومثالى وأيديولوجي مع الخطاب الاتحادى الإقليمي أو الجمهوى للثمانينيات والتسـعينيات الـذى يصـف نفسه بأنه واقعي وعقلانى ووطني وإجرائى. لوجدنا جميع الأوصـاف السـلبية الأولى قابلـة للتـبرير، فـى نهايـة الأمـر، بمـا دلـل عليـه الأسـلوب الوحـدوى القديـم مـن عجـز عـن الوصـول إلى أى هـدف مـن أهدافـه، ومـن الفشل فـى إنجاز أية وحدة كيانية أو حتى فى تحقيق أى وحدة تنسيق، فإن الأوصـاف الإيجابية الثانـية غـير قابلـة للتبرير، بالمقابل بمحص الإحالة إلى الأمر الواقع الحالى، وهو الوجود الفعـلى وعـلى الأرض لـتجمعين إقليـميين جهويـين بعـد تجمـيد الـتجمع الثالـث عـام ١٩٩٠م .

إن أحـد معـايير الواقعية، وبالـتالى المصـداقية التى تدعيها التجمعات الإقليمية التفتيتية لنفسها هو علي وجه التحديد كونها إقليمية بمعنى قيام التجمع أو الاتحاد بين أقطـار مـتحاددة جغرافياً ومتشـابهة بالتالى بقدر أو بأخر فى بنيتها العامة من النواحى المناخـية والسـكانية والاقتصادية والاجتماعية وحتى النفسية، انطلاقا من واقع التنوع الإقليـمى للوطـن العـربى. ويقـول أنصـار هـذا الـنوع مـن الـتجمعات الإقليـمـية أن الأوضـاع المتشـابهة إقليمـيا تخلـق فرصـا أفضـل للتجمع والتوحيد[١]، والجميع متفق عـلى أن جمـع المـتجانس أسـهل بمـا لا يقـاس مـن جمـع المتـباين وأوفـر حظـاً فـى البقاء والاسـتمرار، ولكـن لمـاذا لم يـتحقق هـدف واحـد مـن الأهـداف الـتى أقيمـت هـذه الـتجمعات مـن أجـلها؟ هـل أجرت هذه التجمعات استفتاءاً جماهيرياً دورياً، وكانت الجمـاهير هـى الرافضة أم أن الخلل والرفض من خارج الجماهير ومن خارج القيادات ومرغما لهـا. وإذا كـان زعامـات مجلـس الـتعاون العربى والاتحاد المغربى قد اعترفت مقدمـاً بتـباين أنظمـتها السياسية ولكنها أكدت أن هذا التباين ليس عائقاً ولا يجوز أن يكون كذلك أمام تعاونها الاقتصادى وتكوينها لما يمكن أن يكون سوقا إقليمية عربية،

---

(١) جميل مطر: الأهرام ١٩٨٩/٢/٢٢م ويرى الكاتب أن العرب أهملوا كيانهم الكبير وعادوا من جديد إلى تشرذمهم السابق.

والمثال أو النموذج المرجعي الذى يطرح نفسه هنا هو الأسرة الاقتصادية الأوروبية التي أخضعت الوحدة السياسية لأوروبا لأمر العقلانية الاقتصادية من منطلق ليبرالى صرف. فبدأت منذ عام ١٩٥٧م تأسيس متدرج لاتحاد جمركي ولسوق مشتركة وصولاً إلى الحدود السياسية ابتداء من عام ١٩٩٢م والشيء الذى لا يشكك فيه هو أن العقلانية الاقتصادية فاعلية توحيدية على أرض الواقع، وإذا ما عرفنا أن الدول العربية قد سبقت الدول الأوروبية بوضع مشاريع التكامل بأكثر من عقد من الزمن وأصدرت القرارات تلو القرارات وتوالت الاجتماعات عى مستوى القمة وما دونها ولم تنتج غير الخلافات وتعميقها رغم تجانسها العرقي واللغوى والأصولى والحداثى واشتراكها فى الهوية الواحدة والجغرافيا التى لا يفصلها فاصل .. الخ.

والسؤال المطروح الآن : ما السر فى ذلك وإلى متى سيظل كود التخلف والتشرذم سراً أو كما يوحى بأنه سراً.

سنحاول الإجابة من طرح العنوان الآتى ووضع أسئلة تليه :

إشكالية الوحدة ـ إشكالية الديموقراطية:

هل يشعر المواطن العربى بحضوره وتفاعله فى مجتمعه القطرى وتبلور هذا الشعور والتفاعل؟ هل يمتد ليصبح تفاعل قومى على مستوى الوطن العربى كله؟ إن البناء الديموقراطى هو الشرط الأساسى لتجاوز الأزمة التى تعانى منها الأمة العربية، فالديموقراطية ليست مجرد انتخابات مزورة أو مشوهة تتلاعب بالرأى العام وتشترى الذمم والأصوات بأموال الشعب الذى يفترض أن توظف فى مشاريع تنموية يكون أساسها الإنسان الذى غالبا ما يطرح إنه أساس التنمية وهدفها الأسمى، ولكن هل الإنسان المقهور يمكن أن يحقق تنمية، طبعاً من غير الممكن؟ إن هذا الإنسان المكسور فى معنوياته والمطحون فى لقمة عيشه مسلوب الحقوق والحريات الشخصية الممنوع من المشاركة السياسية ... الخ. هذا الإنسان لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن يحقق تنمية ويواجه التحدى النهضوى بكل ملكاته وإبداعاته.

إن الديموقراطية بناء حضارى، واختيار حضارى يقتضى إعادة تنظيم المجتمع ككل ابتداء بتوسيع العمل السياسى وتقويته داخل المجتمع المدنى بحيث لا يترك

للدولة إلاّ هامشا محدودا ومقيدا لا مجال فيه للقهر والتسلط والاستبداد[1] أو تحويلها إلى أشكال بلا مضمون وبلا فعالية حقيقية ففي العديد من أقطارنا العربية حرصت الدولة على الضبط والتحكم بالجماعات والتنظيمات الطوعية مثل الجمعيات والاتحادات والنقابات والتعاونيات والأحزاب .. إلخ .

ومن الملاحظ أنه كلما قويت مؤسسات الدولة القمعية ضيقت الخناق على المنظمات الطوعية، إما بمنع إنشائها أصلا، أو بتكبيلها بالقيود الرسمية أو بالإشراف المباشر أو غير المباشر عليها حتى تصبح ذراعاً للنظام الحاكم وتفقد بالتالى الجزء الأعظم من فعاليتها سواء فى القيام بالرقابة، والضبط المتبادل مع مؤسسات الدولة[2]، أو برفع صوت النصح والتقويم أو الاحتجاج السلمى والمنظم إذا دعت الضرورة .

إن الطابع الديموقراطى الحقيقى شرط ضرورى وأساسى وأولى لتحقيق المشروع التنموى النهضوى العربى وانتشاله من كل الإخفاقات التى منيت بها محاولات التنمية العربية وانكشاف الاقتصاديات القطرية العربية أمام الخارج وتبعتها للمراكز الرأسمالية وتوسيع الفجوة العلمية والتكنولوجية مع الدول الأكثر تقدماً .

صار واضحاً مأزق نمط التنمية واستحالة تحقيق نقل التكنولوجيا دون تطوير كامل فى كافة ما يملكه المجتمع وبناءه، وبكلمة نبين إخفاق موضوعه التنمية وضرورة إعادة طرح وتبنى مشروع النهضة الاقتصادية والسياسية والفكرية وفق مشروع قومى ديموقراطى نهضوى شامل ، تستطيع الأمة العربية البقاء على قيد الحياة فى عصر لا مكان فيه للضعفاء حيث تأكل أسماك القرش والحيتان الكبيرة المتمثلة فى العولمة والشركات متعددة الجنسيات الأسماك الصغيرة والضعيفة. وفى اعتقادى أن الوطن العربى لا يستطيع أن يحقق المواجهة أو يحافظ حتى على الوضع القائم رغم رداءته وهو يدخل بهذه المعدلات المتناهية فى الضعف إن كان على المستوى الاقتصادى أو الثقافى والإعلامى والتربوى .. الخ.

---

(1) د. محمد جوس إشكالية الوحدة القومية وإشكالية البناء الديموقراطى، الوحدة، حزيران (يونيه) ١٩٨٤م، ص ص ٦٣-٦٤.

(2) د. سعد الدين إبراهيم وآخرون المجتمع والدولة فى الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ص ١٨٤-١٨٥.

على سبيل المواجهة الاقتصادية العربية للعولمة:

مرت ظاهرة العولمة كما سبق وذكرناه بعدة مراحل نحو الاقتصاد العالمى والتشكيل التدريجى للاقتصاد الكونى. وتتسم هذه الظاهرة بالانفتاح الاقتصادى المتزايد ونمو الاعتماد الاقتصادى المتبادل، وتعميق الاندماج فى الاقتصاد العالمى، غير أن الاعتماد المتبادل هذا لا يحقق الحد الأدنى من التكافؤ حيث يكون الاعتماد كبيراً للدول النامية على الدول الصناعية، أما تعميق الاندماج الاقتصادى فيتمثل فى جانب الطلب فى تكامل أسواق السلع والخدمات والتكنولوجيا والأصول المالية وأسواق المال، ويتمثل فى جانب العرض فى تكامل الإنتاج. وهذا كله يقع تحت سيطرة[1] ٥٠٠ شركة متعددة الجنسية بلغت إيراداتها عام ١٩٩٦م ١١٤٣٥ مليار دولار لا توجد ضمنها شركة عربية واحدة، وقد بلغ إجمالى إيرادات هذه الشركات ومعظمها أمريكية حوالى ٤١٪ من الناتج المحلى الإجمالى للعالم كله لعام ١٩٩٥ التى بلغت ٢٧٨٠٠ مليار دولار.

تتمثل السلبية للنفوذ المتزايد للشركات متعددة الجنسية على البلدان النامية والعربية من ضمنها فى استمرار اختلال هياكلها الاقتصادية الذى ينجم عن توجيه هذه الشركات للاستثمارات فى هذه البلدان بما لا يتفق وأولويات التنمية، وصنع أنماط تخصيص الاستثمارات فى ضوء تحقيق الأهداف المرحلية لتصحيح اختلال هياكلها الاقتصادية يعد من أهم ما تخطط له الشركات متعددة الجنسية حرصاً منها على استمرار النمط الحالى لتقسيم العمل الدولى. وهناك العديد من الآثار السلبية الأخرى المترتبة على الأخذ ببرامج وسياسات صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية والتى تصيب البلدان النامية بأبلغ الضرر مثل تحرير البلدان المتخلفة لوارداتها السلعية والخفض التدريجى للرسوم الجمركية، فى الوقت الذى تكون فيه فرص تحقيق نمو صادراتها السلعية ضعيفة، وتفاقم العجز فى موازينها التجارية وتزايد مشكلات مديونياتها الخارجية. أضف إلى ذلك أن إغراق الأسواق العربية وأسواق هذه الدول بالواردات الصناعية من البلدان المتقدمة يضعف فرص البلدان العربية والمتخلفة

---

(١) د.إسماعيل صبرى عبد الله وأبرز معالم الجدة فى نهاية القرن العشرين، منتدى العالم الثالث ١٩٩٧م، ص١٢.

فـى تطويـر صـناعتها الإنتاجـية، مـا يجعـلها تواجه ظروفاً فى غاية الصعوبة أقلها تفاقم البـطالة. أمـا الأخـذ بسياسـة الخصخصـة وتحجيم دور الدولة فى النشاط الاقتصادى فـى ظـل أوضـاع لا يستطيع فيها القطاع الخاص فى البلدان العربية وكثير من البلدان النامية تعويـض دور الدولـة، يؤدى إلى الكسـاد الاقتصـادى والانكمـاش والبطالة، وأيضـا نقص الإيرادات العامة للدولة، فتقل قدرتها على الخدمات الصحية والتعليمية ومختلف أوجه الرعاية الاجتماعية.

وتحـرص مـنظمة الـتجارة العالمـية عـلى تحريـر مختلف أنواع الخدمات التجارية والمالية والمصرفية وخدمات التأمين ... الخ. والتى يترتب عليها توجيه ضربات شديدة لاقتصـاديات الـبلدان العربـية وأخواتهـا مـن الـبلدان النامـية حيـث بـدأت قطاعـات الخدمـات الإنتاجـية تلعـب دوراً مـتزيداً فـى النشاط الاقتصادى المحلى يزيد عن دخل قطاعـات الصـناعة الاسـتخراجية، فـى هـذه الـبلدان أو قطـاع الصـناعات التحويلية أو فـى الـزراعة، كمـا سـنرى فـى عرضـنا لبعض الملامح الأساسية للاقتصاد العربى. وفـى اعـتقادنا أن المواجهـة العربـية سـتكون فـى غاية الصعوبة إذ أنها لا تتطلبُ فقط الإقـدام عـلى اتخـاذ سياسـات اقتصادية مماثلة وإنما اتخاذ مواقف سياسية واعية تتطلب قـيام حكومـات وطنـية تعـى خطـورة الآثار السلبية للعولمة على مصالح شعوبها وأمنها القومى[1].

بعض ملامح الاقتصاد العربى:

إن مناقشـة قضـية مواجهـة الوطن العربى لتحديات العولمة تقتضى أن نستعرض سـريعا بعض الملامح الأساسية للاقتصاد العربى من خلال عرض بعض المؤشرات على المستوى الكلى.

تعداد السكان فى الوطن العربى:

بلـغ تعـداد السـكان فـى الوطـن العـربى (غـير شـامل دولـة فلسطين) فى عام ١٩٩٨ حـوالى ٢٧٠ بلـيون نسـمة (تقديـر أولى)، بيـنما بلغ حجم السكان فى العالم فى العام المذكور حوالى ٥٨٩٧ مليون نسمة أى بنسبة حوالى ٤,٦٪.

(١) د. ألفونـس عزيز: الوطن العربى ومواجهة تحديات العولمة بحث مقدم إلى ندوة العولمة والعالم العربى: القاهرة من ١٧ - ١٨ مايو ٢٠٠٠، ص٧.

الناتج المحلى الإجمالى:

بلغ حجم الناتج المحلى الإجمالى (بأسعار السوق الجارية) للبلدان العربية حوالى ٦٠٤,٤ مليار دولار، ٥٨٩,٠ مليار دولار فى عامى ١٩٩٧، ١٩٩٨ (تقدير مبدئى) على التوالى، بينما بلغ حجم الناتج المحلى الإجمالى فى العالم حوالى ٢٨١٥٧، ٢٨٨٥٤ مليار دولار فى السنتين المذكورتين، على التوالى، أى بنسبة ٢,١٪، ٢٪ فى هاتين السنتين.

هيكل الناتج المحلى الإجمالى:

بلغ نصيب قطاعات الإنتاج السلعى فى الناتج المحلى الإجمالى (بتكلفة عوامل الإنتاج) حوالى ٥٣,١٪ فى عام ١٩٩٧ وحوالى ٤٩,٧٪ فى عام ١٩٩٨، بينما بلغ نصيب قطاعات الخدمات الإنتاجية حوالى ٢٥,٦٪ فى عام ١٩٩٧ وحوالى ٢٧,٤٪ فى عام ١٩٩٨. وبلغ نصيب قطاعات الخدمات الاجتماعية حوالى ٢١,٣٪ فى عام ١٩٩٧، وحوالى ٢٢,٩٪ فى عام ١٩٩٨:

ويلاحظ على هيكل الناتج فى قطاعات الإنتاج السلعى أن الناتج فى الصناعات الاستخراجية يحتل المركز الأول فى الأهمية النسبية، تليها الزراعة، ثم تأتى الصناعات التحويلية فى المركز الثالث، وذلك فى كلا العامين المذكورين.

كذلك يلاحظ أن ناتج قطاعات الخدمات الإنتاجية يزيد فى أهميته النسبية عن ناتج كل من الزراعة والصناعات الاستخراجية والصناعات التحويلية، وذلك فى كلا العامين المذكورين.

هيكل الناتج فى الصناعات التحويلية: الجدول رقم (١)

يلاحظ على هيكل الناتج فى الصناعات التحويلية ضعف قاعدة الصناعات الرأسمالية، إذ بلغ نصيب الناتج فى صناعات المعدات وآليات النقل فى عام ١٩٩٨ حوالى ١٣٪ تقريبا من إجمالى الناتج فى الصناعات التحويلية ويعكس هذا ضعف القاعدة التكنولوجية المحلية فى الوطن العربى، بينما تمثل الصناعات الاستهلاكية أكثر من ٥٠٪ من إجمالى الناتج فى الصناعات التحويلية فى العام المذكور.

جدول رقم (١)

هيكل الناتج فى الصناعات التحويلية العربية فى عام ١٩٩٧

الصناعة	(٪)
الصناعات الغذائية	٢٢
صناعة المنسوجات والملابس	١٥
صناعات المعدات وآليات النقل	١٣
الصناعات الكيماوية	٢٣
الصناعات الأخرى	٢٧

المصدر: التقرير الاقتصادى العربى الموحد ـ ١٩٩٩، ملحق ٤/٥، ص٢٤٥.

الصادرات والواردات السلعية العربية:

بلغت قيمة الصادرات السلعية العربية فى عامى ١٩٩٧، ١٩٩٨ حوالى ١٧٢,٧، ١٣٤ مليار دولار على التوالى، وهو ما يمثل حوالى ٣,١٪، ٢,٤٪ من إجمالى قيمة الصادرات العالمية فى السنتين المشار إليهما والبالغة حوالى ٥٦٢٤,٦، ٥٤٧٦,٥ مليار دولار، على التوالى.

كما بلغت قيمة الواردات السلعية العربية فى العامين المذكورين حوالى ١٣٤,٤، ١٤٧,٥ مليار دولار على التوالى، أى بنسبة ٢,٥٪، ٢,٦٪ من إجمالى قيمة الواردات العالمية والبالغة فى السنتين المذكورتين حوالى ٥٧٦٧,٩، ٥٦٣٥,٧ مليار دولار على التوالى.

نسب الصادرات والواردات السلعية إلى الناتج المحلى الإجمالى:

تتفاوت هذه النسب تفاوتاً كبيرا من بلد عربى لآخر. فهناك دولاً، وأغلبها من دول النفط، زادت فيها نسبة الصادرات السلعية فى السنوات ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨ عن ٤٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى مثل الإمارات وعمان وقطر والكويت. وهناك دول أخرى تراوحت فيها هذه النسبة من ١٥ إلى ٣٠٪ مثل الأردن وتونس والجزائر وسوريا وليبيا. وهناك مجموعة ثالثة من الدول وهى مصر والسودان ولبنان تراوحت فيها هذه النسبة من ٥ إلى ١٠٪.

وبالنسبة للواردات السلعية هناك دول زادت فيها نسبتها إلى الناتج المحلى الإجمالى فى السنوات الثلاثة المذكورة عن ٤٠٪ مثل الإمارات والأردن والبحرين وتونس ولبنان، وهناك دولا أخرى تراوحت فيها هذه النسبة من ١٥ إلى ٣٠٪ مثل الجزائر والسعودية والسودان وسوريا والكويت ومصر.

ويمكن القول بشكل عام أن التجارة الخارجية، صادرات وواردات معا، لها وزنها المؤثر فى النشاط الاقتصادى فى كثير من البلدان العربية، حيث بلغت نسبتهما معا أكثر من ٥٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى فى السنوات المذكورة.

وإذا أضفنا إلى الصادرات والوردات السلعية، الصادرات والواردات غير المنظورة لبلغت نسبة التجارة الخارجية، منظورة وغير منظورة، إلى الناتج المحلى الإجمالى نسبة عالية فى غالبية البلدان العربية، مما يؤدى بنا إلى القول أن درجة انكشاف الاقتصاد العربى على الاقتصاد الخارجي عالية، لها مخاطرها على الاستقرار الاقتصادى فى البلدان العربية.

جدول رقم (٢)

هيكل الناتج فى الصناعات التحويلية فى عام ١٩٩٧

الـــدولة	الصادرات			الواردات		
	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٦	١٩٩٧	١٩٩٨
الأردن	٢٣	٢١	٢٠	٦٥	٥٨	٥١
الإمارات	٦٩	٦٩	٦٥	٥٤	٥٤	٥٨
البحرين	٢٥	٢٧	٢٦	٤١	٤١	٤٥
تونس	٢٨	٢٩	٣٣	٣٩	٤٢	٤١
الجزائر	٢٨	٢٩	١٩	١٩	١٧	١٨
السعودية	٤٣	٤١	٣١	٢٠	٢٠	٢٣
السودان	٧	٦	٦	١٨	١٦	١٨
سوريا	٢٣	٢٣	١٨	٣١	٢٩	٢٤
عمان	٤٨	٥٠	٣٩	٣١	٣٣	٤١
قطر	٤٢	٤٢	٤٨	٢٩	٣٥	٤٩
الكويت	٤٨	٤٧	٣٨	٢٦	٢٥	٣٠
لبنان	٨	٤	٤	٥٨	٥٠	٤٤
ليبيا	٢٦	٢٧	١٨	٢٤	٢٤	٢١
مصر	٥	٥	٤	١٩	١٩	١٨
المغرب	١٣	١٤	١٣	٢٣	٢٣	٢٢
اليمن	٣٩	٤٣	٢٩	٢٩	٣٤	٤٢

المصدر: حسبت النسبة المئوية من واقع أرقام جدول ملحق ٢/٢ ص٢١٤، جدول ملحق ١/٨ ص٢٩١، من التقرير الاقتصادى العربى الموحد ١٩٩٩.

التوزيع الجغرافى للصادرات والواردات العربية:

من أهم ما يلاحظ على هيكل التوزيع الجغرافى تدنى نسبة التجارة العربية البينية، إذ بلغت نسبة كل من الصادرات العربية إلى البلدان العربية، والواردات العربية من البلدان العربية، فى عامى ١٩٩٧، ١٩٩٨ حوالى ١٠٪ أو أقل من إجمالى كل من الصادرات العربية والواردات العربية مع العالم الخارجى .

ويحتل الاتحاد الأوروبى المركز الأول فى التجارة الخارجية العربية إذ بلغت نسبة الصادرات العربية إليه فى العامين المذكورين حوالى ربع الصادرات العربية الكلية، وبلغت نسبة الواردات العربية منه أقل قليلا من ٤٠٪ من الواردات العربية الكلية.

وبينما احتلت اليابان المركز الثانى تقريبا فى الصادرات العربية احتلت الولايات المتحدة المركز الثالث، بينما احتلت الولايات المتحدة المركز الثانى فى الواردات العربية احتلت اليابان المركز الرابع (حيث احتلت البلدان العربية المركز الثالث) .

وقد يكون من الأهمية فى هذه الدراسة الإشارة إلى بعض أسباب تدنى التجارة العربية البينية، يتمثل السبب الأول فى ضعف هياكل الإنتاج فى البلدان العربية وخاصة ضعف قاعدة الصناعات التحويلية وأساسا الصناعات الرأسمالية ومن الطبيعى فى ظل ضعف الصناعة التحويلية العربية ألا توجه هذه البلاد صادراتها الأولية الرئيسية بشكل رئيسى إلى أسواق بعضها البعض، وإنما توجهها إلى البلاد الصناعية المتقدمة كى تحصل مقابلها على احتياجاتها من مختلف السلع الصناعية. كذلك فإن ضعف الزراعة العربية وما يترتب عليه من انخفاض نسبة الاكتفاء الذاتى من السلع الزراعية الغذائية على مستوى الوطن العربى وخاصة بالنسبة لسلع كالحبوب والزيوت النباتية والسكر، أدى إلى خروج السلع الزراعية إلى حد كبير من دائرة التبادل التجارى بين البلدان العربية، بعضها البعض. ولا يبقى إذن لكى يدخل بصفة أساسية فى دائرة التبادل التجارى بين البلدان العربية سوى النفط ومنتجاته وبعض المواد الخام وبعض منتجات الصناعات الاستهلاكية (أنظر الجدول رقم ٦ بالملحق الإحصائى)، الأمر الذى يعنى أننا لو استبعدنا النفط من التجارة العربية البينية لهبطت

نسبة هذه التجارة إلى أقل بكثير من نسبة الـ ١٠٪ من إجمالى التجارة العربية الخارجية المشار إليها سابقا.

ومن الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى تدنى نسبة التجارة العربية البينية ضعف البنية الأساسية التى تخدم حركة التبادل التجارى بين البلدان العربية، مثل ضعف شبكة النقل والمواصلات ووسائل الاتصالات الحديثة. كذلك فإن حالة التجزئة العربية والخلافات السياسية بين البلدان العربية لها أثرها الكبير فى ضعف التجارة العربية البينية. هذا بالإضافة إلى أن عامل المحاكاة له أثره أيضا حيث يفضل المستهلكون فى البلدان العربية شراء مختلف السلع الاستهلاكية وخاصة السلع المعمرة المنتجة فى البلدان الصناعية المتقدمة.

ميزان التعامل الجارى مع العالم الخارجى:

أسفر الميزان التجارى للبلدان العربية، عن فائض فى معظم سنوات الفترة من عام ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٧. ويرجع هذه الفائض أساسا إلى الفائض الكبير فى الميزان التجارى لدول النفط وفى مقدمتها السعودية والإمارات والكويت، ولكن يلاحظ أن هناك عجز كبير فى الميزان التجارى لبعض الدول العربية الأخرى وفى مقدمتها مصر ولبنان والمغرب وتونس، هذا العجز يقل بكثير عن فائض الميزان التجارى لدول النفط.

أما ميزان التعامل التجارى (ميزان السلع والخدمات والدخل وصافى التحويلات) للدول العربية فقد أسفر فى سنوات كثيرة فى الفترة المشار إليها عن عجز. ولقد تسبب فى هذا العجز ضخامة حجم العجز فى ميزان الخدمات والدخل وصافى التحويلات الخاص بالسعودية، وكذلك حجم العجز فى ميزان الخدمات والدخل لكل من الجزائر وقطر وأيضا كبر حجم العجز فى صافى التحويلات لكل من الإمارات وعمان. وكذلك هناك بعض الدول أسفر فيها ميزان صافى التحويلات عن فائض مثل الجزائر والمغرب واليمن .

الاستثمار الأجنبى المباشر:

يوضح تقرير الاستثمار فى العالم لعام ١٩٩٨ الصادر عن منظمة الأونكتاد أن حجم تدفقات الاستثمار الأجنبى المباشر إلى البلدان العربية يمثل نسبة ضئيلة من حجم الاستثمار الأجنبى المباشر فى العالم حيث تراوحت هذه النسبة من ١٪ إلى ١,٥٪ فى السنوات منذ عام ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٧.

أما حجم الدين العام الخارجى فتتراوح ما بين ١٦٠-١٨٠ مليار دولار وقد بلغت نسبة الديون العربية إلى الناتج المحلى الإجمالى عام ١٩٩٧ ٦١٪ فى المتوسط. أما بالنسبة لحجم خدمة الدين فتصل إلى حوالى ١٧ مليار دولار وتقل أو تكثر قليلا من سنة إلى أخرى.

بعض ما يجب عمله لتخفيف الآثار السلبية للعولمة والاستفادة من آثارها الإيجابية:

التساؤل المطروح أمامنا هو كيف يمكن التفاعل سلبا وإيجابا مع حركة العولمة، حيث أن هيمنة العولمة على النظام الاقتصادى الدولى وقلق كثير من الدول النامية ومنها الدول العربية من عدم تعبئة مجتمعاتها التعبئة الشاملة والحقيقية لمواجهة احتياجات القرن القادم يؤكد أن تطبيق مبادئ التنمية المستدامة هو السلاح الواقى والأكثر فاعلية، لأن الاهتمام برأس المال البشرى وزيادة قدرته على التكيف مع التطورات التكنولوجية العملاقة من أهم عوامل الاستفادة من العولمة بدلا من التخوف من سلبياتها، حيث أنه ليس هناك بديل أمام الدول العربية فى أن تكاملها فى الاقتصاد العالمى فى المدى الطويل ونجاحها فى تحقيق ذلك يتوقف على قاعدة من الموارد البشرية القادرة على التنافس وفى توافر الإطار المؤسسى الملائم مع توافر عدالة التوزيع.

سياسة التنمية البشرية:

تعتبر المعرفة عنصر جوهرى من عناصر الإنتاج ومحدد أساسى للإنتاجية، بل أن فجوة المعرفة وليس فجوة الدخل أصبحت تعد المحدد الرئيسى لقدرات الدول فى العالم الآن حيث أصبح تمايز الاقتصاديات يرتكز على مستوى التقدم العلمى والتكنولوجى.

ونعرض لمنظومتين اكتساب المعرفة أولهما التعليم/ التعلم وثانيهما المتعلقة بالبحث والتطوير.

وتؤثر العولمة على تطور منظومة اكتساب المعرفة نتيجة للتعامل ما بين الاقتصاديات العربية والاقتصاد الدولى من خلال التجارة الدولية والاستثمار الأجنبى المباشر.

١ـ التعليم/ تعلم ـ تعلم ـ تعلم ثم تعلم[١]:

لا شك أن الأداء الاقتصادى لأى قطر يعتمد على وجه التحديد على واقع نظامه التعليمي وأن تطوير هذا النظام هو المدخل لما أسماه البعض بالتنمية الحقة[٢]. وتشير تجارب دول مجلس التعاون الاقتصادى إلى أن ما تم تحقيقه من مخرجات بشرية أدنى بكثير من حجم المدخلات المادية فيه، ذلك أن النظام التعليمي لا يعمل من فراغ اجتماعي، فبالرغم من أن تطوير النظام التعليمي ورفع كفاءة أدائه شرط أساسي لتحقيق معدلات نمو اقتصادى أعلى إلا أنه رغم أهميته ليس هو الشرط الوحيد فالإبداع لا يخلقه النظام التعليمي وحده بقدر ما تخلقه البيئة المجتمعية المحيطة، فالملاحظ للنظام التعليمي العربى بالرغم من مخرجاته الضخمة إلا أنه لم يستطيع أن يغير من الواقع القائم بل أنه فى بعض الأحيان أصبح هذا النظام عاملا معوقا لعملية التغيير والتطور.

وهكذا يمكن القول باختلاف مخرجات النظام التعليمي مع التغيرات السريعة والمتلاحقة لسوق العمل، حيث أن رسم السياسة التربوية كان منفصلا عن رسم السياسة الاستثمارية ولا يزال[٣].

أما فيما يتعلق بالتدريب فلقد كانت السمة المميزة للنظام التعليمي فى معظم الدول العربية هى التوسع فى التعليم العام الأكاديمي على حساب التعليم المهنى والفنى، حيث كانت النظرة إلى التعليم الفنى ولا زالت حتى الآن تعتبر محطة الفاشلين

---

(١) فلاديمير لينين.

(٢) د. نبيل على : ثورة المعلومات الجوانب التقانية ، فى كتاب ، العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٨م ، ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) مجلة العلوم التربوية : العددان الثالث والرابع ، ص ٧٨ .

من الطلاب الذين يفتقدون للقوة بمضمونها الاجتماعى المستند إلى الأصول العائلية والقبلية والأصول الاقتصادية المستندة للثروة والمال.

تعتبر إقامة مراكز التدريب المهنى محاولة من قبل الجهات الرسمية لإعادة تدريب المتسربين من العملية التعليمية أو أولئك الذين لم تتح لهم ظروفهم لسبب أو لآخر مواصلة التعليم حتى مراحله العليا (الجامعى).

٢ـ البحث والتطوير العلمي: ـــ

لا شك في تعاظم الدور الذى يلعبه الأنفاق على البحث والتطوير فى زيادة تنافسية الاقتصاد وربطه بالعالم الخارجي حيث أن عمليات العولمة ومنجزات ثورة الاتصالات تخلق علاقات قوى جديدة على الصعيد العالمى نظرا لارتباط تلك المنجزات بدرجة من التقدم التكنولوجي والبحوث والتطوير تجعلها مبنية على عدم المساواة بين الذين يمتلكون مقومات التقدم التقنى وبين الذين يقتصر دورهم على كونهم المستقبلين.

وبتحليل الأرقام الخاصة بهذا النشاط نجد أن نصيب الدول العربية من ناتج البحث والتطوير فى العالم ضئيل للغاية حيث يقل نصيب الدول العربية من النشر عن واحد فى المائة كما أنها تكاد لا تظهر على خريطة تسجيل براءات الاختراع.

ويمكن الاستعانة بالبيانات الواردة فى تقرير اليونسكو عام ١٩٩٨ وذلك لمقارنة مدخلات نشاط البحث والتطوير وناتجه فى الدول العربية.

وبالنظر إلى نسبة الأنفاق على البحث والتطوير إلى الناتج المحلى الإجمالى فتبلغ ١١,٠٪ فى الدول العربية، كذلك نسبة الأنفاق بالنسبة للفرد فنجد أنها تتراوح ما بين ٢٨ دولار فى الكويت كأعلى نسبة و٣,٠ دولار بالنسبة للسودان مقارنة بـ ٦٠٠ دولار فى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان و ٢٠٠ دولار لإسرائيل و ١٠٠ دولار لأسبانيا.

كما تتركز هذه الأنشطة فى الهيئات العامة مع انخفاض مساهمة القطاع الخاص، مع تركيزها فى أنشطة محدودة مثل الزراعة والصحة، وانخفاض نسبتها فى مجال صناعة التكنولوجيا.

العدد المتفرغ من الدول العربية لممارسة هذه الأنشطة محدود حيث يصل إلى ٠,٢ لكل ١٠٠٠ من قوة العمل مقارنة بـ ٩,٣ فى اليابان ولا شك أن البيانات السابقة تشير إلى أن وضع البحث والتطوير العملى بشكله الراهن ينتابه الكثير من السلبيات ويدعو للتشاؤم، حيث أن التحديات الناجمة عن ثورة الاتصالات والمعلومات تعد كبيرة الأمر الذى يدعو للتعامل بجدية مع الآثار السلبية والمخاطر التى تطرحها التطورات المتسارعة فى هذا المجال[1].

خلاصة القول فإنه من الضرورى إعادة النظر فى تخفيض نسب الأمية فى البلدان العربية وفى طبيعة التعليم الأساسى وهيكل التعليم الجامعى وكذلك هيكل البحوث والتطوير ولا شك فى تعاظم الدور المطلوب من الدولة متعدد أاالأبعاد فى تحقيق الأهداف المنشودة.

وإذا كان لا يوجد أمام الدول العربية خيار فى الاندماج مع الاقتصاد العالمى فإن نجاحها فى تحقيق هذا الهدف إنما يرتكز على تنمية قاعدتها من الموارد البشرية وخلق البيئة الملاءمة للاستخدام الأمثل لها، فالاهتمام برأس المال البشرى وزيادة قدرته على التكيف مع التطورات التكنولوجية الجارية عالميا هو من أهم عوامل الاستفادة من آلية العولمة بدلا من الخضوع لسلبياتها. ونؤكد فى هذا الصدد أن الاهتمام برأس المال البشرى يجب أن يكون أساسه الديموقراطية وتحقيق العدالة بين المواطنين والأخذ بمبدأ الثواب والعقاب وإرساء قواعد ثابتة للتداول السلمى للسلطة، لأن فرضها بالقوة أو توريثها قسرا يحطم الروح المعنوية لدى الإنسان ويكسر الشكيمة وبالتالى يسود مبدأ السلبية واللامبالاة فتكون النتيجة تدهور القيم الاجتماعية والإنتاجية وبالتالى تخلف الأمة عن ركب الحضارة وجعلها تابعة للآخرين لا مشاركة معهم.

بعض ملامح تأثيرات العولمة على الجانب الثقافى والإعلامى:

لم يكن العالم الثالث ومن ضمنه الوطن العربى مصدر طلقات التحذير والتخوف من خطر التهميش الذى تتعرض له الثقافة والإعلام بحكم تخلفه فى مجال

---

(١) جورج المصرى مشكلة البحث العلمى فى الوطن العربى، الحالة الجامعية ومستقبل العالم الإسلامى، القاهرة ١٩٩٤، ص ١١٧ .

ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال أو إفلاسه إن صح التعبير: بل كان مصدرها وزراء الثقافة فى الاتحاد الأوروبى فى البيان الذى أصدره فى عام ١٩٨٨ محذرين من خطر التهميش الذى تتعرض له الثقافات الأوروبية فى إطار عالم توحده ثقافيا الصور والرسائل الأمريكية التى تذاع وتنشر عبر الأقمار الصناعية، ولم يكن وزير خارجية اليمن أو موريتانيا أو وزير خارجية جمهورية وسط أفريقيا أو وزير خارجية جواتيمالا هم الذين حذروا من الهيمنة الغربية والأمريكية على وجه الخصوص بل "رولان دوما" وزير الخارجية الفرنسى هو الذى حذر الولايات المتحدة فى أواخر ١٩٩١ من نزعة الهيمنة فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى وإنه وسابقيه ومعهم آخرون كانوا يعبرون عن مخاوف دول العالم من انفراد الولايات المتحدة بالنفوذ العالمى من خلال آليات استخدام البعض منها أثناء فترة القطبية الثنائية ويجرى تطويرها، وبعضها الآخر جديد تدعمه أحدث تطورات التكنولوجيا التى تمت فى مجال تقنية المعلومات والاتصال.

العرب وأهمية العولمة الإعلامية:

عولمة الإعلام العربى هى مجموعة من التحديات أمام النظام الإعلامى العربى الذى يمثل نطاقاً إقليميا فرعياً يتفاعل مع بقية الأنظمة الإعلامية الإقليمية ومع النظام الإعلامى الدولى ـ لتأثيرات عده من خلال العولمة الإعلامية بدءاً من التكنولوجيا المستخدمة مروراً بالمضمون وانتهاءً بالأهداف التى تسعى العولمة إلى تحقيقها. وإذا تأملنا عناصر وأشكال الاتصال بين النظام الإعلامى العربى والنظام الإعلامى الدولى الذى تملك الولايات المتحدة قصب السبق فيه تبرز الآتى:[1]

١ـ أن معظم المواد والتجهيزات الصناعية التقليدية وصناعة الإعلام أغلبها أن لم تكن كلها فى يد الدول المصنعة وفى مقدمتها الولايات المتحدة.

٢ـ جميع وسائل التجهيزات الاتصالية الحديثة تقع فى حوزة المجموعة ذاتها وتسيطر عليها كليا الولايات المتحدة.

٣ـ جميع تجهيزات المعلومات وغزو الفضاء وبنوك المعلومات تحت السيطرة الأمريكية.

---

(١) د.محمد شومان عولمة الإعلام والهوية الثقافية العربية:بحث مقدم إلى ندوة العولمة وقضايا الهوية الثقافية . المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة أبريل ١٩٩٨ ص ص ١٥٠-١٥٢ .

٤- معظم مصادر المعلومات والبث الإعلامي عبر الأقمار الصناعية ومواد تصنيعها وطرق تجارتها والآليات القانونية في يد الولايات المتحدة.

كل هذه المظاهر للعولمة الإعلامية تجعل الولايات المتحدة تمارس عولمة اتصالية تكون أبرز آليتها القنوات الفضائية وإلكترونيات والحواسب والإنترنت .. الخ. وهي آليات تزيد من خطورتها الأيديولوجية الرأسمالية الإمبريالية التي تحملها. فالبث التليفزيوني عبر الأقمار الصناعية يتم الآن بطريق مباشر دون الحاجة إلى المحطات الأرضية وكذلك دمج التليفزيون مع تكنولوجيا الحاسبات. ومن المتوقع استخدام التليفزيون في التحول عبر الإنترنت. وسعيا وراء الاحتكار والربح اتجهت بعض الشركات متعددة الجنسية للعمل في المجال الاتصالي المعلوماتي الترفيهي حيث تسيطر على محتوى وتوجيهات المضامين والأشكال للبرامج المنتجة. وتبرز من هذه الشركات حاليا خمس عملاقة هي ردبراني وبرتلسمان وتايم وازنر وفاكم .. وشركات الأخبار باستثناء الشركة الثانية أي برتلسمان ملكيتها ألمانية، لكنها أكبر شركة نشر في الولايات المتحدة. وبم أن هدف هذه الشركات هو الاحتكار والربح فإنها لا تراعي القيمة الفكرية أو الثقافية للمضامين والبرامج المنتجة.

وفي هذا السياق فإن تفوق صناعة الإعلام والترفيه الأمريكية على مثيلاتها الأوروبية واليابانية في إنتاج وترويج المنتجات الإعلامية والترفيهية، مكنها من أن تصبح النموذج الذي تسعى إلى تقليده صناعات الإعلام والترفيه في بقية أنحاء العالم بما فيه أوروبا ذاتها[1].

إذا من يمتلك (الثلاثي التكنولوجي) المكون من وسائل الإعلام السمعبصرية، وشبكات المعلومات والطريق المعلوماتي السريع بفرض سيطرته الكاملة على صناعة الاتصال والمعلومات الفضائية المصدر الجديد لإنتاج وصناعة القيم والرموز والذوق حيث تبرز الصورة الآن كأحد أهم آليات العولمة في المجال الإعلامي بعد التراجع الحاد للثقافة المكتوبة وبروز ما اصطلح عليه ثقافة ما بعد المكتوب[2].

---

(١) محمد شومان: نفس المصدر - ص١٦٥.

(٢) عبد الإله بلقزيز: العولمة والهوية الثقافية :عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة في ندوة العرب والعولمة، مرجع سابق ص٣١٧.

وبما أن الإعلام والثقافة كل لا يتجزأ فإنما تمارسه العولمة وما تتركه من آثار في المجال الإعلامي العربي يمارسه في المجال الثقافي العربي، ابتداءً من التعليم والدين والعادات والتقاليد وسائر مكونات المنظومة الحضارية إذ تسعى للتأثير على منظومة القيم الكلية وهو أمر يؤثر بشدة على الثقافة العربية التي تعاني منذ ما يقرب من قرنين وضعاً متوتراً نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية بتقنياتها وعلومها وقيمها الحضارية التي تعد نتاج تطور خاص قوامه التحديث والحداثة وهو تطور لم تعايشه الثقافة العربية . حيث تصبح الثقافة منتجاً اجتماعيا تتوسع في ظل ما تحقق من إنجازات ، إذ أصبح في وسع البث المباشر أن ينقل كل المنتج الثقافي في كل العالم بسرعة فائقة(١).

أسباب تفوق العولمة الأمريكية في الوطن العربي:

تتعدد العولمة ما بين أوروبية وأسيوية إلا أن العولمة الأمريكية هي الطاغية على المنطقة العربية. غير إن ما يلفت الاهتمام في متابعة العولمة في المجالين الإعلامي والثقافي في دول المنطقة العربية على نحو خاص هو انتشار وإفساح المجال لكل ما هو أمريكي من موسيقى ولغة وأفلام ومسلسلات وسلع استهلاكية وملابس، وميول. وكلها تسوق سؤالاً مهما حول سبب الإقبال العربي على الصادرات الإعلامية والثقافية الأمريكية دون غيرها مثل الصادرات الأوربية على سبيل المثال. ومع تعقيدات السؤال نظرا لتشعبه إلا أن بإمكاننا الإشارة إلى أهم الأسباب:

١- إن الصادرات الأمريكية لا تعكس إلا المستوى المتدني من الأنشطة الثقافية الأمريكية. فخلافاً لأوروبا أدركت أمريكا مبكرا أن الحضارة الرفيعة سوقها محدودة، فبينما تنفق وزارات الثقافة في أوروبا الأموال الكثيرة لدعم أفضل الفنانين والشعراء والروائيين والمخرجين السينمائيين، تركت الولايات المتحدة الأمر إلى هوليود وإلى وكالات الإعلان في نيويورك لتقرر ما هي المنتجات الثقافية الأكثر قابلية للتسويق في العالم حيث تبين لها أن رامبو وشوارزنجر ومادونا ومايكل جاكسون لهم أفضلية اقتصادية. وبالرغم من وجود نخبة ثاقبة هي الأعلى مستوى في العالم وتلاقي دعما قويا من الدولة ومؤسسات المجتمع ولكنها نخبة محدودة

(١) د. محمد عابد الجابرى : العولمة والهوية الثقافية ، ندوة في العرب والعولمة ، مرجع سابق، ص ٣٣٠ .

ومحصورة فى الدوائر الفكرية، وهى تدرك أن للثقافة المتدنية المستوى سوقاً أوسع كثيرا من سوق الثقافة الراقية.

٢ـ استطاعت الولايات المتحدة نظرا إلى مستوى المعيشة المرتفع فيها وإلى سعة أسواقها أن تطور فى الخمسينيات والستينيات صناعة ثقافية واسعة أهمها التليفزيون والسينما والموسيقى الأمريكية موجهة إلى الشباب والأحداث الذين لا توجد لديهم حاجات اقتصادية ملحة (إعالة أسر ومنازل) فهم بالتالى مستهلكون مثاليون لتسويق المنتجات الثقافية هذه ومع تحسن الأحوال الصحية والاقتصادية فى العالم صار الشباب يشكل الجزء الأكبر من حجم السوق الاستهلاكية العالمية، فسارعت الولايات المتحدة إلى العمل فى هذا المضمار، وأصبحت تسيطر دون منازع على أسواق الاستهلاك الثقافى فى العالم، وسيكون لهذا تأثيراً كبيرا فى المستقبل، فوصول أمريكا إلى الشباب فى العالم وفى العالم العربى على وجه الخصوص يعطيها أفضلية فى التأثير فيهم تجنى ثماره عندما يكبرون ويتولون مناصب مهمة فى بلادهم.

٣ـ صحيح أن الحجم الأكبر من الصادرات الثقافية الأمريكية متدنية المستوى، ولكن للثقافة الأمريكية مكانة مهمة ومهيمنة أيضا فى مجال التعليم العالى والأبحاث العلمية فى الجامعات الأمريكية وعلى نطاق عالمى أيضا، إذ أصبح التعليم العالى منذ منتصف القرن العشرين من خلال عشرين ألف جامعة ومعهد فى الولايات المتحدة فى وضع قيادى دون منازع، وفى هذه الجامعات والمعاهد تتخرج أعداد متزايدة من النخب الطلابية فى العالم ومنهم الكثير سيصبحون فى مراكز قيادية يكون لهم قدرة التأثير فى مجتمعاتهم.

٤ـ أدى انهيار المنظومة الاشتراكية وانحسار المد الشيوعى إلى جعل معظم دول العالم تتقبل النموذج الليبرالى الرأسمالى وسلمت دولاً كبرى فى العالم على أن الديموقراطية الليبرالية هى وحدها صبغة النظام السياسى القابل للاستمرار خاصة وأن الحزب الشيوعى الصينى وإن ظل متمسكاً بالسلطة وبمركزيته إلا أنه قد تخلى فى أجزاء كثير عن الشيوعية الاقتصادية. إضافة إلى أن بعض من تولوا شن الهجوم العنيف من الاشتراكيين والماركسيين فى أسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية

والشـرق الأوسـط دام عـدة عقـود، عـادوا ولـو على مضض إلى الرأى القائل بأن الديموقراطـية التمثيلـية واقتصاد السوق تحت رعاية الدول ربما كان الأفضل لنظام اجـتماعى ثابـت ومزدهـر. أمـا فـى وطـننا العـربى فإن الـبعض مـن هـؤلاء ذهبوا ليصـبحوا دعـاة تطبـيع مـع العدو الصهيونى وأصبحوا يروجون بضاعته فى سوق السـلام الموهوم أكثر من الصهاينة أنفسهم. كل هذا جعل من الولايات المتحدة أن تصـبح مجدداً نموذجاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً وإعلامياً للعديد فى الدول الأخرى فى العالم. وبهذا تصبح العولمة فى إطاراتها وتفاعلاتها عملة أمريكية بكل معطياتها السلبية وإن كانت لا تخلو من بعض الإيجابيات .

بعض الآثار الإيجابية للعولمة على الثقافة العربية : ـــ

تكمن بعض إيجابيات العولمة الثقافية والإعلامية فى رواج تكنولوجيا المعلومات والاتصـال الـتى تحققـت فـى الـدول الغربـية وأحدثـت تطـورات نوعية فى مستويات الخدمـات الأخـبارية لوسـائل الاتصـال المرئـية والمسـموعة والمقـروءة. فقـد تمكنـت شـبكات الإعـلام الدولـية بـث الحـدث حـال وقوعه ومثلت شبكة CNN فى حرب الخلـيج الثانـية أول انطلاقـة إلى تطـور الخدمـة الأخـبارية للإعـلام المـرئى، واكتسبت وسـائل الاتصـال المـرئى والمسـموع المحلـية بعـدا دولـيا، فالـبرامج الـتى تبثها محطات التلـيفزيون المختلفة ، سواء فى الولايات المتحدة أو فى دول غرب أوروبا تشاهد عبر الأقمـار الصـناعية فـى دول المـنطقة العربـية وبالمثل أصبحت محطات الراديو الوطنية تسمع خارج الحدود الوطنية للدولة.

وتطـورت الصـحافة المحلـية العربـية بمختلف إصـداراتها مـن حيـث الإخـراج والتصـوير وحفـظ المعلومـات أو مـن ناحـية المحـتوى والتوزيع حيث أصبحت صحف عربـية عديـدة تـوزع فـى الخـارج. والأهـم مـن كـل مـا سـبق هـو الـدور الـذى لعبه الكومبـيوتر والإنترنـت فـى خدمـة المـنطقة العربـية مـن خـلال مـا أضـافته الوسـيلتين الإعلاميتين من معلومات وفرت الوقت والجهد المبذول فى هذا المجال .

سلبية العولمة على الإعلام والثقافة العربية:

إن كل تطور لابد أن يحمل فى طياته السلبيات والإيجابيات فإذا كانت الجوانب الإيجابية للعولمة الإعلامية والثقافية على الوطن العربى تعد تطورا وجانبا من جوانب التنمية البشرية جعلت المجتمعات العربية أكثر ديناميكية واستعدادا للتجديد والانفتاح إلا أن لها آثار سلبية على المجتمع وفئاته المختلفة وهو ما سنوضحه فى الآتى:

(أ) العولمة وآثارها السلبية على المجتمع العربى فى مجال الإعلام والثقافة:

تؤثر العولمة سلبا على عدد من فئات المجتمع: منها رجال الأعمال والمثقفين والفرد العادى.

فعلى مستوى الصفوة الاقتصادية نجحت العولمة فى إيجاد نخبة من المنتفعين يكونون شبكة استثمارية ذات أهداف مشتركة تتجاوز فى تطلعاتها ومصالحها كل الحواجز الاجتماعية وتحقق النجاح من خلال ارتباط مصالحها بمصالح الرأسمالية العالمية، هذه النخبة موجودة فى معظم الدول العربية وتؤثر من خلال ما تجلبه من منحنيات وما تقوم به من مشروعات فى نواحى عدة[1] منها أنماط الاستهلاك وأذواق المستهلكين الذى يساعد على انحسار وظيفة الدولة خاصة إذا كان الحاكم شريكا أو مرتشيا أو وسيطا كما هو موجود فى كثير من الدول العربية، فإن وظيفته ووظيفة الدولة تصبح محصورة فى حماية هذه الشركات وفى قمع الحركات الاجتماعية المتضررة، وحيث تلعب هذه المجموعة التى يطلق عليها رجال الأعمال دوراً خطيراً كأداة مساعدة على تحقيق الأهداف المختلفة للعولمة، وتحقيق مصالحها الخاصة التى تتعلق بالربح العادى.

وأما على مستوى الصفوة من المثقفين فى الوطن العربى فإنه وإن اتجه الكثير من هؤلاء إلى نقد العولمة بكافة جوانبها إلا أن الجانب الآخر منهم قبل العولمة بدون تحفظ من منطلق أنها قد تخفف على المجتمع العربى ولو جزئيا من القهر الذى يعيش فيه فى ظل أنظمة سياسية مستبدة تقوم على قمع مؤسسات المجتمع المدنى وتجويع

(١) أحمد مجدى حجازى، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية رؤية نقدية من العالم الثالث، مجلة عالم الفكر، مرجع سابق ص ١٣٣.

المواطنين نظرا لارتباط عدداً من هذه الأنظمة بدول أجنبية دونما أية اعتبارات للمصالح الوطنية والقومية، وهو ما يشكل أكبر الأخطار على المجتمع وفي النهاية على الأنظمة نفسها[1].

المؤثرات السلبية للعولمة على المواطن (الفرد) في الوطن العربي.

يشكل المواطن العادى فى الوطن العربى النسيج الأكبر فى المجتمع إذ لم نقل هو كل المجتمع العربى. وفى هذا الصدد فإن نمو وتطور قطاع الاتصالات المعلوماتى الترفيهى يشير إلى الجانب الاقتصادى فى عولمة الإعلام حيث تتداخل فيه متطلبات السوق وآليات الاقتصاد الرأسمالى المعولم، مع خصوصية المنتجات الإعلامية والترفيهية والمعلوماتية كرموز ثقافية تحمل قيم ومعان وعادات وسلوك وأنماط حياة، وهذا التداخل والاختلاط يدفع إلى تنميط المنتجات الإعلامية والمعلوماتية بهدف توحيد العالم وفق متطلبات اقتصاديات الإنتاج الإعلامى والترفيهى الأمريكى الذى يسيطر على السوق العربية من مشرقها إلى مغربها. وحتى لا تصطدم بالخصوصيات القومية والثقافية فقد عملت على مراعاتها فى مراحلها الأولى بأشكال وأساليب تحقق مكاسبها الاقتصادية فى ظل التنافس الحاد بين المنتجات الإعلامية والثقافية والترفيهية وتعدد الخيارات المتاحة للجماهير الشعبية، ثم قامت بدراسة الميول المزاجية للأفراد والجماعات بحيث أمكن لها إدراك ظاهرة تجزئة الجماهير، وزيادة الاتجاه نحو تكوين الإعلام المتخصص الذى لا يؤمن بمركزية الاتصال ويعتمد على تقديم رسائل متعددة تخاطب الحاجات الفردية الضيقة.

وفى هذا الصدد لم يخرج القطاع الاتصالى والمعلوماتى (الترفيهى) عن قوانين الاحتكار. إذ توسعت حركة الاندماج بين الشركات متعددة الجنسيات لتصل إلى ١٥٪ سنويا ابتداء من منتصف الثمانينيات[2] حيث بدء الانتشار الواسع لتكنولوجيا البث الفضائى، ويرى المراقبون أن قيمة أعمال التجمع وحركة الاندماج قد تصل إلى ١٥ مليار دولار عام ٢٠٠٥.

(١) السيد ياسين : العولمة والطريق الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص٤٧.
(٢) بيتر ديكن : الشركات الكبرى المتعددة المواطن والدولة الأم ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، عدد (١٥١) ، مارس ١٩٩٧ ، ص ٣٥ وما بعدها .

وتشير بعض الإحصائيات إلى أن سبعة عشر شركة إعلام ضخمة بحلول التسعينيات تحصل على نصف إجمالى العائدات فى كل وسائل الإعلام العالمى بما فى ذلك التسجيلات الصوتية والكيبل والفيديو كاسيت، وتشير إحصائيات منظمة اليونسكو إلى أن شبكات التليفزيون العربية تبث ما بين ٣٥-٤٠٪ من إجمالى البث من الخارج (حالة سوريا ومصر) ونصف إجمالى البث (تونس والجزائر) أما فى لبنان فإن نسبة البرامج الأجنبية تزيد عن ٦٥٪ من البرامج المبثة وإلى ٧٠٪ من مجموع البرامج الثقافية. وهذه النسب متقاربة سواء كان فى القنوات العادية أو قنوات البث الفضائى التى تستوردها الدول العربية من الخارج والتى تزيد من طلب استيراد مواد ومضامين إعلامية وثقافية أجنبية، أو إنتاج مضامين ترفيهية منتجة عربيا ولكنها تتسم بالتفاهة والسطحية، وتقليد المواد الترفيهية الأمريكية. والأغرب من كل هذا فإن هذه القنوات تقدم معظم المنتج الأجنبى بدون ترجمة إلى اللغة العربية.

أما برامج الأطفال فإن ٧٥-٨٠٪ من إنتاج أجنبى وهو ما يشكل خطرا جامح على تنشئة شباب المستقبل وقادته: والأخطر من ذلك أن غالبية البرامج الأجنبية هذه تقدم للأطفال بلغة المنشأ.

سبيل المواجهة العربية للعولمة الثقافية والإعلامية:

يرى البعض أن العولمة أصبحت قدر مفروض على الجميع التعامل معها. وقد تكون رؤية القدرية هذه صائبة وقد تكون خاطئة. والحقيقة أن العولمة ليست قابلة للرفض أو القبول بل يجب التعامل معها كنظام متشابك الأبعاد يجب فهمه والتعامل معه بشكل كلى فلا نقبل الجانب الاقتصادى منها كاملاً مثلاً ونتعامل مع جانبها السياسى بشكل حذر، الأمر الذى قد يؤدى إلى تبنى وقبول جانبها الثقافى والإعلامى. ولأن العلاقة بين السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى هى علاقة ترابط عضوى لا يمكن لأحدهم أن يشذ عن الآخر فيصبح مميزاً فى إطار مبادرة من نوع ما لإنعاش قطاع من هذه القطاعات دون الآخر فيصبح هو المتقدم والمميز عن غيره من القطاعات التى يتأسس عليها المجتمع وتحدد معالمه من حيث التقدم أو التخلف: وإذا تقدم جانب أو قطاع عن الأخرى فإن ذلك التقدم قد يكون خاضعاً لطفرة طارئة ثم يعود بعدها لينال ما تناله القطاعات الأخرى سلبا أو إيجابا مثل التقدم

الاقتصادى الذى نتج عن الطفرة النفطية فى دول الخليج العربى والذى ساهم فى البناء والتقدم التدريجى فى المجالات الأخرى مثل التعليم والثقافة والإعلام بل وتطور المفاهيم الاجتماعية فى المجتمعات الخليجية: إضافة إلى تغييرات حدثت فى المفاهيم السياسية التى تعتبر أهم جوانب التغييرات هذه .

ولا شك من أن أولى خطوات حماية الثقافة الوطنية هو الارتكاز على بنية سياسية وإمكانات اقتصادية هى فى الأساس موجودة ولكنها تتعرض للهدر والنهب المنظم.

أولا: البنية السياسية عنصر مواجهة للعولمة:

من البداية لابد من التعرف إلى أى ديموقراطية وإلى أى سياسة نتجه؟ هل إلى الديموقراطية التى أصبحت مطلباً رئيسياً وشاملا للأغلبية فى المجتمعات العربية أما الديموقراطية التى تتحدث عنها المؤسسات الدولية وعلى رأسها الولايات المتحدة، أى ذلك النوع من الديموقراطية الذى أصبح يشكل جزء من استراتيجية الهيمنة والاحتواء العالمية، والأولويات التى تخضع لها أغلبية الطبقات فى البلدان العربية التى لا تزال تتراوح بين تحقيق الحاجات الأساسية بما تتضمنه من عدالة إعادة توزيع الثروة ومن تحقيق العدالة والمطالب الوطنية بمعناهما القومى والقطرى معا. ومن هذه المطالب إيجاد حل متوازن للصراع العربى الإسرائيلى يضمن الحقوق الفلسطينية والعربية على أن تكون هذه الرؤية مرحلية بمقتضى مفهوم استحالة أى حل توازنى بين صاحب الدار ومغتصبه: فالحل المتوازن مرحلة تكتيكية تخص الوطن العربى أمام تفاقم هيمنة التحالف الصهيونى الأمريكى، وبلورة خطط ناجحة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

إن شرعية الحديث عن الديموقراطية تنبع من تحقيق المجتمعات العربية لأهدافها الاجتماعية والوطنية والأمنية، بما فى ذلك علاقات التضامن والتعاون والتكامل بين بلدان المنطقة العربية، والتى لازالت نقطة الانسداد فى مسار تحقيقها تكمن فى طبيعة السلطات القائمة وبنيتها الراهنة[1] .

---

(١) د. برهان غليون بمنهج دراسة مستقبل الديموقراطية فى البلدان العربية. المستقبل العربى: العدد ٢١٣، ١٩٩٦/١١ ص٣٨.

إن المدخل الديموقراطى الحقيقى هو الكفيل وحده بمواجهة تحديات النمو والتطور فى البلدان العربية. وليس من الصعب على المراقب السياسى أن يلاحظ اليوم أن المعارضة الرئيسية للنظم القائمة ليست ديموقراطية النزعة. وغياب التوجه الديموقراطى عنها يعكس نقصاً سياسياً فى هذه المعارضة ويتيح فرصاً للنظم السياسية الحاكمة لتشديد قبضتها وإمعانها فيما تقوم به من أساليب القمع والنهب والاضطهاد ضد الجماهير من ناحية واختلاق الأزمات وافتعالها من ناحية أخرى. لذلك فإن من طبيعة نظام احتكار السلطة والثروة والكلام أن يدفع بقدر ما يقوم بتعميق التناقضات إلى أن تكون المعارضة الفعالة مشابهة له فى الطبيعة والصورة فتدفع بالأمور إلى مخاطر الحروب الأهلية التى قد تؤدى إلى التدمير الكامل للبلاد وبنيتها التحتية بدلا من التنمية ومواجهة التحديات الداخلية والعالمية والعولمة.

إن التنمية الشاملة أساسها فى اعتقادى التنمية السياسية ذلك أن تخلف الأمة العربية راجع فى أساسه إلى غياب الديموقراطية وعدم احترام حقوق الإنسان فى أغلب النظم السياسية العربية، فالإنسان العربى يعيش تحت وطأة القهر ولا يطمئن إلى وجوده نفسه، فضلاً عن حقوقه وحرياته. ورغم أن الدساتير العربية كلها تتكلم عن حرية الرأى وحرية الاعتقاد والمساواة فى الحقوق والواجبات وكثيرا منها تتبنى شعارات التعددية السياسية وتناوب السلطة بالطرق السلمية ولكنها تمارس أبشع أنواع الترهيب القائم على هدر المال العام والرشوة وشراء الذمم من أجل خلق أنصار ومؤيدين، من ضعاف النفوس وسواءً كانت الرشوة مادية أو منح بعض المناصب الحكومية حتى يصبحون جداراً حاجزاً دون وصول أهل الكفاءة والتكنوقراط إلى هذه المناصب وهو الأمر الذى يؤدى إلى إهدار المال العام المباشر وغير المباشر، والنتيجة أن الإنسان الجائع والمقهور ومكسور الشكيمة والمعنوية لا يمكن له أن ينتج أو يبدع، ولا يمكن أن يحقق تنمية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، بل ولا يمكن أن يشارك فى مواجهة المخاطر التى تتعرض لها أمته ومجتمعه.

إن بنية معظم النظم السياسية العربية تقوم السلطة فيها على أساس العصبية القبلية أو الطائفية أو الفئوية لذلك فهيا لا تبشر الجماهير بخير لأنها أصعب على التحول والتطور من داخلها من النظم التى تقوم على أساس التعددية الحقيقية. وهنا

فرضية ثانية تقول أن النظم ذات العصبية القبلية أصعب على التحول من النظم الفئوية أو الفردية المطلقة. ذلك أن أى تحول فيها تعتبره تهديداً لموقع القبلية المتميز ولا يمكن المساومة عليه حتى لو دمرت الأرض بمن عليها. وما ظاهره الصومال ودول البحيرات العظمى بما فيها الكونغو إلا خير شاهد على خطورة العصبية القبلية فى النظم السياسية: ولبنان مثال على العصبية الطائفية وأنا لا أريد أن أكون متشائماً، ولكن هذا هو حال الأمة العربية إذ لا يمكن الحديث عن تنمية أو مواجهة عولمة أو تحديات اقتصادية وسياسية وأمنية وثقافية طالما ظلت الأمة على حالها هذا . إن ما أتمناه هو أن تدرك الأمة العربية موقعها من التطورات العالمية الحديثة حتى تواكبها فمقاومة العولمة بحاجة إلى مناعة فكرية وعقلية عالية، والعرب حين يخشون اختراق العولمة لهويتهم[1] حينئذ لن يكون الاختراق بسبب قوة العولمة الحاسمة بل يعود فى جانب كبيرة منه إلى عوامل داخلية تساعد على سرعة الانتشار وهى بالتالى بحاجة إلى تحصينها من خلال تكثيف الحراك الشعبى فى العوامل الآتية :

(أ) العامل الاجتماعى:

تعتبر الأسرة والمدرسة أساس قوة التحصين وحصن المواجهة العولمية المنيع، فإذا ما تمكنت الدول العربية من إيلائهما الرعاية الكاملة ودعمهما ماديا ومعنويا حققتا التنشئة الاجتماعية والثقافية المنشودة بحيث تكون الأسرة هى المؤسسة الاجتماعية الأولى التى تؤثر فى الوجدان الثقافى والأخلاقى للأفراد بواسطة ما ترسخه لديهم من قيم ومبادئ أخلاقية عالية، كما أن المدرسة هى الوظيفة التربوية المكملة للأسرة وأداة مهمة تعمل على إرساء وترسيخ أسس الثقافة الوطنية.

وفى حالة قصور دور هاتين المؤسستين فإن الأفراد والشباب على وجه الخصوص سيتوجه بشدة إلى مصادر جديدة لإنتاج ونشر القيم وفى مقدمتها البث المباشر عبر الأقمار الصناعية، أو الإعلام المرئى بشكل عام.

---

(١) حيدر إبراهيم:العولمة وجدل الهوية الثقافية، مجلة عالم الفكر: المجلد ٢٨، العدد الثانى، أكتوبر/ ديسمبر ١٩٩٩، ص١٣٩.

(ب) العامل السياسى:

إن الأزمة متعددة الجوانب الذى يشهدها النظام الثقافى العربى قد ارتبطت بالعامل السياسى الذى تسبب فى فشل المنظومة الثقافية العربية سواء عن طريق قمع الرأى الحر أو عن طريق تصوير الثقافة وكأنها خطورة تهدد النظم السياسية، الأمر الذى يشكل عائقا أمام وضع أى تصور لبناء استراتيجية ثقافية تحد من تحديات العولمة الثقافية.

وفى هذا الصدد علينا أن نفرق بين السياسة الثقافية بمعنى سياسة وضع البرامج الثقافية التى تصوغها مجموعة تمثل الحكومة وبين سياسة الثقافة التى غالبا ما تكون حصيلة رؤى ثقافية لتيارات سياسية متعددة فى المنطقة العربية، حيث تلعب سياسيا الثقافة دورا يفوق إلى حد كبير الدور الذى تقوم به السياسة الثقافية، ومع ذلك فإن الطبيعى أن لا يلغى كل منهما الآخر.

وإذا ما أردنا للثقافة العربية أن تحمى نفسها من الذوبان والتلاشى فعلينا أن نمرر العناية بها على ثلاث دوائر متداخلة:(١)

(أ) الدائرة المحلية:

ويقصد بها دائرة الدولة، حيث يستدعى الوضع ضرورة الاهتمام بالثقافة العامة والثقافات الفرعية مع التركيز على التنوع الثقافى والثقافة الشعبية.

(ب) الدائرة الإقليمية:

وهى الدائرة التى تشمل دول المنطقة العربية، حيث يتم التركيز على الوحدة من خلال التنوع مع الاهتمام بالخصوصيات الثقافية، ومراجعة الخطاب القومى الثقافى لكى يتواكب مع المتغيرات المطروحة على الساحتين الإقليمية والعالمية.

---

(١) السيد يس : النظام الثقافى العربى بين الأزمة والانهيار فى التقرير الاستراتيجى العربى، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٥، ص ص ١٦٨-١٨١.

(جـ) الدائرة العالمية:

وفيها يكون التركيز الأساسي على الثقافة الكونية ومتابعة الآثار الإعلامية والثقافية للعولمة والعمل على الحد من تأثيرها على الهوية القومية.

٣ـ العامل التكنولوجي :

يتطلب إنماء الذاتية الثقافية العربية بذل الجهد ودخول عصر العلم والتكنولوجيا مع ضرورة العمل للسيطرة على تقدم أحدث التقنيات حتى لا نظل عاجزين عن التحكم في هذه التقنيات ونعود إلى ما تعودنا عليه من تسلم المشاريع المكتملة والجاهزة أو كما يطلق عليها البعض مشاريع المفتاح (Tun Key) من الشركات الأجنبية صاحبة الالتزام ومن دون التعرف على التكنولوجيا المستخدمة في هذه المشاريع. وعلى الرغم من أن بعض الدول العربية قد حاولت أن تماثل غيرها من بعض دول العالم الثالث في تنمية مجموعات من الصناعات في الهندسة والكيماويات والإلكترونيات والصناعات الغذائية ... الخ. إلا أنه من الصعب القول أنها قد حققت نجاحات تذكر في هذه المجالات.

والأساس الذي تبنى عليه تقنية المعلوماتية هو صناعة الإلكترونيات وبدونها لا يمكن التكلم عن المعلوماتية أو عن تطوير تقنية الاتصال والإعلام. ومن منطلق المفهومية العربية والدراية والاعتراف بالإفلاس والفقرالعربي في مجال اقتناء تكنولوجيا المعلومات فإن على أصحاب القرار في البلدان العربية وضع الخطط الكفيلة بتحقيق خطوات في البناء التكنولوجي ولو تدريجيا، حتى لا نصل إلى مرحلة عدم القدرة على دفع ثمن السلع المستوردة من الخارج فتكون التبعية هي نوع من العبودية الكاملة أو الانقراض.

إن على الدول العربية أن تفكر جديا بحجز مكان للأمة العربية في عالم اليوم الذي سمته القوة والقدرة العلمية الفائقة المتمثلة في ثورة المعلومات وتقنية الكمبيوتر والإنترنت عالية الجودة وفائقة السرعة، وعليها أن تحتل مكان حتي ولو كان في مؤخرة الهيكل الصناعي المندمج مع الهيكل الاقتصادي ، والأخير نتاجاً للأول وأن تجعل أهم أولوياتها صناعة الإلكترونيات . صحيح إن العملية لا تعدو أن تكون وقائية

أو المحافظة على النفس من الانقراض الكامل: أما أن نقول مواجهة للعولمة أوسباق ومنافسه في مجال مدخلاتها مع من يديرها فهذا عمل صعب التحقيق لسيما وأن الأمة العربية تعيش حالة تفتت وشرذمة وانهيار سببته بعض الأنظمة العربية الشمولية الفاسدة .

إن الثقافة العربية لا يمكن لها أن تحقق المواجهة للعولمة والوقاية من الذوبان فيها طالما ظلت ثقافة نصوص تنقلها عن القدماء أو عن الغرب فتبقى ثقافة نص أو ثقافة تأويل وثقافة إعادة إنتاج، وكأننا لا نستطيع أن ننظر إلى العالم مباشرة دون أن نضع بيننا وبين العالم نصوصاً.

إن على الثقافة العربية أن تبدع نصوصاً جديدة في الفكر والثقافة والأدب والعلوم وأن ننتج برامج ومواد إعلامية مفيدة تربى الشباب على القيم العربية الإسلامية وترسخ فى نفوسهم الوطنية وحب الفداء والتضحية من أجل تراب الوطن العربى كله وتنمى فيهم روح الإبداع والتطوير والتطور، وأن تضيف إلى التراث القديم والتراث العربى والإسلامى مجموعة من النصوص، لا أن تنحصر فيما تنقله أو تؤوله[1] . كما أن على وسائل الإعلام مهام كبيرة تقوم بها أهمها: تثقيف المجتمع وتوعيته بماضيه وحاضرة ومستقبله من خلال وضع برامج هادفة ذات مستوى راق من حيث الإعداد والإخراج والمضمون. بحيث توضح البرامج على مستوى البث الإذاعي والتليفزيون والنشر فى الصحف والمجلات والمجلات الدورية المواقف العظيمة للأمة العربية والإسلامية والوثبات البطولية الخالدة لعظام وأبطال الفتوحات الإسلامية وأولئك الذين تصدوا للهجمات الصليبية وحرروا القدس الشريف وللتراث العلمى الحضارى للدولة الإسلامية الذى أوقد شمعة نور التقدم فى أوروبا وأخرجها من ظلمات العصور الوسطى الحالكة .. الخ.

وعن الحاضر : على وسائل الإعلام إذا ما أرادت توخى المصداقية أن تبرز بشفافية ووضوح كل أسباب مناحى التردى والتخلف والتبعية التى داهمت الأمة العربية وجعلتها تتخبط فى بحر وحل التخلف والاستبداد ، فلا هى غرقت واندثرت ولا هى سبحت ووصلت إلى شاطئ الأمان الذى سمته التقدم العلمى والتقنى وتحقيق

(١) د. حسن حنفى كبوة الحضارة والإصلاح والنهضة ومستقبل العرب: الراية ٩٧/٦/٢٢ .

الرخاء والرفاء الاجتماعى لكل أفراد الأمة ، وإن ظلت بعض التفاوتات البسيطة التى هى سمة الحياة وشيمتها، مع ضرورة إبراز حقيقة أن تحقيق مثل هذا الحلم لا يمكن حدوثه فى غياب الديموقراطية ومصادرة حقوق الإنسان العربى الذى يفترض أن يكون أساس التنمية الشاملة .

تنمية الثقافة العلمية كجزء من مواجهة العولمة:

تعد العلوم الطبيعية الأساس لتطوير القدرة الإنتاجية ويظهر ارتباط العلم بالتنمية الاقتصادية أكثر وضوحا فى الدول الصناعية حيث تنمو الصناعات معتمدة على التقنية المتقدمة التى ترتكز بدورها على البحث والتطوير.

ولا شك أن الوصول إلى هذه الغاية يتطلب تجديد التربية والتعليم وتحديد مهماتها فى كل فترات التغيير، وإذا كان مطلب التجديد فى التعليم أخذ يحتل مقام الصدارة فى البلدان المتقدمة[1] . فجدير به أن يكون موضع اهتمام أكبر فى البلدان النامية والعربية. وإذا كانت التقارير الدولية فى البلدان المتقدمة حول التربية والتعليم رغم تقدمها وتقدم وسائلها عندهم قد أثارت الذعر فى أوساط هذه الدول من جراء تردى العملية التربوية، وإذا تجاوزنا التقرير الشهير "أمة فى خطر" الذى وضعته لجنة من الخبراء فى الولايات المتحدة منذ عقدين من الزمان، وتجاوزنا استراتيجية التربية لأمريكا عام ٢٠٠٠ التى وضعت فى عهد الرئيس بوش عام ١٩٩١ والخطة التربوية الجديدة فى اليابان ثم التقرير الذى قدمته اللجنة الدولية للتربية من أجل القرن الواحد والعشرين إلى منظمة اليونسكو والذى نشر فى عام ١٩٩٦ ورأس اللجنة جاك دولور، تقرير ثانى يتصل بتطوير التربية فى فرنسا وضعته لجنة يرأسها روجيه فورو Roger Fauroux بتكليف من الحكومة الفرنسية فإن التربية عندنا تدعونا إلى رفع شعار التعليم أو الموت، ولكن ما ندركه هو أن الأمة العربية أو قادتها يقفون من التطورات العلمية موقف اللامبالاة. بل أن ما يجرى من حولهم لا يدعو لأى إثارة أو إزعاج ، فهم لا يعرفون إن إطلاق القمر الصناعى السوفييتى سبوتنيك عام ١٩٥٧م كان من أهم الأحداث العلمية التى هزت كيان المجتمع الأمريكى وأصابته

(١) د. عبد الله عبد الدائم:دور التربية العربية المتغير مع دخول القرن الحادى والعشرين: مجلة شئون عربية العدد ٩٣ مارس ١٩٩٨ ص ١٣٤.

بأزمة طاحنة، وعبرت الجهات المختلفة عن عدم الرضاء عن مناهج العلوم والرياضيات وغيرها من مواد العلوم الطبيعية.

إن التعليم فى البلدان العربية لا زال يتمسك بمفهوم النظام التربوى الثابت، رغم أن مراحل التعليم التقليدية أصبحت فى معظم دول العالم موضع تساؤل. والبحث فى معالم التربية العربية من أجل التغيير والتعبير أصبح ضرورة ملحة فى غاية الأهمية ومنها[1] :

(أ) المرونة فى النظام التربوى العربى :

وتعنى هذه المرونة أن نقيم مؤسسات تعليم وإعداد تدريب مفتوحة القنوات والمداخل والمخارج مرنة الأشكال والمحتوى تلبى حاجات الطلاب (الزبائن) المتنوعين. تلك الحاجات التى تتغير مع تغير حاجات المجتمع المختلفة والمتغيرات العالمية التى تطرأ على الساحة الدولية بين الحين والآخر. فالعالم المتغير لا تستجيب له إلا تربية مرنة تقسم المجال واسعاً لتحقيق الانسجام واللحمة بين النظام التربوى ، من حيث محتواه وطرائقه وأطره ، وبين حاجات الطلاب المتغيرة وآفاق حياتهم المتجددة .

(ب) التربية المستمرة :

إن التربية المستمرة التى تقدم على مقاعد الدراسة ليست إلا جانباً واحداً من جوانب التربية والإعداد ، وإن المجال واسع لإعداد وتدريب مستمر، أما المجال الواسع فيكمن فى الإعداد والتدريب المستمرين ، ومن أبرز صفات الإعداد والتدريب المستمرين أنهما أكثر التصاقاً بحاجات سوق العمل وبحاجات المجتمع بوجه عام ويصلحان بالتالى بعض أخطاء التربية وتصويب الأخطاء فى بعض الخطط التربوية المقتصرة على مراحل الدراسة النظامية من تنبؤات مسبقة غير دقيقة فيما يتصل بمدى التوافق بين مخرجات النظام التربوى وبين حاجات سوق العمل وحاجات المجتمع المتجددة .

---

(١) د. عبد الله عبد الدائم :مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية :المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليسكو) تونس ١٩٩٥.

إن التربية الدائمة هى أهم سبل الاستجابة لعالم لا نستطيع أن تلحق به التربية إلا إذا هى جددت تربية أبنائها باستمرار وهى فى الوقت نفسه من أهم سبل ترشيد مسيرة التغير ، وتعنى بتكوين الفرد المستقل المبدع [1] الذى يربط بين الثقافة التربوية وبين الثقافة المعلوماتية وتجديدها .

وتقوم الثقافة التربوية بمهمة مزدوجة أولها أنها تجدد النظام التربوى على وفاق تجدد العلم والثقافة ، وثانيها أنها تتغلب على مشكلات التزايد الكمى للطلاب وبالتالى على مشكلات التمويل عن طريق تجويد الكيف والنوع .

إن التربية بالتراث الثقافى العربى والعالمى أي ربط الثقافة بالتعليم هو من أهم ضرورات المهام التعليمية التى يجب أن توضع أولويات خطط وضع المناهج التعليمية والسياسة . فالوطن العربى يتعرض لأخطر وأدهى الغزو الثقافى لذا فإن الأنظار ترنو إلى التربية ، لتتولى دراسة التراث العربى الإسلامى وتحليله وتجديده من خلال ذاته ومن خلال تفاعله مع الثقافات العالمية ومع ما يتطلبه الحاضر والمستقبل . وأهم ما يجب أن تتولاه التربية فى هذا المجال بالتنسيق مع الإعلام هو إحياء القيم الإنسانية فى ذلك التراث ، بحيث تغدو قوة دفع تيسر التمثيل الصحيح للحضارة العلمية الثقافية ، بل الحضارة التى أسهمت الثقافة العربية الإسلامية فى انتشارها منذ قرون عديدة ، ومن أهمها قيم سعى الأمة العربية لتوليد حضارتها ، والتى يجب على التربية أن تبرزها كونها قيم احترام العلم والعمل واحترام العدل وقوة الفرص والتعاون والتضامن ، إلى جانب القيم الأخلاقية والاجتماعية ، كما أن على التربية الاهتمام والعناية البالغة باللغة العربية حاملة وناقلة قيمة ونظرته إلى الكون ، واعتبارها الوسيلة الأساسية من وسائل الحفاظ على التراث وفهمه [2] التى يجب أن يكون المجتمع العربى على إلمام بها ودراية، حتى لا يكون عرضة للتماهي والذوبان أمام كل ما هو وارد من الخارج س.

وعندما نتحدث عن الثقافة ، فإننا نشير إلى ثورة المعلومات التى أحدثت تغير وانقطاع كيفى فى التكنولوجيا وفى الأفاق المتاحة فإذا كان ظهور الزراعة قبل حوالى عشرة آلاف سنة أحدث ثورة وانقطاعاً كاملاً بين نمطى الحياة السابق واللاحق وإذا

---

(١) د. عبدالله عبد الدايم ، مصدر سابق ص١٣٩ .

(٢) عبد الله عبد الدايم : نفس المصدر ، ص١٤٨ .

كانت الثورة الصناعية قبل قرنين مثلت انقطاعاً آخر غير فى نمط الحياة وأساليب الإنتاج، فإننا الآن على فاتحة عصر جديد يمثل انقطاعاً فى نمط الحياة والتكنولوجيا المترتب على ثورة المعلومات والاتصالات التى دخلت مرحلة جديدة كلياً منذ نهاية الستينات والسبعينات وخاصة التسعينات من القرن العشرين [1]، وهى الفترة التى تتميز بتزايد أهمية المعلومات والاتصالات ، رغم أن التقدم التكنولوجى قد سار بوتيرة سريعة منذ بداية القرن العشرين نفسه إلا أن غلبة المعلومات والاتصالات على المجتمع الحديث ، قد بلغت درجة يبرر إطلاق ثورة المعلومات على هذا المجتمع الحديث . فالآلة الحديثة والجديدة لم تعد تحل محل العمل العضلى للإنسان، بل أصبحت على العكس تقوم بدور عقله وذكائه ، وكما أدى إحلال الآلة محل عضلات الإنسان إلى مضاعفة قوة الإنسان ، فإن دخول الآلة فى مجال الحساب وترشيد القرار سوف يؤدى إلى مضاعفة ذكائه وليس معنى ذلك أن الآلة قد حلت محل العقل البشرى بقدر ما هى معاونة له ومساعدة فى التركيز على العمليات العقلية للبشر وخاصة فى مجال الخيال والابتكار ، إذن فنحن الآن أمام تغيرات فى الصناعة والتكنولوجيا المستخدمة فلم يعد الأمر متعلقاً بإنتاج أقل أو أكثر ، فالأمر أصبح مختلفاً تماماً ، لأن الاستمرار القديم بدأ يتقطع بدخول فترة أو مرحلة تتميز بتزايد أهمية المعلومات والاتصالات ، أى أننا أمام مرحلة جديدة تختلف عن سابقاتها تماماً الأمر الذى جعل البعض يطلق اسم عصر الانقطاع على هذه المرحلة .

إن علينا نحن العرب أن لا نكون متفرجين فى ظل الخضم المتسارع كما كنا فى الماضى فالأمر جد مختلف ، فإذا كانت مواقفنا المتفرجة قد أفضت إلى استعمارنا من قبل الأجنبى الذى نهب خيراتنا وأهان كرامتنا ثم زرع متعمداً خلية سرطانية فى قلب أرضنا وأمتنا ، فإن عصر العولمة إذا ما ظللنا على سابق حالنا سيفضى إلى القضاء على وجودنا وكياننا القومى وهويتنا الثقافية فى عالم مجهول ومجنون تحكمه أشباح من الشركات المتعددة الجنسية[2] .

---

(١) د. حازم البيلاوى : النظام الاقتصادى الدولى المعاصر ، سلسلة كتب ثقافية ، عدد ٢٥٧، الكويت، مايو ٢٠٠٠ ص١٤٤ .

(٢) هانس بيتر مارتن وهارولد شومان : فتح العولمة ، ترجمة عدنان عباس على ، عالم المعرفة الكويت أكتوبر ١٩٩٨ .

إذن لا سبيل لنا فى البقاء والحفاظ على قيمنا وتراثنا وهويتنا العربية والإسلامية إلا بالعلم ، وكما سبق وذكرنا نماذج للانزعاج الأوروبى والأمريكى واليابانى من بعض نواقص فى التعليم لديهم، وهو تعليم فى غاية التطور ، وشكلت اللجان واستنفرت كل المؤسسات لتضع تصوراتها لإصلاح التعليم فإن نبينا محمد ﷺ، أوصى أمته بالعلم خيراً حين قال : (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم) .



الخاتمة

ليس بالأمر السهل تلخيص ما ورد في هذا الكتاب، لكن رأيت أن من الواجب التذكير بالحقائق الأساسية التي تحدد مكانة العرب من الظاهرة الجديدة المسماة بالعولمة :

الحقيقة الأولى : هي أن النظام العالمي الجديد والعولمة صناعة أمريكية صهيونية وضعت استراتيجيتها منذ عقود خلت ودخلت حيز التنفيذ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية وترك الساحة العالمية مفتوحة للاعب الأمريكي الذي قرر أن تكون الساحة العربية منبر إعلان قيادته للنظام العالمي الجديد على أنقاض النظام العربي الذي تمت عملية تفكيكه وضربه أثناء التطورات المتسارعة لكارثة الخليج الثانية ضمن سيناريو جاء التفكير فيه مبكراً في صيغة جهنمية لتذويب العرب بمشروعهم القومي وترابطهم النسقي في إطار أوسع ، يهدف أول ما يهدف إلى كسر شوكتهم تجاه إسرائيل بعد هزيمتهم عسكرياً وسياسياً ونفسياً ، مقابل تنصيب إسرائيل على رأس تجمع جديد يتجاوز فكرة العروبة بكل مقوماتها الحضارية واللغوية والثقافية والقيمية .

الحقيقة الثانية : هي أن الرأي القائل بأن المجتمع الغني بالمعلومات والمدعوم بعتاده الآلي الحديث سوف يقضي على أمراضنا الاجتماعية الراهنة وتخلفنا المخيف هو رأي مضلل وبعيد عن الواقع . فهو بعيد عن الواقع حين يتصور أن أبناء الأقليات الغنية سوف يتغلبون بصورة سحرية عندما يواجهون نظم الكمبيوتر ، على سنوات الحرمان المتراكمة عبر الأجيال ودون الالتفات إلى الواقع الجماهيري الذي أغلبه من الفقراء والمعدمين والمحرومين على مستوى العالم وفي العالم الثالث والدول العربية على وجه الخصوص. وهو مضلل وخادع حين يدع الانشغال بالتقنيات الإلكترونية تحجب الدعائم المؤسساتية التي تظل مسئولة عن اتجاه وبؤرة نشاط الاستخدامات الآلية الحديثة ، فالقضايا الأساسية فيما يتعلق بطابع واحتمالات التكنولوجيا الإعلامية الحديثة ، تتمثل في معيار : لمصلحة من ، وتحت سيطرة من سيجري استخدامها ؟

لقد سيطرت المصالح العسكرية والتجارية الخاصة فى الولايات المتحدة على تطور التكنولوجيا ومولتها بسخاء بحيث ينسجم هذا التطور تماماً مع عمليات ، وآليات البنية الاقتصادية والعسكرية والتى توجه القرار الأمريكى المسيطر عليه صهيونياً ، الأمر الذى يجعلنا نؤكد على محاولة إبقائنا بعيدين عن مواكبة العولمة ومسايرة التحديث الجارية فى مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال والتى أصبحت أهم آليات البنية الاقتصادية الواقعة تحت قبضة الشركات العملاقة التى تحكم سيطرتها على دورة العمل الإعلامى وعلى جميع المعلومات الضرورية والتى تراها أساسية لاستمرار دائرة الامتياز مغلقة وبعيدة المنال لمن يحاول كسرها واختراقها .

الحقيقة الثالثة : هى إن التقنيات الحديثة قد أثارت حماساً شديداً كما أثارت العديد من التنبؤات غير المدروسة بفوائد اجتماعية واسعة النطاق . إذ يقال إن استخدام الآلات الإلكترونية الحديثة ستوفر فى وقت واحد كم وكيف وفورية إعلامية ومعلوماتية وإن الأقمار الصناعية والكومبيوتر والأنترنت سوف تقصر بيننا وبين الأمم البعيدة عنا ،وبالتالى ستخفف من حدة الشكوك ومشاعر العداوة وأن ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال ستوفر للأمم الفقيرة والمحرومة فرصة القفز إلى العصر الحاضر؛ أي أن ثورة المعلومات ستعمل إلى جانب تقليص المسافات والمساحات الجغرافية على تضييق الفجوة بين الجنوب والشمال ، بين الفقر والغناء وأنها ستحقق إمكانية تنفيذ برامج اقتصادية وتعليمية واسعة النطاق عن طريق البث التليفزيونى المباشر إلى الشعوب الأمية ... إلخ . غير أن ما يحدث فى الواقع العملى هو عكس ما بشر به دعاة العولمة، فالفجوة تزداد اتساعاً بين من يملك ومن لا يملك بين الأغنياء والفقراء بين القادرين على حيازة تكنولوجيا المعلومات والتعليم عليها وبين غير القادرين على المستوى الوطنى والإقليمى والدولى ، أى أن الفجوة ستزيد اتساعاً على مستوى الدولة فى داخلها وعلى المستوى الإقليمى الذى يضم أكثر من دولة فى تجمع تنسيقى أو شبه تنسيقى أو على المستوى الدولى كما هو الحال بين الشمال والجنوب أو حتى بين الشمال والشمال (أمريكا وأوروبا) والجنوب والجنوب (بين الدول النامية التى بدأت تنتشر فيها صناعة الإلكترونيات الحديثة أو تجمعها، وحققت خطوات لا بأس بها فى مجال استيعابها واستخدامها أهلتها لقفزات اقتصادية لا يستهان بها، مثل كوريا الجنوبية وماليزيا وسنغافورة والصين والهند، وبين الدول

المتخلفة ومن ضمنها تلك الدول التى تستخدم أحدث الآلات الإلكترونية نظرا لما تتمتع به من قدرة شرائية ولكنها عاجزة حتى عن استخدام مفتاح الفك والتركيب لتنظيف هذه الأجهزة من غبار الصحراء الذى يلصق بها ومن بين هذه الدول : الدور العربية النفطية .

وإذا ما اعترفنا بعمق الفجوة المعرفية والتقنية فإنه من السخف إنكار جوانب أخرى عديدة وأمراض خطيرة خارجة عن نطاق سيطرتنا ، فما يحدث الآن هو تعديات مخيفة على خصوصية بيوتنا وثقافتنا ومحرمات لم يسبق انتهاك حرمتها، فى الوقت الذى نشعر بأننا عاجزون أكثر فأكثر كلما تطورت وسائل الاتصال والإعلام وخاصة البث المباشر عن طريق الأقمار الصناعية الذى أصبح يمارس علينا سطوة الإكراه والاغتصاب فى منازلنا فأصبحنا نشترى سلعاً خارجة عن أذواقنا ونجبر أحيانا على طلب المقدونالز أو الكانتكى أو أنواع الهمبورجر وغيرها نزولاً عند إلحاح أطفالنا .

إن الانتهاكات التى يقوم بها التلفزيون للحياة الأسرية وتأثيراته فى الوجبات ، والأحاديث ، والألعاب وغيرها يقنع الأباء بأن ثمن تقبل الشاشة الصغيرة كعنصر من عناصر القوة فى الأسرة إنما تكلف ثمن باهظ للغاية ، يتطلب البحث عن إيجاد إمكانية مواجهة تلك الآلة ذات الحضور الفعلى والملموس فى بيوتنا فيمكننا أن نتعلم السيطرة عليها حتى لا تسيطر علينا .

الحقيقة الرابعة : هى أننا صدقنا عندما قيل لنا من أن النظام العالمى الجديد الذى خرجت من إطاره العولمة سيعمل على تحقيق العدالة والمساواة بين كل شعوب العالم، وأن هدفه الأول هو تحقيق ضمان حقوق الإنسان وصيانة كرامته وحل النزاعات الدولية والإقليمية بالطرق السلمية . ولكن ما حدث ويحدث عكس ما قيل لنا وسمعناه وصدقناه . فالولايات المتحدة وهى الدولة التى تقود النظام العالمى الجديد وترعى العولمة هى التى تمارس أفظع الانتهاكات لحقوق الإنسان وعلى نطاق واسع منها على سبيل المثال استخدامها حق الفيتو ضد أي قرارات إدانة للأعمال الإجرامية التى تمارسها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى وفرض الحصار على الشعب العراقى

وتجويعه وعلى ليبيا والسودان والهجمة الأطلسية التى قادتها الولايات المتحدة على يوغوسلافيا ... إلخ .

وحول موضوع حل النزاعات بالطرق السلمية الذى بشر العالم به جورج بوش عام ١٩٩١ يشير التقرير السنوى للمعهد الدولى لأبحاث السلام والذى نشر فى منتصف شهر يونيه ٢٠٠٠ إلى اندلاع ٢٧ نزاعاً مسلحاً فى ٢٥ دولة خلال عام ١٩٩٩ أكثرها وحشية فى القرن الأفريقى والبحيرات العظمى والكونغو وسيراليون وحرب البلقان وأن نفقات التسلح قفزت إلى ٧٨٠ مليار دولار ٤٢ ٪ منها بالولايات المتحدة وتسببت هذه النزاعات فى تهجير أكثر من ٣٥ مليون نسمة منها ١٥ مليون نسمة نزحت وعبرت الحدود إلى خارج دولها ، وعشرين مليون نسمة تتسكع داخل دولها بدون مأوى وفى ظروف إنسانية مأساوية .

ففى أوربا وحدها أدت غارات حلف شمال الأطلنطى على كسوفا ويوغوسلافيا إلى تهجير مليون مواطن ألبانى من كسوفا ، وإلى سقوط عدد غير محدود من الضحايا . وحذر المعهد الدولى لأبحاث السلام فى استوكهولم فى تقريره لعام ١٩٩٩ من أن وجهات النظر حول مستقبل إقليم كوسوفا متباينة للغاية ، وبالتالى من الصعب التقريب بينها للتوصل إلى تسوية للنزاع فى هذه المنطقة التى تعتبر المسئولية المباشرة عليها للولايات المتحدة ، فما بالك عن إمكانية إيجاد حلول للنزاعات الأخرى كتلك الموجودة فى القارة الإفريقية على سبيل المثال .

يتضح من هذه الحقائق وغيرها أكاذيب الدعاية الأمريكية والصهيونية التى تروجها وسائل الإعلام الجبارة المملوكة للشركات العملاقة عابرات القارآت ومتعددة الجنسيات صاحبة المصلحة من فرض العولمة وتعميمها على كل شعوب العالم ودوله ومن فرض الهيمنة والقيادة الأحادية للعالم التى تنفرد بها الولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن .

أما الأكذوبة الكبرى فهى تلك التى نطلقها على أنفسنا إذا ما تصورنا أننا سنكون قادرين على مواكبة العصر ، أو مواجهة تحديات العولمة والنظام العالمى الجديد فى ظل ظروف التفكك والتشرذم التى تعيشها أمتنا العربية فى الوقت الراهن.

المراجع

أولا : المراجع العربية :

(أ) القرآن الكريم : سورة المائدة ، الآية ٢ .

(ب) الكتب :

١- أبو الحسن بن إسماعيل الأشعرى ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ط٣ ، بيروت، دار الحداثة ١٩٨٥م.

٢- أحمد طربين: التجربة العربية - كيف تحققت، مركز دراسة الوحدة العربية سلسلة الثقافة القومية، عدد ١٣، بيروت، ديسمبر ١٩٨٧م.

٣- إسماعيل صبرى عبد الله: أبرز معالم الجدة فى نهاية القرن العشرين، منتدى العالم الثالث ١٩٩٧م.

٤- السيد ياسين : الزمن العربى والمستقبل العالمى ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

٥- السيد ياسين : الوعى التاريخى والثورة الكونية ، حوار الحضارات فى عالم متغير ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٦ م .

٦- السيد ياسين: العولمة والطريق الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م.

٧- الفن توفلر : حضارة الموجة الثالثة ، ترجمة عصام الشيخ قاسم ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٨- بيتر ما تستفيلد: تاريخ مصرالحديث والشرق الأوسط ، دار التقدم / موسكو ، ١٩٨٨م.

٩- توماس فريدمان : السيارة ليكساز وشجرة الزيتون فى محاولة لفهم العولمة ، ترجمة ليلى زيدان ، الدار القومية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩م .

١٠-جارى بير تلس وآخرون: جنون العولمة ، ترجمة كمال السيد مركز الأهرام للترجمة والنشر: مؤسسة الأهرام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٩م.

١١-جلال أمين : العولمة ، سلسلة ثقافة شهرية (اقرأ) العدد ٦٣٦ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨م.

١٢-جورج المصرى : مشكلة البحث العلمى فى الوطن العربى ، الحالة الجامعية ومستقبل العالم الإسلامى ، القاهرة ١٩٩٤م .

١٣-حازم الببلاوى : النظام الاقتصادى الدولى المعاصر ، سلسلة كتب ثقافية ، عدد ٢٥٧ ، الكويت ، مايو ٢٠٠٠ م.

١٤-حسن عماد مكاوى : تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى عصر المعلومات، الدار المصرية اللبنانية : الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٩٧ .

١٥-دادياني : الصهيونية على حقيقتها: دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٩م.

١٦-ر. بودون وف بوريكو : المعجم النقدى لعلم الاجتماع . ترجمة سليم حداد ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

١٧-ميخائيل جورباتشوف " البروسترويكا " ، ترجمة : حمدى عبد الجواد، القاهرة، دار الشروق ، طبعة ١ ، ١٩٨٨م .
١٨-راسم الجمال " الأقمار الصناعية ووظائفها الاتصالية، مكتبة الصباح ، طبعة أولى ١٩٨٩م.
١٩-روبرت ام ـ ماكيفر : تكوين الدولة : ترجمة حسن صعب ، دار العلم للملايين ، بيروت.
٢٠-سعد الدين إبراهيم وآخرون: المجتمع والدولة فى الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨م.
٢١-سمير أمين : فى مواجهة أزمة عصرنا ، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٧م.
٢٢-شون ما كبرايد وآخرون : أصوات متعددة وعالم واحد، الاتصال والمجتمع اليوم وغداً ، تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ١٩٨١م.
٢٣-صلاح عبد البديع شلبى : العضوية فى منظمة التجارة العالمية وتنفيذ الاتفاقيات التجارية الدولية، سلسلة كتاب الاقتصادى رقم ١٢٣ ، القاهرة ، أبريل ١٩٩٢م.
٢٤-عبد الله عبد الدائم: مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليسكو) تونس ١٩٩٥م.
٢٥-عبد الوهاب الكيالى تاريخ فلسطين الحديث : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت الطبعة الأولى ، بدون تاريخ.
٢٦-غسان سلامة : نحو عقد اجتماعى عربى جديد ، طـ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ١٩٨٧م .
٢٧-فؤاد مرسى : الرأسمالية تجدد نفسها : كتاب سلسلة عالم المعرفة عدد ٢١٤٧ المجلس الوطنى للفنون والثقافة والآداب ، الكويت .
٢٨-فاروق عثمان أرباطه : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م .
٢٩-فتح الله ولعلو: الاقتصاد السياسى ، الجزء الأول ، دار النشر المغربية ، ط ٢ ، بدون تاريخ .
٣٠-فرانك كيلش : ثورة الأنفوميديا : سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٢٢٣ ، يناير ٢٠٠٠ .
٣١-محمد السيد سعيد : استيعاب التكنولوجيا المتقدمة فى مصر، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٧م.
٣٢-محمد عابد الجابرى : تكوين العقل العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩١م.
٣٣-محمد على حوات : مفهوم الشرق أوسطيه وتأثيرها على الأمن القومى العربى : رسالة دكتوراه تحت الطبع : القاهرة ، ١٩٩٩م .
٣٤-محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بطاقة حياة.
٣٥-مستقبل الأمة العربية : مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ م.
٣٦-هانس بيتر مارتن وهارولد شومان : فخ العولمة ، ترجمة عدنان عباس على ، عالم المعرفة الكويت أكتوبر ١٩٩٨م .

(جـ) البحوث :

١- أحمد ثابت : العولمة ، تفاعلات وتناقضات التحولات الدولية ، سلسلة بحوث سياسية ، ١١٩ مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، أبريل ، ١٩٩٢م.
٢- أسعد عبد المجيد : فى كتاب العرب ونظام عالمى جديد ، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ، ١٩٩٨م.
٣- أنطون بطرس: الإنترنت شبكة تحتوى العالم، فى كتاب العربى : الكتاب الأربعون وحضارة الحاسوب والإنترنت " الكويت" إبريل ٢٠٠٠.
٤- محمد منير مجاهد : التكنولوجيا النووية، محمد السيد سعيد محرر ..مبادرة التقدم: التكنولوجيا المتقدمة فى مصر.
٥- نادر الريس ، العلم والتكنولوجيا فى : صبري جريس وأحمد خليفة محرران دليل إسرائيل العام، بيروت، مؤسسة الدراسة الفلسطينية، ١٩٩٦م.
٦- نبيل على : ثورة المعلومات : الجوانب التقانية ، فى كتاب ، العرب والعولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٨م .

(د) ندوات ومؤتمرات :

١- ألفونس عزيز: الوطن العربى ومواجهة تحديات العولمة ـ بحث مقدم إلى ندوة العولمة والعالم العربى: القاهرة من ١٧-١٨ مايو ٢٠٠٠م.
٢- علاء الخواجه : الآثار الاجتماعية للعولمة فى دول الخليج : دراسة مقدمة إلى مؤتمر العولمة والعالم العربى ، مركز بحوث الدول النامية ، جامعة القاهرة من ١٧-١٨ مايو ٢٠٠٠م .
٣- فهمى هويدى : ندوة الحياة عن النظام الشرق أوسطى الجديد ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٢-١٤/٩/١٩٩٣م .
٤- محمد شومان عولمة الإعلام والهوية الثقافية العربية: بحث مقدم إلى ندوة العولمة وقضايا الهوية الثقافية. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة أبريل ١٩٩٨م.

(هـ) دوريات وتقارير :

١ ـ الدوريات :

١- إبراهيم العيسوى فى ندوة " مؤتمر منظمة التجارة العالمية فى سياتل فى.٥/١/٢٠٠٠م " ، المستقبل العربى ، العدد ٢٥٦ ، يونيه ٢٠٠٠م .
٢- إبراهيم النوار: العرب فى مواجهة النظام التجارى العالمى الجديد تكتل اقتصادى أم تنويع هياكل الإنتاج ،مجلة الباحث العربى : العدد ٣٨ مارس ـ يونيو ١٩٩٥م .
٣- إبراهيم نوار : الأثار المتوقعة لتحرير التجارة العالمية (الجات) على اقتصاديات الدول العربية: مجلة الباحث العربى عن مركز الدراسات العربية ، لندن، العدد ٣٥ مارس ، يونيو ١٩٩٤.
٤- أحمد شاه : السلام الأمريكى إلى أين ؟مجلة الطريق،العدد الثانى، بيروت، مارس-أبريل ١٩٩٦م.

٥- أحمد مجدى حجازى، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية رؤية نقدية من العالم الثالث، مجلة عالم الفكر.
٦- أحمد يوسف أحمد . العرب وتحديات النظام الشرق أوسطى . المستقبل العربى، العدد (١٧٩) ، يناير ١٩٩٤م.
٧- أحمد يوسف أحمد : أفكار حول السلام والنظام الشرق أوسطى ، جريدة الحياة ، ١٩٩٣/١٠/٢٣ م.
٨- إسماعيل صبرى عبد الله : الرأسمالية العالمية فى مرحلة ما بعد الإمبريالية ، مجلة المستقبل العربى ، عدد ٢٢٢ ، ١٩٩٧/٨م .
٩- إسماعيل صبرى عبد الله : الكوكبة الرأسمالية العالمية فى مرحلة ما بعد الإمبريالية ، مجلة المستقبل العربى ، عدد ٢٢٢ ، ١٩٩٧م .
١٠- الحسين عصمه : العالم الإسلامى وتحديات العولمة ، مجلة الكلمة ، العدد ١٩، ربيع ١٩٩٨م.
١١- الشرق أوسطية بين آسيا وأوربا : السياسة الدولية ، العدد ١٣٠ ، أكتوبر ١٩٩٧م.
١٢- المستقبل العربى : العدد ٢٢٨ ، ١٩٩٨/٢م .
١٣- برها غليون: منهج دراسة مستقبل الديموقراطية فى البلدان العربية. المستقبل العربى: العدد ٢١٣، ١٩٩٦/١١م .
١٤- بيتر ديكن : الشركات الكبرى المتعددة المواطن والدولة الأم ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، عدد (١٥١) ، مارس ١٩٩٧م .
١٥- جميل مطر : مستقبل النظام الإقليمى العربى ، المستقبل العربى ، العدد (١٥٨) أبريل١٩٩٢م .
١٦- حسام الخطيب: أى أفق للثقافة العربية وأدبها فى عصر الاتصال والعولمة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٢٨ العدد (٢) أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٩ الكويت.
١٧- حسن حنفى "كبوة الحضارة والإصلاح والنهضة ومستقبل العرب: الراية ١٩٩٧/٦/٢٢م.
١٨- حسنين توفيق إبراهيم : النظام الدولى الجديد فى الفكر العربى ، عالم الفكر ، المجلد ٢٣، العددان ٣ ، ٤ ، يناير - يونيه ١٩٩٥م .
١٩- حيدر إبراهيم: العولمة وجدل الهوية الثقافية، مجلة عالم الفكر: المجلد ٢٨، العدد الثانى، أكتوبر/ ديسمبر ١٩٩٩م.
٢٠- خالد محمد بهاء الدين : على الجميع أن يكونوا حسب المواصفات الأمريكية : مجلة المعرفة العدد (٥١) ورابط المعارف السعودية : الرياض سبتمبر ١٩٩٩ م.
٢١- رغيد الصلح : المشاريع الإسرائيلية - شهادات المنشأ غربية ، الحياة ، ١٩٩٣/٧/٢٦م.
٢٢- زكى أحمد ، النظام العالمى الجديد فى تصور الإسلاميين العرب ، المستقبل العربى ، العدد (١٥٧)، مارس ١٩٩٢م.
٢٣- زكى الميلاد : مجلة الكلمة ، العدد ١٩ ، ربيع ١٩٩٨م ، بيروت ، ص ٩ .
٢٤- سعد زغلول مراد : الصحفيون ليسوا قطيعاً ولكنهم صهر الأمة ، مجلة الدراسات الإعلامية، العدد ٨٩، ١٩٩٧م .
٢٥- سليمان الرياشى : قضية اللاجئين الفلسطينيين ، المستقبل العربى ، العدد ٢٥٢، ٢٠٠٠/٢م.

٢٦ـ عبد الإله بلفرايز "بعد انهيار الاتحاد السوفييتي .. ما العمل ؟ المستقبل العربي ، العدد ١٥٤، ديسمبر ١٩٩١م .
٢٧ـ عبد الله عبد الدائم: دور التربية العربية المتغير مع دخول القرن الحادى والعشرين: مجلة شئون عربية العدد ٩٣ ، مارس ١٩٩٨م.
٢٨ـ عبد الرؤوف الريدى : سفير العرب والشرق الأوسط الجديد ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٣/١٠/٩م .
٢٩ـ عبد العاطى محمد : قمة شرم الشيخ وآفاق السلام والأمن بالشرق الأوسط، السياسة الدولية ، العدد ٢٤، أبريل ١٩٩٦.
٣٠ـ عبد العظيم حماد : الاتجاهات المضادة للعولمة ، مجلة المعرفة ، العدد ٤٦ ، أبريل ، مايو ١٩٩٩م .
٣١ـ عبد المنعم حسن " قرار مجلس التعاون الخليجى ومصير المقاطعة العربية الإسرائيلية: السياسة الدولية عدد ١١٩: يناير ١٩٩٥م.
٣٢ـ عبد المنعم سعيد : مستقبل السلام الإقليمى فى الشرق الأوسط ، الحياة ، ١٩٩٣/١٠/٤م.
٣٣ـ غسّان العربى : فى جذور العولمة وإشكالياتها ، مجلة منبر الحوار ، العدد ٣٧ ، شتاء ١٩٩٩م.
٣٤ـ فريد هاليداى الباحث العربى عدد ٤٣ .
٣٥ـ فهيمة شرف الدين : الفكر الاستراتيجي الغربى ، العدد ٩١ ، شتاء ١٩٩٨ .
٣٦ـ فوزى حماد : لكى نتجنب مصير الهنود الحمر ! مجلة المصور ، عدد ١٩٩٩/٢/١٩
٣٧ـ لطفى الخولى : عرب نعم ولكن شرق أوسطيون أيضاً ، الحياة ، ١٩٩٣/٥/٢٠م .
٣٨ـ مجدى حماد: المنظمات الإقليمية ومسألة الوحدة، المستقبل العربى، العدد ١١١، مارس ١٩٨٩م.
٣٩ـ مجلة الدراسات الفلسطينية : (شتاء) ١٩٩٠م.
٤٠ـ مجلة العلوم التربوية : العددان الثالث والرابع.
٤١ـ مجلة الفرسان ، العدد ٦٩٠ ، ٣٩ أبريل ، ١٩٩١م .
٤٢ـ مجلة الكلمة : العدد (١٦) بيروت ، صيف ١٩٩٧م ، ص ٨٠ .
٤٣ـ مجلة المستقبل العربى: النظام التجارى الجديد ومستقبل التنمية العربية : العدد ٢٠٤، فبراير ١٩٩٦م.
٤٤ـ مجلة الوحدة: العدد ٩٠ ـ مارس ١٩٩٢م.
٤٥ـ مجلة الوسط عدد ٢١ تاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤م.
٤٦ـ مجلة روز اليوسف ـ العدد ٣٥٣٢ ـ ١٩٩٦/٢/١٩م.
٤٧ـ مجلة منبر الحوار : العدد ٣٧ شتا ١٩٩٩ ، بيروت.
٤٨ـ محمد الأطرش : مجلة المستقبل العربى ، العدد ٢١٠ ، ١٩٩٦/٨ م.
٤٩ـ محمد سعد أبو عامود ، الشرق أوسطية فى الفكر السياسى العربى ، السياسة الدولية ، العدد (١١٥) مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، يناير ١٩٩٤م) .
٥٠ـ محمد عبد السلام : فى ندوة مستقبل الاحتكار النووى الإسرائيلي : المستقبل العربي ، العدد ٢٠٨ يوليه ١٩٩٦م.
٥١ـ مراد وهبه : ثقافة شرق أوسطية ، جريدة الحياة ، ١٩٩٣/٨/١م .
٥٢ـ مصطفى عبد الغنى ، الجات والتبعية الثقافية ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٩٥م.

٥٣- مصطفى عدوى : أزمة الثقافة العربية والحوار في ظل العولمة وثورة المعلومات ، مجلة الكلمة، العدد ٢٥ ، خريف ١٩٩٩ .
٥٤- مفيد شهاب: نحو بلورة رؤية عربية مشتركة للشراكة الأوروبية المتوسطية ، مجلة شئون عربية، العدد ٨٨ ، ديسمبر ١٩٩٦م.
٥٥- من حديث مع د. صمويل هينتجتون أجراه في واشنطن محمد على صالح : مجلة المجلة ،العدد ٨٩٦ من ١٣-١٩/٤/١٩٩٧.
٥٦- منير الحمش : النظام الإقليمي الغربي والتحديات الاقتصادية ، المستقبل الغربي : العدد ٢٥٢، ٢/٢٠٠٠م.
٥٧- نادر فرجاني : الإمكانات البشرية والتقانية العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٢٥٢ ، فبراير ٢٠٠٠ م .
٥٨- نادر فرجاني : عن التعليم والاقتصاد ، البلدان العربية في سياق العالم ، المستقبل العربي ، عدد ١٩٦، ٦/١٩٩٥م .
٥٩- نبيل عبد الكريم : التابع والمتبوع ، " قراءة في العلاقات الاقتصادية بين دول الشمال ودول الجنوب، مجلة قيد الحوار ، العدد ٢٥ صيف ١٩٩٢ .
٦٠- ياسين سويد . موقع الوطن العربي في النظام الدولي الجديد . مجلة الوحدة ، العدد (١٠٠)، الرباط ، يناير ١٩٩٣م.

٢ - التقارير :

١- التقرير الاستراتيجي العربي : معركة الشرق أوسطية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
٢- السيد يس : التقرير الاستراتيجي العربي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام، القاهرة ، ١٩٩٠م .

ثانياً : المراجع الإنجليزية :

1- Mike Featterston , Scott Lash and Roulad Robertson, Glob al moidernities, London 1995 .
2- Jan Aart Schslte, Global Capitceli ism and the State International affaire, vol. 73, No. 3 , July 1997.
3- Abdul - Monem Almashat : The Economic of Regional Secaxty in the Middle East, Cairo University, November 1994.
4- Arne, E Bryan Modern Telecom Mummification: N.Y: Plenum Press, - 1984
5- Barden Robert and Hacker, Micheal Commuhication Technology, N Y : Delmar Publishers, Inc. 1990.

6- Patel Patrick - (Understanding the nature of the web) in Database Prorpemming and Design Jan 1998. Vol.11.
7- Robin wright old ways falling but new order is still working, Los Angelos Times, June 26, 1991.
8- UNDP Human Development Report, 1997 (New York UNDP, oxford University Press, 1997)
9- Baree and Remi (S&T Indicators a world view) in : Observatories des sciences et des techniques (France.1998).
10 Economist (25 April 1998).
11- UNESCO, World Science Report .
12- L,Afrigue et le mond apabe , ed Tharmatta 1996.
13- The Statistics about American Indians are from Thomas M. Brown (ed.). The Social Responsibility of the Scientist, New York: Free Press, 1971.
14- Kaarle Nordensterng Herbert I, Scheller. (Helsinki): (the New Equation) Journal of communication 1986.

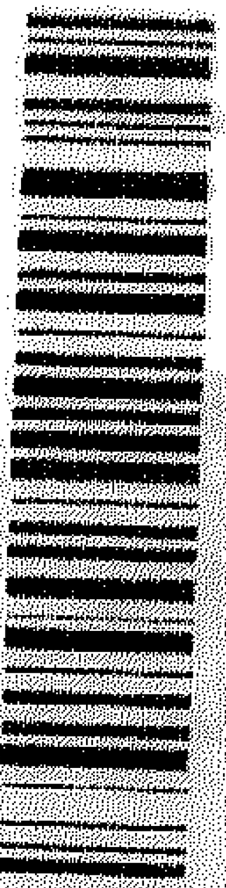
العرب والعولمة

شجون الحاضر وغموض المستقبل

ثارت فى الفترة الأخيرة مع دخول السنة الأولى من الألفية الثالثة تساؤلات أكثر جدية من سابقتها ، هذه التساؤلات تدور حول الفرص والمخاطر التى تفرزها العولمة وعن أساليب التعامل مع هذه الإفرازات ومرتكزاتها وأصبح من غير الممكن فهم عقد التسعينات من القرن الماضى وما حدث فيه من تطورات متلاحقة دون الرجوع إلى ظاهرة العولمة التى أصبحت الآن الإطار المرجعى لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية .

ورغم ارتباط مفهوم العولمة بالتحولات الخارقة للعادة التى تعيشها المجتمعات المعاصرة ، بما يشبه الثورات الكبرى التى قادت العالم الحديث نحو المجتمع الصناعى ، على أنها ثورات وتحولات تحدث على مستوى العالم فى أوقات متقاربة ، وتعمم من خلالها مفاهيم وتوجهات وأذواق ، إلا أن مصطلح العولمة لم يكن له أى وجود قبل منتصف الثمانينات من القرن العشرين ، وقد أصبح اليوم من أكثر المفاهيم والمصطلحات تداولاً على مستوى العالم .

إن الحديث عن العولمة قد تزامن مع بروز مجموعة من الظواهر السياسية والحياتية والمستجدات الفكرية والتطورات التكنولوجية التى تدفع فى اتجاه ترابط العالم وتشابكه وتقاربه وزيادة انكماشه .



وقد ارتبط مصطلح العولمة أشد الارتباط بالثورة العلمية والمعلوماتية ... والتى تكتسح العالم منذ بداية التسعينات أصبحت القوة الأساسية الم... بروز العولمة وإن لم تكن الوحيدة . فالثورة العلمية والتكنولوجية ... جعلت العالم أكثر اندماجاً وهى التى سهلت وعجلت حركة الأفراد ... الأموال والسلع والمعلومات والخدمات ، وهى التى جعلت المسافات ... والزمان والمكان فى حالة انكماش .